نايْجل وَاربُرتوْن

مختصر تاريخ الفلسفة

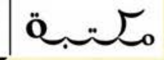


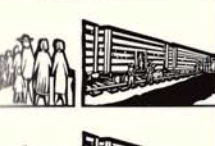
ترجمة: محمد مفضل

تقديم: علي حسين


















نايْجل وَاربُرتوْن

مختصر تاريخ الفلسفة

تبدأ الفلسفة بطبيعة الواقع والكيفية التي يجب أن نعيش بها. كانت هذه هي اهتمامات سقراط الذي قضى عمره في السوق الأثيني القديم يطرح أسئلة مقلقة على الناس الذين كان يلتقي بهم ويبين لهم أن ما يفهمونه حقًا هو قليل جدًا.

يقدم لنا هذا الكتاب التاريخي الممتع المفكرين العظماء في الفلسفة الغربية ويستكشف أفكارهم المهمة حول العالم وحول أحسن طريقة للحياة. يقودنا نايْجل وَاربُرتوْن، في أربعين فصلًا مختصرًا، في جولة نطلع فيها على أهم الأفكار في تاريخ الفلسفة. يقدم لنا قصصًا مثيرة للإعجاب وغير متوقعة من حياة وممات فلاسفة مثيرين للفكر، بَدءًا من القدماء الذين ناقشوا الحرية والروح، وانتهاءً بِبيتَر سِنْغَر الذي طرح أسئلة فلسفية وأخلاقية مقلقة تخصّ زماننا الحاضر.

لا يجعل وَاربُرتوْن الفلسفة في متناول الجميع فقط، بل يلهمنا أن نفكر، نناقش، نجادل ونسأل. يقدم مختصر تاريخ الفلسفة مسحًا عظيمًا لبحث الإنسانية عن الفهم الناقد و يدعونا جميعًا لأنْ نلتحق بالنقاش.



مكتبة | 897
سُر مَن قرأ

مختصر تاريخ الفلسفة

نَايْجِل وَاربُرتوْن

مختصر تاريخ الفلسفة

ترجمة
محمد مفضل





اسم الكتاب: مختصر تاريخ الفلسفة

اسم المؤلف: نَايْجِل وَاربُرتوْن

ترجمة: محمد مفضل

الطبعة الأولى 1440هـ/ 2019م

عدد الصفحات: صفحة 324

الناشر: دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع. العراق - بغداد

الرقم الدولي: ISBN: 978-9922-601-71-7



العراق - بغداد - شارع المتنبي
07819141219 | 07702931543
darktbalmya@yahoo.com



للنشر والترجمة
PUBLISHING & TRANSLATION
العراق - بغداد - المنصور
darmanairaq@gmail.com

المحتويات



تقديم

أربعون حكاية فلسفية

علي حسين

هذا كتاب أشبه بوجبة من الفلسفة كاملة الدَّسَم، والمؤلف (نايجل وَاربُرتوْن) يعرف كيف يستخلص المعاني الحقيقية التي طرحها أعظم الفلاسفة عبر العصور، حيث نعثر من خلال أَفلَاطوْن، وأَبِيقوْر، وسِينيكَا، وشُوبِنهَاوَر، ونِيْتشَه، ورسل، وهِيْغِل، على إجابات عن الحياة والحب والألم والمعاناة، ونبحث عن الفلسفة باعتبارها سؤالاً عن معنى وجودنا في الحياة مثلما أراد ذات يوم الفيلسوف اليوناني (سُقرَاط).

في الكتاب نتعلم من سُقرَاط معنى استقلال العقل: «ما ينبغي أن يقلقنا ليس عدد الأشخاص الذين يعارضوننا»، ولكن السؤال عما إذا كان لديهم أسباب وجيهة للقيام بذلك. ولهذا يحاول وَاربُرتوْن – مؤلف الكتاب – أن يشرح بأسلوب واضح وممتع، كيف يمكن للفلسفة التي يعتقد البعض إنها أصبحت

من الماضي في زمن وسائل الاتصال الحديثة، أن تقدم لنا حلولاً لمشكلات وتساؤلات تمس وضعه الراهن في حياتنا اليومية، كما إنها تساعدنا أو تقدم لنا العزاء من خلال استعراض مواقف إنسانية مَرَّ بها هؤلاء الفلاسفة.

يعد نايجل وَاربُرتوْن المولود عام 1962 من الشخصيات الفلسفية المعنية بالكتابة الفلسفية للقارئ العام، وله في هذا المجال عدة مؤلفات، منها: الفلسفة - الأساسيات، الذي طُبع أكثر من ثلاث عشرة طبعة، كذلك كتاب الفلسفة - الكلاسيكيات، فضلاً عن كتاب التفكير من الألف إلى الياء وكذلك كتاب لمحة تاريخية عن الفلسفة، إضافة إلى كتب أخرى مثل: الحرية مقدمة قصيرة، وقراءات في الفلسفة والفكر. وهو يدير اليوم موقعًا إلكترونيًا يقدم من خلاله مقابلات افتراضية مع كبار الفلاسفة يسلط من خلالها الضوء على أبرز أفكارهم.

من مقولة سُقرَاط الشهيرة (إعرف نفسك)، حيث يعتقد نايجل وَاربُرتوْن إن هذه العبارة هي تلخيص لحياتنا وأيضًا تمثل قدرتنا على معرفة الذّات، ويؤمن إن أحد مهام الفلسفة أن تعْرض لنا الوسائل التي تُساعدنا في مهمةِ معرفةِ ذواتنا، فنحن أحوج إلى مفرداتٍ نصوغ بها مشاعرًا وحالات ذهنية نمر بها، نحن أحوج ما نكون إلى التشجيع لأن نتوحد مع أنفسنا بانتظام، أحوج ما نكون إلى الأصدقاءِ والمتخصصين، الذي يستمعون إلينا بتعاطف وبدقةٍ عالية، وأحوجُ ما نكون إلى الفنِّ، ليُضِيءَ

جوانب بعيدةَ المنالِ لأرواحنا. وقبل كلّ شيء، نحن بحاجةٍ إلى أن تتبنى أنفسنا خصلةَ التواضع، لتَسْهُل علينا مهمةُ فَهْمِنا لذواتنا.

يروج نايجل وَاربُرتوْن للفلسفة باعتبارها طريقة مهمة لعيش الحياة، وهو يحاول أن يجيب على أسئلة مثل: ما هي الفلسفة؟ وهل الاهتمام بها مضيعة للوقت؟ من خلال كتب تسعى لخلق جسر من التواصل الحميمي بين القارئ، وبين الأعمال الأدبية والفلسفية الخالدة. وهو لا يسعى لتقديم تحليل نظري ونقدي لتلك الكتب، وإنما يصرّ على نبش ما تخبئه بين أوراقها من أشياء قد تفوت على القراء، كما أنه لا يروج لهذه الكتب بطريقة تحمل فذلكات النقاد، وإنما يتبع المضمون الجوهري لهذه المؤلفات، مِنْ أَجْلِ أن يعثر القارئ على طريقة سهلة وممتعة توصله إلى اكتشاف الدروس الإنسانية ويعلمنا طريقة الشغف بأدق تفاصيل حكايات الكتب ومؤلفيها.

منذ القدم والفلسفة تبدأ بأسئلة حول طبيعة الواقع وكيف يجب أن نعيش. كانت هذه مخاوف سُقرَاط، الذي قضى أيامه في الأسواق يطرح أسئلة محرجة على المارة، ومثل سُقرَاط، يواجه وَاربُرتوْن القراء بـ (أسئلة وحكايات) عن الفلسفة وكيف يمكنها أن تساعدهم لأن يجدوا أجوبة لأسئلة تدور حول الواقع والحرية والأخلاق والدين والسياسة، وهي أسئلة شغلت البشرية منذ أكثر من 2000 عام.

في الفصول الأربعين من هذا الكتاب الممتع، يأخذنا وَاربُرتوْن في جولة زمنية للأفكار الرئيسة في تاريخ الفلسفة.

وهو يقدم قصصًا مثيرة للاهتمام وغريبة في كثير من الأحيان عن حياة وموت ومواقف فلاسفة أثاروا الكثير من الأسئلة في حياتهم وبعد مماتهم.

إنها حكاية الفكر البشري، وحماسات وكوارث وأفراح وأحزان أكثر من عشرين قرنًا من تاريخ البشرية. نذهب فيها مع وَاربُرتوْن الذي يعاشر سُقرَاط، وهيراقليطس، وأَبِيقوْر، وأَفلَاطوْن كما لو كانوا معاصرين له، ويحاور كَانْط، هِيْغِل، نِيْتشَه، وكيركجارد، ويستكشف أسرار سبِيْنَوْزا، وشوبنهور، ورسل، وبَاسْكَال، وروسو، ويسأل عن سَارْتَر، مِارْكس، ألبير كَامُو، أَلَان تُوْرِن، وكَارْل پَوپِر، وهو في كل هذا لا يقدم للقارئ سير ذاتية لهؤلاء، بل يساعد في الوصول إلى أفكارهم، ويقدم دروسًا في أهمية الإلهام والتفكير والمجادلة والعقل والسؤال. ويعرض التاريخ الحقيقي للفلسفة في البحث عن غاية العيش على هذا الكوكب.

هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارئ العربي، بِيعَ أكثر من مئة ألف نسخة في طبعته الإنكليزية، وأصبح مؤلِفَه واحدًا من أكثر الفلاسفة المعاصرين شعبية في العصر الحديث. يؤمن أن الفلسفة يمكن أن نتكلم عنها في الأسواق مثل ما كان يفعل سُقرَاط بشرط أن يكون هناك وضوحًا، ومن دون حيل أو ادعاءات.

على مدى 40 حكاية، يقدم لنا وَاربُرتوْن بعض الأدوار التي قد يلعبها الفلاسفة في الحياة اليومية. هل يجب أن يكونوا

بمثابة نخبة حاكمة كما اقترح أَفلَاطوْن؟ أو مخادعين مثلما أراد ميكيافيللي، ومثل سُقرَاط يواجه القراء بـ (أسئلة محرِجة) حول الطريقة التي يعيشون بها حياتهم، ويشجعهم على التشكيك في معتقداتهم حول الواقع والحرية والأخلاق والدين والسياسة.

يدرس وَاربُرتوْن الخط الفاصل بين نشر التعاليم الفلسفية القديمة ورسم تفاصيل الحكمة المعاصرة من خلال إعادة الحياة إلى آراء الفلاسفة الكبار، ففي الفصل الذي يخصصه لآراء سِينيكَا الرواقية حول تحقيق أقصى استفادة من حياتنا القصيرة. «الناس سوف يضيعون ألف سنة بسهولة مثلما يفعلون في الحياة التي بين أيديهم، البعض يطاردون المال، والبعض الآخر يقع في فخ إعطاء كل وقته للمتعة اليومية» ويطرح لنا وَاربُرتوْن رسالة مهمة من تعاليم سِينيكَا: «لهذا السبب ينشغل الكثير من الناس بالعمل التافه، الذي هو حسب رأي سِينيكَا، طريقة لتجنب حقيقة فشلنا في القيام بواجبنا تجاه الحياة». ونجد وَاربُرتوْن يسخر من أولئك الذين يكتبون فلسفة صعبة أو غامضة: «لا أحد... ربما حتى هِيْغِل، قد فهم كل ذلك»، مفضلاً أولئك الذين يعتقدون أن الفلسفة يجب أن تغير طريقة حياتنا. في واحدة من فصول الكتاب يعلن وَاربُرتوْن إنه خلال القرن العشرين، فُقدت الفلسفة مع كبار المفكرين في الماضي، كَانْط رُوسُو وأَرِسْطو وآخرون، وهو يحاول أن يوجه القراء إلى فلاسفة أعادوا للفلسفة توهجها مثل بِرتْرَانْد رسل وجُوْن رُوْلز بوْل ريكور.

في هذا الكتاب، أعد وَاربُرتوْن تاريخًا قصيرًا وغنيًّا عن الفلسفة، وتمكّن من تغطية مساحة كبيرة من الأراضي الفلسفية الشاسعة في 40 فصلاً ستترك لنا فضولاً كبيرًا لمعرفة المزيد. ومثلما سعى أَفلَاطوْن إلى إنقاذنا من الكهف، يجتذبنا وَاربُرتوْن من المسار الغامض للفلسفة الذي يريد لنا البعض أن نعيش فيه، ويذكرنا بأن هناك قضايا تستحق الاستكشاف، حتى لو كان كل ما اكتشفناه، مثل سُقرَاط، أن نعرف أنفسنا، فالمهم أن نمضي مع اقتراح فُوْلتَير (زراعة حديقتنا بالأفكار)، والتفكير بصراحة ونقد على غرار رُوسُو، وتحدي العقيدة والظلم مثلما فعل مِارْكس، مِيل، وجُوْن لُوك. الفلسفة هي تشجيع الآخرين على القيام بفعل التغيير.

مقدمة المترجم

عندما كنت أقرأ الكتاب استعدادًا لترجمته، شعرت بمتعة غريبة. أحسست وكأنني أقرأ عن الفلسفة للمرة الأولى، وكأن الأفكار الفلسفية المعقدة أصبحت في متناول الجميع. يتميز هذا الكتاب بقدرته على تبسيط ما هو معقد وعلى تلخيص قرون من التفكير الفلسفي العميق.

يبدو أن مؤلف الكتاب، نايجل وَاربُرتوْن، له معرفة كبيرة بتاريخ الفلسفة وقضاياها الأساسية عبر العصور. وَاربُرتوْن هو فيلسوف بريطاني مشهور بكتاباته الموجهة للقراء غير المتخصصين، بالإضافة إلى كتاباته الأكاديمية في مجالي الجمال والأخلاق.

تمكنك قراءة هذا الكتاب من معرفة القضايا الأساسية التي تناولتها الفلسفة عبر التاريخ، وقد حددها المؤلف في مسألتين رئيسيتين: علاقتنا بالواقع، واختيارنا لطريقة الحياة. ترتبط المسألتان بقوة من حيث أن فهمنا لطبيعة الواقع وعلاقتنا به يحددان فعلاً اختياراتنا في ما يتعلق بطريقة الحياة. منذ زمن الفلاسفة الأوائل، وخصوصًا سُقرَاط الذي يعتبره المؤلف مصدر

إلهام لجميع الفلاسفة في كل الأزمان لإصراره على طرح أسئلة محرجة ومزعجة على الآخرين ومحاولته إقناعهم بأن الإنسان لا يعرف إلّا القليل.

يأخذك الكتاب في رحلة طويلة عبر التاريخ ويستعرض قضايا تلو أخرى، ويحلل الاتجاهات الفلسفية في تكاملها وتقاطعها وتناقضها مع بعضها البعض. ستعيش لحظات من السعادة مع أَرِسْطو وفترات من الشك ستصيبك بالدهشة مع بِيْرو، وستتعلم كيف تستمتع بالحياة مع أَبِيقوْر وكيف تعيش سعيدًا بفضل اللا مبالاة مع إبيكتيتوس. ويتغير المسار بعد ظهور المسيحية، ليقدم لك الكتاب نقاشًا حول وجود الإله وطبيعته ووجود الشر في العالم والإرادة الحرة للإنسان مع فلاسفة كأَوْغَسْطِين وأنسِلِم والأكويني، ثُمَّ يعود ثانية إلى عزاء الفلسفة لبَويثِيوْس حيث تتعرف مع هذا الأخير على السعادة الحقيقية التي يجب أن لا تعتمد على شيء متغير، بل تأتي دائمًا من الداخل، من الأشياء التي نتحكم فيها.

ستلتقي حتمًا بكل الفلاسفة الذين أسسوا للنهضة الأوروبية. ستبدأ بمِكيَافِيلِّي الذي نظر للسياسيين وستتعرف على وصفه لخطط واستراتيجيات السياسي الثعلب والأسد في محاولته البقاء في السلطة لوقت أطول. ثُمَّ ستتجول بين الفلسفات المثالية العقلانية والمادية التجريبية، والاجتماعية والأخلاقية، حيث كل فيلسوف يحاول فهم الإنسان، وعلاقته بالواقع والكيفية

التي يجب أن يعيش بها كفرد وكجزء من كيان اجتماعي، كل من وجهة نظرته.

ستفهم تدريجيًّا كيف ارتقى الإنسان بفكره وخَلَق نهضة فكرية واجتماعية أسَّست للحضارة كما هي اليوم وللمجتمع التعايش الديمقراطي كما تخيله رُوسُو من خلال العقد الاجتماعي. كما يستعرض الكتاب النظريات الفلسفية وآثارها على المجتمع الإنساني، فيكشف العلاقات الخفية التي توجد بين بعض النظريات والتحولات التي وقعت في العالم، سواء الإيجابية أو السلبية، كتنظير مِارْكس لثورة شيوعية حكمت جزءًا من العالم لعشرات السنين، وتأسيس كَانْط لفلسفة أخلاقية ما زالت ترشد الجمعيات الحقوقية في سياساتها وأهدافها. مع تقدم العلم وتراجع تأثير الدين في الحياة العامة، تغير فهم الإنسان للحقيقة وتغير تصوره للكون. زحزح دَارْوِين بنظريته لأصل الأنواع والتطور بالانتقاء الطبيعي إيمان الناس في قصة الخلق وحتى في وجود إله كلي المعرفة والقدرة والخيرية، وأصبحت المخلوقات البشرية حسب دَارْوِين تشترك مع باقي الحيوانات في الأصل وخاضعة لنفس عملية التطور. كانت الفرصة مناسبة لفيلسوف عدمي نِيْتشَه ليعلن موت الإله ويبحث في أصل الأخلاق ويبشر بظهور إنسان فائق لا يكترث بالضعفاء ويؤمن بالقوة كأساس للحياة. لسوء حظ نِيْتشَه، استغل النازيون فكرته ليدمروا جزءًا كبيرًا من حضارة الإنسان في النصف الأول من القرن العشرين.

ظهرت في القرن التاسع عشر فلسفات عدة ومتنوعة التوجه كالمذهب النفعي الذي ربط الحقيقة بالمنفعة وجعل المتعة والسعادة غاية الإنسان. كما ظهر التحليل النفسي وأصبح اكتشاف اللاوعي ثالث ثورة حدثت في تاريخ أوروبا بعد ثورة كوبرنيكوس في القرن السادس عشر بعد اكتشافه أن الأرض ليست هي مركز الكون، وبعد الثورة التي أحدثتها نظرية التطور دَارْوِين. ستكتشف مع التحليل النفسي أن الإنسان لا يتحكم تماماً في أفعاله لأنها موجهة من طرف رغبات مخفية عنه.

بعد الحرب والخراب الذي أصاب العالم بعد الحربين العالميتين، تساءل الناس قبل الفلاسفة عن معنى الوجود وغايته. ظهرت الوجودية وأكدت لعالم مصدوم بويلات ومآسي الحرب بأن الإنسان حر لأن وجوده يسبق أي جوهر، وأن الحياة لا معنى لها وأن اختياراته هي التي تعطي معنى للحياة. خلقت هذه النظرية قلقًا وكربًا كبيرًا لمعتنقيها وأصبحت موضوعًا للنقاش في كل التجمعات والمنابر. غير أن فلاسفة آخرين، مثل حَنًّا آرِنْت، اهتموا أكثر بطبيعة الشر الذي حرك الحقد النازي في الحرب العالمية الثانية.

إذا كنت من عشاق المنطق، سيقدم لك الكتاب تجارب فكرية صُمِّمت من طرف فلاسفة ومناطقة للتفكير في إشكاليات أخلاقية ومعرفية، كالعدالة والواجب الأخلاقي وطبيعة اللغة في علاقتها بالتفكير الفلسفي، والعناية بالحيوانات، وفي الأخير طبيعة الذكاء الاصطناعي للحواسيب ومقارنته بالذكاء الإنساني.

قد أنسى أن أذكر بعض الفلاسفة بالاسم لطبيعة السياق الذي أكتب فيه، لكني أصر في الأخير على ذكر كَارْل پَوپِر لدوره الكبير والمهم في تطوير فلسفة العلوم والمنهج العلمي. كما أذكر بعد قراءتي وترجمتي لهذا الكتاب الأمثلة الرائعة التي قدمها كاتب هذا المؤلف لتبسيط أفكار فلسفية كنت إلى وقت قريب لا أدركها تمامًا وشعرت بعد قراءة هذا الكتاب أنني اكتسبت معرفة جديدة وعملية تساعدني، وأخمن أنها ستساعد القراء أيضًا، على فهم علاقتنا بالواقع بطريقة أحسن وعلى زيادة قدرتنا على الاختيار في أن نكون أحرارًا، سعداء وأكثر وعيا، وعلى التصرف بطريقة أخلاقية وإنسانية.

د. محمد مفضل

20 تشرين الثاني / نوفمبر 2018

آزمور / المغرب

الفصل الأول



سُقرَاط وأَفلَاطوْن

الرجل الذي طرح أسئلة

مضت 2400 سنة على إعدام رجل طرح أسئلة كثيرة في أثينا. كان هناك فلاسفة قبل سُقرَاط، لكن مع سُقرَاط انطلقت الفلسفة.

إذا كان للفلسفة من قائد معلم فهو سُقرَاط. لأن سُقرَاط كان أفطس الأنف، قصيرًا وبدينًا، ورثّ الملبس، فإنه لم يندمج في مجتمعه. على الرغم من أنه كان قبيح الوجه ولا يغتسل إلّا نادرًا، فقد كانت له شخصية قوية وعقل ذكي. اتفق الجميع في أثينا على أنه لم يشبهه أحد من قبل وربما لن يشبهه أحد في المستقبل. كان فريدًا. لكنه كان مزعجًا جدًا. كان يرى نفسه كذباب خيل له لسعة مقرفة – كنعرة. إنهم مزعجُوْن لكنهم لا يلحقون أذى

بليغا. لم يكن الكل متفقًا على ذلك في أثينا على الرغم من ذلك. أحبه البعض لكن آخرون اعتبروا أن له تأثيرًا خطيرًا.

كان، كشاب يافع، جنديًّا شجاعًا حارب في الحروب البيلوبونية ضد سبارتا وحلفائها. عندما توسط عمره، كان يسير في السوق ويوقف الناس من حين لآخر ليسألهم أسئلة خرقاء. كان هذا هو كل ما فعله إلى حد ما. لكن الأسئلة التي كان يطرحها كانت حادة كشفرة الحلاقة. كانت تبدو مُباشِرة لكنها لم تكن كذلك.

كان حواره مع يوتدموس مثالاً على هذا الأمر. سأله سُقرَاط إذا ما كان يعتبر الخداع غير أخلاقي. أجابه يوتدموس بأنها بالتأكيد كذلك. لكن سُقرَاط سأله ماذا لو أن صديقك كان محبطًا وربما يحاول قتل نفسه، فقمت بسرقة سكينه؟ أليس هذا عملاً مخادعًا؟ بالطبع هو فعل مخادع. لكن أليس هذا الفعل أخلاقي وليس بالأحرى لا أخلاقي؟ إنه شيء جيد وليس بسيئ – على الرغم من أنه فعل مخادع. أجابه يوتدموس بنعم، فأصبح بذلك مكبلاً بإجاباته المتناقضة. بين سُقرَاط، باستعماله لمثال مضاد وذكي، بأن تعليق يوتدموس العام بأن الخداع فعل لا أخلاقي ليس صحيحًا في كل الوضعيات. لم يكن يوتدموس ليدرك هذه الحقيقة من قبل.

بين سُقرَاط مرارًا وتكرارًا بأن الناس الذين كان يلتقيهم في السوق لم يكونوا يعرفون حقيقة ما يعتقدون أنهم يعرفون. قد يبدأ قائد عسكري الحوار وهو واثق بأنه يعرف ما تعنيه الشجاعة لكن حواره مع سُقرَاط قد يتركه مرتبكًا تمامًا. من

الأكيد أن هذه التجربة هي مثيرة للقلق. كان سُقرَاط يجب أن يكشف عن حدود ما يفهمه الناس حقًا، وأن يضع الافتراضات التي يؤسسون عليها حياتهم موضع تساؤل. كل حوار ينتهي بمعرفة الناس أنهم يعرفون القليل هو نجاح بالنسبة إليه. يكون هذا الأمر أحسن من الاستمرار في الاعتقاد بأنهم فهموا شيئًا في حين أنهم لم يفهموا شيئًا على الإطلاق.

كان أغنياء أثينا يرسلون أبناءهم في ذلك الوقت للتعلم من السوفسطائيين. كان السوفسطائيون معلمين أذكياء يدربون تلامذتهم على إتقان فن إلقاء الخطب. كانوا يطلبون أتعابًا باهظة مِنْ أَجْلِ ذلك. لكن سُقرَاط لم يكن يقبل أتعابًا مقابل خدماته. في الواقع كان يدعي بأنه لا يعرف أي شيء، فكيف له أن يعلمهم؟ لم يمنع هذا التلاميذ من القدوم إليه والاستماع لحواراته. وقد أثر هذا على سمعته لدى السوفسطائيين.

ذات يوم ذهب صديقه شاروفون إلى كاهنة أبولو في ديلفي. كانت الكاهنة امرأة مسنة وحكيمة، وكانت عرافة تجيب عن أسئلة الزوار. كانت أجوبتها تتخذ عادة شكل لغز. سألها شاروفون: «هل هناك شخص أحكم من سُقرَاط؟». جاءه جوابها بلا: «ليس هناك شخص أحكم من سُقرَاط».

عندما حكى شاروفون لسُقرَاط عن هذا الجواب لم يصدقه في البداية. حيره فعلاً هذا الأمر. تساءل: «كيف يمكنني أن أكون أحكم إنسان في أثينا مع أنني لا أعرف إلّا القليل». كرس سنوات لسؤال الناس ليعرف إن كان هناك شخص أذكى منه.

أدرك أخيرًا ما كانت تعنيه الكاهنة وأنها كانت على حق. الكثير من الناس ماهرون في الأعمال المختلفة التي يقومون بها - يكون النجار ماهرًا في النجارة، والجنود في القتال، لكن لا أحد منهم هو حقًا حكيم. لا يعرفون حقًا ما يتكلمون عنه.

تُشتق كلمة (فيلسوف) في اللغة اليونانية من كلمات تعني (حب الحكمة). انتشر التقليد الفلسفي الغربي الذي يهتم هذا الكتاب برسم ملامحه من بلاد الإغريق القديمة إلى أجزاء واسعة من العالم، وتم تلقيحها أحيانًا بأفكار من الشرق. يعتمد نوع الحكمة التي تقدرها الفلسفة على الحجة والمنطق وطرح الأسئلة وليس على الاعتقاد في الأشياء فقط لأن شخصًا مهما قال لك بأنها صحيحة. بالنسبة لسُقرَاط ليست الحكمة هي معرفة الكثير من الحقائق أو معرفة فعل شيء ما. إنها تعني فهم الطبيعة الحقيقية لوجودنا، ويتضمن ذلك حدود ما يمكن أن نعرفه. يفعل الفلاسفة اليوم ما كان يفعله سُقرَاط إلى حد ما: طرح أسئلة مشاكسة والنظر إلى الأسباب والدليل، ومحاولة الإجابة عن بعض الأسئلة الأكثر أهمية التي يمكن أن نطرحها حول طبيعة الواقع وكيف يجب أن نعيش.

على الرغم من ذلك، ففلاسفة العصر الحديث - خلافًا لسُقرَاط - يستفيدون من حوالي ألفين وخمسمائة سنة من التفكير الفلسفي ليؤسسوا نظرياتهم الجديدة. يفحص هذا الكتاب أفكار مفكرين أساسيين في تقليد التفكير الغربي، هذا التقليد الذي بدأه سُقرَاط.

ما جعل سُقرَاط حكيمًا هو طرحه الأسئلة ورغبته في مناقشة أفكاره باستمرار. تستحق الحياة العيش، حسب تصريحه، إذا كنت تفكر في ما تفعل. الحياة غير المفكر فيها هي حياة للبهائم وليست حياة لمخلوقات بشرية.

خلافًا لما هو معروف عن الفلاسفة، رفض سُقرَاط أن يكتب أي شيء. بالنسبة إليه، الكلام أحسن من الكتابة. لا يمكن للكلمات المكتوبة أن ترد؛ لا يستطيعون تفسير أي شيء لك إذا لم تستطع فهم معانيها. كان يؤكد على أن الحوار وجها لوجه هو أحسن. عندما نتحدث إلى شخص ما نكون على معرفة بنوعية الشخص الذي نتحدث إليه؛ يمكننا أن نجعل كلامنا ملائمًا لهذا الشخص حتى يتم التواصل. لأن سُقرَاط رفض الكتابة فقد تعرفنا على ما فكر فيه هذا الرجل العظيم وما ناقشه من خلال تلميذه المشهور أفلَاطوْن. كتب هذا الأخير الحوارات التي دارت بين سُقرَاط والناس الذين حاورهم. تُعرف هذه الحوارات بالحوارات الأَفلَاطوْنية وهي منجزات عظيمة في الأدب والفلسفة. كان سُقرَاط شكسبير عصره إلى حد ما. بقراءتنا لهذه الحوارات، فإننا نكوّن فكرة عن من يكون سُقرَاط وعن ذكائه وعن إزعاجه للآخرين.

في الواقع ليس الأمر بهذا الوضوح لأنه لا يمكننا معرفة ما إذا كان أَفلَاطوْن كتب فعلًا ما قاله سُقرَاط أو أن أَفلَاطوْن كان يمرر كلامه هو باسم سُقرَاط.

من بين الأفكار التي يعتقد الناس أنها لأَفلَاطوْن وليست لسُقرَاط هو أن العالم ليس كما يبدو. هناك فرق كبير بين المظهر والواقع. يعتقد أغلبنا أن المظهر هو الواقع. نظن أننا نفهم العالم في حين أننا لسنا كذلك. يعتقد أَفلَاطوْن بأن الفلاسفة هم وحدهم من يفهم حقيقة هذا العالم. إنهم يكتشفون حقيقة هذا العالم بالتفكير وليس بالاعتماد على حواسهم.

لشرح هذه الفكرة وصف أَفلَاطوْن كهفًا. في ذلك الكهف الخيالي كان هناك ناس مكبلين وينظرون فقط إلى الحائط الذي أمامهم. كانوا يرون على الحائط أمامهم ظلالاً وامضة وكانوا يعتقدون أنها الأشياء الحقيقية، ولكنها لم تكن كذلك. ما كانوا يرونه هي ظلال لأشياء كانت توضع أمام نار توجد وراءهم. عاش هؤلاء الناس حياتهم وهم يعتقدون أن ما يرونه من ظلال على الحائط هو العالم الحقيقي. ثُمَّ حدث أن كسر أحدهم القيود والتفت نحو النار. كانت الرؤية ضبابية في البداية لكنه بعد ذلك بدأ يرى المكان الذي يوجدون فيه. خرج من الكهف واستطاع أخيرًا أن يرى الشمس. عندما عاد إلى الكهف، لا أحد صدق ما قاله عن العالم الخارجي. يُشبِه الرجل الذي كسر القيود الفيلسوف. إنه يرى ما وراء المظاهر. لا يفهم الناس العاديون إلّا القليل عن الواقع لأنهم يكتفون برؤية ما يوجد أمامهم عوض التفكير بعمق فيه. غير أن المظاهر خداعة. ما يرونه هي المظاهر وليس الواقع.

ترتبط قصة الكهف بما أصبح يعرف بنظرية الأشكال لأَفلَاطوْن. أحسن طريقة لفهم هذه النظرية هي عبر إعطاء مثال. فكر في كل الدوائر التي رأيتها في حياتك. هل كانت أي من هذه الدوائر دائرة بالغة حد الكمال؟ لا لم تكن ولا واحدة بهذا الكمال التام. في الدائرة المثالية يجب أن تكون كل نقطة في محيط الدائرة على نفس مسافة النقط الأخرى من المركز. لا تدرك الدوائر الحقيقية هذا الأمر. هل فهمتم ما كنت أعنيه بالدائرة المثالية. ما هي الدائرة المثالية؟ سيقول أَفلَاطوْن أن الدائرة المثالية هي شكل الدائرة. إذا أردتم أن تفهموا ما هي الدائرة يجب أن تركزوا على شكل الدائرة وليس على الدوائر الحقيقية التي يمكن أن ترسموها أو تعاينوها بالحس البصري، والتي تبقى كلها غير كاملة من وجهة ما. وعلى هذه الشاكلة، كان أَفلَاطوْن يعتقد أنه إذا أردت أن تفهم الخير، يجب عليك إذن أن تركز على شكل الخير، وليس على أمثلة معينة من الخير التي تشاهدونها. الفلاسفة هم الناس المؤهلون للتفكير حول الأشكال بطريقة مجردة، أما الناس العاديون فهم يُضلَّلون من طرف العالم حين يفهمونه من خلال الحواس.

لأن الفلاسفة يتقنون التفكير حول الواقع، يعتقد أَفلَاطوْن بأنه يجب عليهم أن يتحملوا المسؤولية وتكون لهم السلطة السياسية. في مؤلف الجمهورية، الذي يعتبر أشهر أعماله، يصف أَفلَاطوْن مجتمعًا مثاليًّا خياليًّا. يكون فيه الفلاسفة في أعلى سلطة في المجتمع ويكون لهم تعليم خاص؛ غير أنه يجب

عليهم أن يتخلوا عن لذاتهم الخاصة مِنْ أَجْلِ المواطنين الذين يحكمونهم. يوجد تحتهم الجنود الذين يُدَربون للدفاع عن البلد، وتحتهم يوجد العمال. ستكون هذه المجموعات من الناس في توازن مثالي، توازن يشبه حسب أَفلَاطوْن العقل المتزن الذي يتحكم جانبه العقلاني في المشاعر والرغبات. لسوء الحظ كان نموج المجتمع هذا مضاد للديمقراطية، لأنه يخضع الناس ويبقيهم تحت السيطرة بالأكاذيب والقوة. كان سيمنع أغلب الفنون لأنها تقدم تمثلات كاذبة عن الواقع. الرسامون يرسمون المظاهر والمظاهر تعطي صورًا خادعة عن الأشكال. في جمهورية أَفلَاطوْن المثالية، سيكون كل مظهر من مظاهر الحياة متحكم فيه من أعلى. إنه ما يمكن تسميته اليوم بالدولة الشمولية. يعتقد أَفلَاطوْن بأن السماح للمواطنين بالتصويت يشبه السماح للركاب بقيادة الباخرة، سيكون الوضع أحسن بكثير إذا تكلف الناس الذين يعرفون ما يفعلون.

كانت أثينا القرن الخامس قبل الميلاد مختلفة جدًا عن المجتمع الذي تخيله أَفلَاطوْن في الجمهورية. كانت ديمقراطية في حدود معينة، على الرغم من أنه كان بإمكان 10 بالمائة فقط من السكان التصويت. كان النساء والعبيد مقصيين بطريقة تلقائية. غير أن المواطنين كانوا متساوين أمام القانون، وكان هناك نظام متطور لإعطاء فرصة بطريقة متساوية لكل مواطن للمشاركة في التأثير على القرارات السياسية.

لم تكن أثينا ككل تقدر سُقرَاط بنفس القدر كان يقدره به أَفلَاطوْن. بل الأمر كان بعيدًا عن كل تقدير، كان العديد من الأثينيين يحسون بأن سُقرَاط كان خطرًا وكان يقوض عن قصد نظام حكمهم، في سنة 399 قبل الميلاد، عندما بلغ سُقرَاط 70 سنة من العمر، قام أحدهم، مليتوس، بمقاضاته أمام المحكمة. ادعى بأن سُقرَاط كان يهمل آلهة أثينا، وأدخل آلهة جديدة خاصة به. كما ادعى كذلك بأن سُقرَاط كان يُعلّم الشباب أن يتصرفوا بطريقة سيئة بتشجيعهم على معارضة السلطات. كانت هذان التهمتان ثقيلتين جدًا. يصعب الآن معرفة درجة صحتهما. ربما قام سُقرَاط بتنفير الشباب من آلهة أثينا، وهناك أدلة على أنه كان يسخر من ديمقراطية أثينا. سيكون هذا متطابقًا مع شخصيته. ما هو أكيد هو أن العديد من الأثينيين صدقوا هذه التهم.

صوتوا على إقرار حكم بالإدانة أو البراءة. صوت أكثر من النصف بقليل من مجموع 501 مواطن في اللجنة وقرروا بأنه مذنب، وقاموا بتنفيذ الحكم بإعدامه. لو كان يرغب في تبرئة نفسه، لكان قد دافع عن نفسه وربما أنقذ نفسه من الإعدام. لكنه عوضًا عن ذلك بقي وفيًّا لسمعته كنعرة وقام بإزعاج الأثينيين أكثر وذلك بدفاعه عن نفسه كونه لم يفعل شيئًا خاطئًا وأنه يجب عليهم في الواقع مكافأته بتقديم وجبات يومية له مدى الحياة عوض عقابه. لم تتم الاستجابة لطلبه.

تم إعدامه بإرغامه على تجرع السم تم صنعه من نبات الشوكران، وهو نبات يقوم بشلٍّ كل الجسد. ودع سُقرَاط

زوجته وأبناءه الثلاثة، وجمع بعد ذلك تلامذته حوله. لو كان له الاختيار في الاستمرار في الحياة بدون إزعاج الآخرين بأسئلته الصعبة، لما كان له أن يختار ذلك. إنه يفضل الموت على ذلك. كان بداخله صوت يطلب منه الاستمرار في وضع كل شيء موضع تساؤل، ولم يكن بإمكانه خيانة هذا الصوت. بعد ذلك شرب كأس السم ومات.

ما زال يعيش سُقرَاط على الرغم من ذلك في حوارات أَفلَاطوْن. هذا الرجل الصعب الذي استمر في طرح الأسئلة وفضل أن يموت على أن يتوقف عن التفكير في ماهية الأشياء، أصبح مصدر إلهام للفلاسفة منذ ذلك الوقت.

كان تأثير سُقرَاط المباشر على من كانوا حوله. استمر أَفلَاطوْن في التدريس بروح سُقرَاط بعد موت معلمه. كان أَرِسْطو تلميذه الأكثر تأثيرًا، وكان مفكرًا مختلفًا عنهما تمامًا.

تخيل وردة. إذا سقيتها، ووضعتها في نور الشمس، وربما غذيتها شيئًا ما، فإنها ستنمو وتُزهر. إذا أهملتها، ووضعتها في مكان مظلم، وتركت الحشرات تقضم أوراقها، وتركتها تجف، فإنها ستذبل وتموت، أو في أحسن الأحوال ستكون نباتًا غير جذاب. يمكن للمخلوقات البشرية أن يزهروا أيضًا مثل النبات، لكننا بخلاف النبات نختار لأنفسنا، نقرر ما نفعل وما نريد أن نكون.

كان أَرِسْطو مقتنعًا بأن هناك شيئًا كالطبيعة الإنسانية، بأن للمخلوقات البشرية وظيفة ما حسب تعبيره. هناك طريقة

للحياة تناسبنا جميعًا. ما يميزنا عن الحيوانات وكل شيء آخر هو أنه بإمكاننا أن نفكر في ما يجب علينا فعله. خلص أَرِسْطو إلى أن أحسن نوع للحياة بالنسبة للمخلوقات البشرية هي الحياة حيث نستعمل قدراتنا العقلية.

يعتقد أَرِسْطو أن الأشياء التي لا نعرف عنها أي شيء – وحتى الأحداث بعد الموت – يمكن أن تساهم في اليودايمونيا. يبدو هذا غريبًا. لنفترض أنه لا توجد حياة أخرى بعد الموت، كيف يمكن لشيء يحدث بعد مماتك أن يؤثر في سعادتك؟ تخيل بأنك أب وبأن سعادتك ترتكز جزئيًّا على متمنياتك لابنك بمستقبل زاهر. ماذا لو أن ابنك، للأسف، مرض مرضًا شديدًا بعد وفاتك، إذن فسعادتك ستكون قد تأثرت بذلك. من وجهة نظر أَرِسْطو، ستكون حياتك قد ساءت على الرغم من أنك لن تعرف فعلاً عن مرض ابنك وعلى الرغم من أنك لن تكون على قيد الحياة. يقودنا هذا إلى فكرة أن السعادة ليست مسألة تتعلق بكيف نحس. السعادة بهذا المعنى هي مجموع إنجازاتك في الحياة، شيء يتأثر بما يحدث للآخرين الذين يهمك أمرهم. الأحداث التي لا تسيطر عليها ولا علم لك بها تؤثر في ذلك. أن تكون سعيدًا أو غير سعيد هي مسألة يقررها جزئيًّا حظك في هذه الحياة.

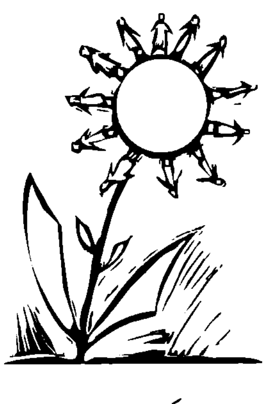
السؤال الأساسي هو: « كيف يمكننا أن نزيد من حظوظ سعادتنا؟ ». كان جواب أَرِسْطو كالتالي: « طور النوع المناسب من الشخصية ». يجب أن تحس الإحساس المناسب في الوقت

المناسب وهذا سيقودك إلى السلوك الحسن. يرتبط هذا جزئيًّا بتنشئتك لأن أحسن طريقة لكسب عادات جيدة هي ممارستها منذ الصغر. إذن فالحظ يتدخل هنا أيضًا. السلوكيات الجيدة هي فضائل، والسلوكيات السيئة هي رذائل.

فكر في فضيلة الشجاعة خلال الحرب. ربما يحتاج الجندي أن يضع حياته في خطر لإنقاذ بعض المدنيين من هجوم جيش عدو.



الفصل الثاني



أَرِسْطو

السعادة الحقيقية

« سنونو واحد لا يدل على بداية الصيف ». يمكن أن تظن بأن هذه العبارة هي مأخوذة من أعمال وِليَام شكسبير أو شاعر آخر. يبدو وكأنها كذلك. في الحقيقة فهذه العبارة مأخوذة من كتاب أَرِسْطو علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، هكذا سماه لأنه أهداه لأبنه نيقوماخوس. الفكرة التي كان يرمي إليها هي أنه ما دام سنونو واحد لا يدل على بداية الصيف وما دام نهار مشمس ودافئ لا يعني ذلك أيضًا، فإن بعض لحظات المتعة لا تصنع السعادة الحقيقية. لم تكن السعادة بالنسبة لأَرِسْطو مسألة فرح قصير المدى. يؤكد بشكل مفاجئ أن الأطفال لا يمكن أن يكونوا

سعداء. يبدو هذا غير ذا معنى. إذا لم يكن بإمكان الأطفال أن يكونوا سعداء فمن يا ترى يمكنه أن يكون كذلك؟ غير أن هذا الأمر يكشف عن الاختلاف بين نظرته للسعادة ونظرتنا نحن لها. يكون الأطفال قد بدئوا حياتهم للتو، ولم يعيشوا حياة كاملة بأي معنى من المعاني. تتطلب السعادة الحقيقية، حسب أَرِسْطو، حياة أطول.

كان أَرِسْطو تلميذًا لأَفلَاطوْن وكان أَفلَاطوْن تلميذًا لسُقرَاط. يُكوّن هؤلاء المفكرون الثلاثة سلسلة: سُقرَاط - أَفلَاطوْن - أَرِسْطو. عادة ما تكون هذه هي الطريقة لظهور المفكرين، فالعباقرة لا يولدون من لاشيء. كان لمعظمهم معلمون ملهمون. غير أن أفكارهم كانت مختلفة عن بعضها البعض. لم يكونوا يرددون ما يُدَرّس لهم. كان لكل واحد منهم مقاربته الخاصة. بتعبير أبسط، كان سُقرَاط متكلمًا عظيمًا، وكان أَفلَاطوْن كاتبًا ممتازًا وكان أَرِسْطو مهتمًا بكل شيء. كان سُقرَاط وأَفلَاطوْن يرون العالم كانعكاس باهت للواقع الحقيقي الذي لا يمكن إدراكه إلّا بالتفكير الفلسفي المجرد. وكان أَرِسْطو، خلافًا لذلك، مهتم بكل شيء حوله.

لسوء الحظ، كل ما وصلنا من كتابات أَرِسْطو هي في الواقع تدوين لمحاضراته. غير أنه ما زال لهذا التدوين لتفكيره الأثر الكبير على الفلسفة الغربية، على الرغم من جفاف أسلوب الكتابة. لم يكن أَرِسْطو فقط فيلسوفًا بل اهتم كذلك بدراسة عالم الحيوان، وعلم الفلك والتاريخ والسياسة والمسرح.

ولد في مقدونيا سنة 384 قبل الميلاد، بعد أن تتلمذ على أَفلَاطوْن وسافر واشتغل كمعلم للإسكندر العظيم، أسس أَرِسْطو مدرسته في أثينا والتي سماها ليسيوم. كان هذا أقدم مركز للتعلم في العالم القديم، يشبه إلى حد ما الجامعة اليوم. كان يرسل من هناك باحثين ليعودوا إليه بمعلومات جديدة حول كل شيء، من المجتمع السياسي إلى علم الأحياء. كما أسس مكتبة مهمة. في لوحة من عصر النهضة لرفائيل، يظهر أَفلَاطوْن مشيرًا إلى أعلى، إلى عالم الأشكال، وأَرِسْطو ينظر إلى العالم الذي يوجد أمامه.

كان أَفلَاطوْن سيكون راضيا لو أنه تفلسف انطلاقًا من الأريكة التي يجلس عليها، غير أن أَرِسْطو أراد استكشاف الواقع الذي يعيشه من خلال الحواس. رفض نظرية معلمه للأشكال، معتقدًا عوض ذلك أن الطريقة لفهم أي مقولة عامة هي فحص أمثلة معينة لها. إذا أردت أن تفهم ما تعنيه قطة، فيجب أن ترى قططًا حقيقية، وليس التفكير بطريقة مجردة في شكل القطة.

من بين الأسئلة التي فكر فيها أَرِسْطو مليًّا هي: (كيف يجب أن نعيش؟). طرح سُقرَاط وأَفلَاطوْن هذا السؤال من قبله. إن الحاجة للإجابة عن هذا السؤال هي جزء مما يدفع الناس إلى الفلسفة بالدرجة الأولى. كان لأَرِسْطو جوابه الخاص. الترجمة البسيطة لهذا الجواب: ابحث عن السعادة.

ماذا تعني عبارة (ابحث عن السعادة)؟ سيفكر الناس الذين يطلب منهم البحث عن السعادة في الطرق التي تجعلهم يشعرون بالاستمتاع. ربما تعني السعادة بالنسبة لك قضاء

عطلة في دول أخرى، أو الذهاب إلى مهرجانات أو حفلات الموسيقى، أو قضاء بعض الوقت مع الأصدقاء. أو ربما قد تعني قراءة كتاب مفضل، أو الذهاب إلى معرض للفن. لكن على الرغم من أن هذه الأشياء قد تكوّن عناصر حياة جيدة بالنسبة لأَرِسْطو، لم يكن يعتقد أن أفضل طريقة للحياة هي الذهاب خارجًا والبحث عن المتعة بهذه الطرق. لا يشكل هذا لوحده حياة جيدة. الكلمة الإغريقية التي استعملها أَرِسْطو هي (eudaimonia)، تنطق (يودايمونيا) والتي تعني (العكس). تترجم أحيانًا بـ (الازدهار) أو (النجاح) عوض (السعادة). إنها تشبه تلك الإحساسات الجميلة التي تشعر بها عندما تتناول مثلجات المانغو المفضلة، أو تشاهد فريقك المفضل وهو يتفوق في مقابلة ما. ليست يودايمونيا تلك اللحظات العابرة للهناء أو الطريقة التي تشعر بها. إنها أكثر موضوعية من ذلك. يصعب استيعاب هذا المعنى لأننا ألفنا التفكير على أن السعادة هي الطريقة التي نحس بها وليس شيئًا آخر. ليس لدى الإنسان المتهور أي اهتمام كان بسلامته. يمكن أن يتسرع ويتورط أيضًا في وضع خطير، وربما قد لا يكون في حاجة إلى ذلك، لكن هذا ليس شجاعة حقيقية، بل ركوب متهور للمخاطر. في الطرف الآخر، لا يستطيع الجندي الجبان تجاوز خوفه بالقدر الكافي ليتصرف بطريقة مناسبة، وسيصاب بالشلل التام بسبب الخوف في الوقت الذي يكون يُحتاج إليه كثيرًا. يحس الإنسان الشجاع والمقدام نفس الإحساس بالخوف لكنه يستطيع التغلب عليه

والتصرف. يعتقد أَرِسْطو أن كل فضيلة توجد في الوسط بين طرفي نقيض كما ذُكر في المثال السابق. توجد الشجاعة هنا في الوسط بين الجبن والتهور. يُعرف هذا أحيانًا بمذهب أَرِسْطو للمتوسط الذهبي.

ليست مقاربة أَرِسْطو للأخلاق مقاربة ذات قيمة تاريخية فقط. يعتقد الكثير من فلاسفة العصر الحديث بأن أَرِسْطو كان محقًا في ما يتعلق بأهمية تطوير الفضائل كما أن رؤيته لما تعنيه السعادة كانت دقيقة وملهمة. يعتقدون بأنه عوض السعي إلى رفع نسبة المتعة في الحياة، يجب أن نحاول أن نكون أحسن وأن نفعل الشيء الصحيح. هذا ما يجعل الحياة تسير على ما يرام.

كل هذا يجعل الأمر يبدو وكأن أَرِسْطو كان مهتمًا فقط بالتطوير الذاتي للأفراد. لم يكن كذلك. يبين أَرِسْطو بأن المخلوقات البشرية هي مخلوقات سياسية. نحتاج أن نكون قادرين على العيش مع الآخرين، ونحتاج إلى نظام للعدالة حتى نتعامل مع الجانب الأسود من الطبيعة البشرية. لا يمكن أن تدرك السعادة إلّا في علاقة مع الحياة في المجتمع. نعيش معًا، ونحتاج أن نجد السعادة بالتفاعل جيدًا مع الناس الذين يحيطون بنا في دولة سياسية منظمة.

يوجد تأثير جانبي واحد غير ملائم في ذكاء أَرِسْطو. كان ذكيًا جدًا وكانت أبحاثه شاملة وجامعة لدرجة أن من قرأ أعماله يعتقد أن أَرِسْطو كان محقًا في كل شيء. لم يكن هذا مناسبًا للتطور وسيئًا للفلسفة في التقليد الذي بدأه سُقرَاط. بعد مئات السنين

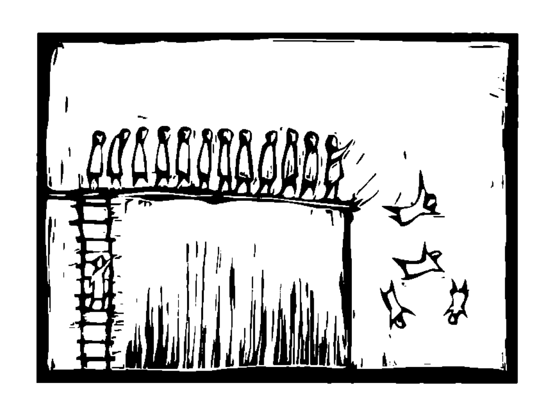
على وفاة أَرِسْطو، كان العلماء الذين عاشوا بعده يقبلون أفكاره حول العالم على أساس أنها صحيحة بلا جدال. إذا استطاعوا أن يثبتوا أن أَرِسْطو قال شيئًا، كان ذلك كافيا بالنسبة إليهم. هذا هو ما يسمى أحيانًا (الحقيقة بالسلطة) – الاعتقاد بأنه يجب أن يكون شيئًا ما صحيحًا لمجرد أن عالمًا ذا سلطة علمية قال بأنه كذلك.

ماذا تعتقدون أن يحدث إذا أسقطنا قطعة من الخشب وقطعة من الحديد بحجم متساو من مكان عال؟ اعتقد أَرِسْطو بأن القطعة الثقيلة، أي قطعة الحديد، ستسقط أسرع. في الواقع، ليس هذا ما يحدث فعلاً. إنهم يسقطون معًا بنفس السرعة. لكن لأن أَرِسْطو قال ذلك فقد اعتقد تقريبًا كل الناس خلال القرون الوسطى بأن ذلك صحيح بالتأكيد. لم تكن هناك حاجة لمزيد من الأدلة. في القرن السادس عشر أسقط جاليليو كرة خشبية وكرة حديدية من برج بيزا ليقوم بتجربة هذه المقولة. سقطوا على الأرض في نفس الوقت. إذن فأَرِسْطو كان مخطئًا. غير أنه كان سهلاً إثبات ذلك من قبل.

كان الاعتماد على سلطة شخص آخر معارضًا تمامًا لروح البحث لدى أَرِسْطو. إنه أيضًا ضد روح الفلسفة نفسها. لا تثبت السلطة أي شيء في حد ذاتها. كانت طرق أَرِسْطو الخاصة هي التحقيق والبحث والتفكير الواضح. تزدهر الفلسفة بفعل النقاش، ومن إمكانية الخطأ وعلى منازعة الآراء واستكشاف البدائل. لحسن الحظ كان هناك فلاسفة في أغلب العصور مستعدين

للتفكير بطريقة نقدية حول ما يقول لهم الناس الآخرون بأنه يجب أن يكون صحيحًا. هناك فيلسوف حاول أن يفكر بطريقة نقدية حول كل شيء وهو فيلسوف الشك بِيْرو.

الفصل الثالث



بِيْرو

لا نعرف شيئاً

لا أحد يعرف أي شيء – وحتى ذلك ليس بأكيد. لا يجب أن تعتمد على ما تعتقد أنه صحيح. يمكن أن تكون مخطئًا. يمكن أن يوضع كل شيء موضع تساؤل وشك. الاختيار الأحسن هو أن تُبقِي عقلك منفتحًا. لا تجزم وسوف لن يخيب ظنك. كانت هذه أهم تعاليم مذهب الشك المطلق (الارتيابية)، فلسفة كانت واسعة الانتشار لمئات السنين في اليونان القديمة وبعد ذلك في روما. بخلاف أَفلَاطوْن وأَرِسْطو، كان فلاسفة الشك الأكثر جذرية يتجنبون التصريح بآراء أكيدة حول أي موضوع كان. كان الفيلسوف الإغريقي بِيْرو (365 – 270ق.م) أشهر

فلاسفة الشك وربما أكثرهم جذرية في كل الأزمان. كانت حياته غريبة بكل تأكيد.

يمكن أن تعتقد بأنك تعرف كل أنواع الأشياء. تعرف أنك تقرأ هذا الكتاب الآن مثلاً. لكن فلاسفة الشك قد ينازعون في ذلك. فكر في السبب الذي يجعلك تعتقد بأنك فعلاً تقرأ هذا الكتاب وليس فقط أنك تتخيل فعل ذلك. هل يمكنك أن تكون متأكدًا بأنك على حق؟ يبدو أنك تقرأ. هكذا يبدو لك. لكن ربما أنك تتخيل أو تُهلوس (سيطور رِينَيْ دَيْكارْت هذه الفكرة 1800 سنة بعد ذلك، أنظر الفصل 11). إن تأكيد أَرِسْطو على أن كل ما يعرف هو أنه يعرف القليل هو في الأصل موقف شكي أيضًا. لكن بِيْرو ذهب بعيدًا في شكه وربما ذهب بعيدًا جدًا.

إذا صدقنا ما حكي عن حياته (وربما يجب أن نشكك في ذلك أيضًا)، فقد كان بِيْرو يميل إلى عدم أخذ أي شيء على أنه بديهي. كان مثل سُقرَاط لا يكتب أي شيء. إذن فكل ما نعرف عنه هو مستمد ممّا سجله الناس عن حياته، ربما عدة قرون بعد وفاته. يقول أحدهم، ديوجين لايرتيوس، بأن بِيْرو أصبح إنسانًا مشهورًا وأنه أصبح كاهنًا مهما في إيليس حيث كان يعيش ولم يكن الفلاسفة يُجْبرون على أداء الضرائب تكريمًا له. لا يمكننا التأكد من هذه المعلومات لكن يبدو أن الفكرة جيدة.

ما يمكننا قوله على الرغم من ذلك هو أن بِيْرو عاش مذهبه الشكي بطرق غير عادية. كانت حياته ستكون قصيرة على هذه الأرض لَوْلَا حماية بعض أصدقائه. يحتاج كل فيلسوف

شك راديكالي إلى دعم ناس أقل شكًا، أو حظًا جيدًا، ليعيش عمرًا أطول.

هذه هي الطريقة التي قارب بها الحياة. لا يمكن إطلاقًا الاعتماد على الحواس. إنها تضللنا أحيانًا. من السهل أن تخطئ حول ما يمكنك أن تراه في الظلام، مثلاً. يمكن أن يكون ما يظهر لك كثعلب هو مجرد قط. أو يمكن أن تظن أن شخصًا يناديك في حين أنه فقط صوت الريح وهي تحرك الأشجار. لأن حواسنا تضللنا في أغلب الأحيان فقد قرر بِيْرو أن لا يثق بها أبدًا. لن يلغي إمكانية أنها يمكن أن تعطينا معلومات دقيقة، لكنه أبقى عقله منفتحًا حول الموضوع.

في الوقت الذي يعتبر فيه معظم الناس عند رؤيتهم لحاشية مرتفع بمنحدر خطير أنه من الغباء الاستمرار في المشي في اتجاه المنحدر، فإن بِيْرو لا يفعل دلك. يمكن أن تكون حواسه تخدعه، لذلك لم يكن يثق بها. حتى إحساسه بأن أصابع رجليه تتحسس الحاشية، أو إحساسه بأنه سيسقط لم يكن ليقنعاه بأنه سيسقط على الصخور في الأسفل. لم يكن واضحًا بالنسبة إليه إذا ما كان السقوط على الصخور سيؤذي صحته. كيف سيكون متأكدًا تمامًا من ذلك؟ منعه أصدقاؤه الذين لم يكونوا يؤمنون بمذهب الشك المطلق من الوقوع في حوادث. لو لم يفعلوا ذلك، لكان سقط في مشاكل كل بضع دقائق.

لماذا تخاف من كلاب متوحشة إذا لم تكن متأكدًا من أنها ستؤذيك؟ لا يعني نباحها وجريها نحوك أنها ستعضك حتمًا.

وحتى أن فعلوا، قد لا يعني دلك بالضرورة أنهم سيصيبونك بجروح. لماذا تبالي وأنت تقطع الطريق والعربات قادمة نحوك؟ ربما لن تصدمك هذه العربات. لا يمكن أن نعرف بالتحديد. وأي فرق يوجد بين كونك حيًّا أو ميتًا على أي حال؟ بطريقة ما، تمكن بِيْرو من عيش فلسفة اللا مبالاة هذه وتجاوز كل المشاعر وطرق السلوك الطبيعية والعادية.

هذه هي الحكاية على أي حال. كانت بعض القصص ربما مُختلَقة للاستهزاء من فلسفته. غير أنه ليس محتملاً أنها كانت كلها متخيلة. مثلاً حافظ بِيْرو على كامل هدوئه خلال إبحاره وسط عاصفة من أقوى العواصف. كانت الرياح تمزق الأشرعة إربًا وكانت الأمواج الكبيرة تتكسر على الباخرة. أصيب كل الناس حوله بالذعر، لكن بِيْرو لم يبال بها إطلاقًا. ما دامت المظاهر خدّاعة بالنسبة إليه فلم يكن متأكدًا تمامًا بأنها ستسبب له أي أذى. تمكن من الحفاظ على هدوءه في الوقت الذي أصاب الذعر البحارة المحنكين. بين بِيْرو بأنه يمكن أن يبقى الإنسان غير مبال حتى في مثل هذه الظروف. يبدو أن لهذه الحكاية نصيب من الحقيقة.

زار بِيْرو الهند كشاب. ربما كان هذا ما ألهمه أن يختار هذا الأسلوب في الحياة. يوجد في الهند معلمون روحانيون يختارون وضع أنفسهم في وضعية قصوى وغير معقولة للحرمان جسدي: دفنهم أحياء، وحمل أثقال بأعضاء حساسة من جسدهم، أو العيش بدون أكل لأسابيع، أو إدراك السكون الداخلي. كانت مقاربة بِيْرو للفلسفة بالتأكيد قريبة من مقاربة المتصوف. كيفما كانت

الآليات التي يصل بها إلى هذا الأمر، فقد كان بالتأكيد يمارس ما يعظ به. كان لهدوئه الداخلي أثرًا عميقًا على من كانوا حوله. السبب وراء هذا الهدوء، في رأيه، هو أن كل شيء على الإطلاق هو مسألة رأي. إذا لم تكن هناك إمكانية لاكتشاف الحقيقة، فلا داعي للتشنج. يمكن أن نبعد أنفسنا إذن عن كل المعتقدات الأكيدة لأن المعتقدات الأكيدة قد تكون خادعة.

إذا كنت قد قابلت بِيْرو، فسوف تعتقد احتمالاً أنه كان أحمقًا. وربما كان كذلك بشكل من الأشكال. غير أنه كان متناسقًا في أفكاره وسلوكه. سيعتقد أن يقينياتك هي بكل بساطة غير معقولة وسيحرمك من راحة البال. لأنك تعتبر كل شيء بديهي، وكأنك بنيت بيتًا فوق الرمال. فأُسُس تفكيرك ليست بتلك الصلابة التي تتخيل وسوف لن تكون ربما سبب في سعادتك.

لخص بِيْرو فلسفته في ثلاثة مبادئ. إذا كنت ترغب في أن تكون سعيدًا، يجب أن تسأل:



كيف هي الأشياء حقًا؟

ما هو الموقف الذي يجب أن أتبناه تجاههم؟

ماذا سيحدث لإنسان تبنى هذا الموقف؟

كانت أجوبته بسيطة وفي صلب الموضوع. أولاً، لا يمكننا حقًا معرفه ما هو العالم - فهو فوق طاقة استيعابنا. لا أحد يمكنه معرفة الطبيعة المطلقة للواقع. ليست مثل هذه المعرفة ممكنة للمخلوقات البشرية. لننسى هذا الأمر. تتعارض هذه الرؤية تمامًا مع نظرية أَفلَاطوْن للأشكال ومع إمكانية كون للفلاسفة

يعرفونها من خلال التفكير المجرد (أنظر الفصل الأول). ثانيًا، ونتيجة لذلك، لا يجب أن تلتزم بأي رأي. لأننا لا نستطيع معرفة أي شيء يقينا، يجب أن نعلق كل الأحكام ونعيش بدون أي التزام. توحي لك رغباتك بأنك تعتقد بأن شيئًا ما هو أحسن من شيء آخر. التعاسة هي أن لا تحصل على ما تريد. لكن لا يمكنك أن تعرف بأن شيئًا ما هو أحسن من شيء آخر. تبعًا لذلك يعتقد بِيْرو أنه لتكون سعيدًا يجب أن تتحرر من الرغبات ولا تهتم بما سينتج عن ذلك. هذه هي أحسن طريقة للعيش. أن تدرك أن لا شيء له قيمة. بهده الطريقة لا شيء سيؤثر على حالتك الذهنية، والتي ستكون حالة من الراحة الداخلية. ثالثًا، إذا اتبعت هذه التعاليم، هذا ما سيقع لك. ستبدأ بتبني الصمت التام لأنه احتمالاً لن تعرف أي شيء لتقوله عن أي شيء. وأخيرًا ستتخلص من كل القلق. هذا هو أحسن ما يمكن أن تطمح إليه أنت وغيرك في هذه الحياة. إنها تشبه تقريبًا تجربة دينية.

هذه هي النظرية. يبدو أنها كانت فاعلة بالنسبة لبِيْرو، لكن من الصعب أن نراها تعطي نفس النتائج بالنسبة لأغلب الناس. لن يستطيع إلّا القليل منا الوصول إلى حالة اللا مبالاة التي كان ينصح بها. ولن يكون للجميع الحظ الكافي للحصول على مجموعة أصدقاء ينقذونك من الأخطاء الأكثر سوءًا. في الواقع لو اتبع الكل نصائحه، لن يوجد من ينقذ فلاسفة الشك البيرِينَيْين من أنفسهم وسيموت كل أعضاء مدرسة الفلسفة

إما بالسقوط من المرتفعات أو الموت تحت عجلات العربات أو العض من طرف كلاب شرسة.

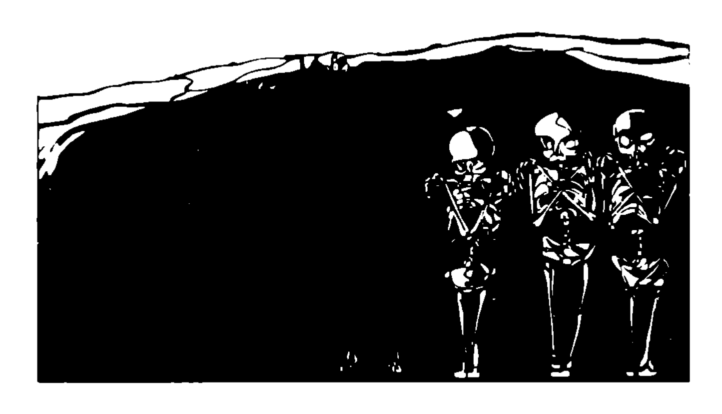
الضعف الأساسي في مقاربة بِيْرو هو أنه انتقل من: «لا يمكنك معرفة أي شيء» إلى الخلاصة: «إذن يجب عليك أن تتجاهل غرائزك ومشاعرك تجاه الخطر». لكن غرائزنا تنقذنا فعلاً من العديد من الأخطار. يمكن أن لا يكونوا جديرين بالثقة كل الوقت لكن هذا لا يعني أنه يجب تجاهلهم. حتى بِيْرو يفترض أنه ابتعد عندما عضه كلب: لم يكن بإمكانه تجاوز ردود فعله التلقائية ولو أراد ذلك. تبعًا لذلك تصبح محاولة العيش وفق مذهب الشك المطلق لبِيْرو أمرًا منحرفًا. وليس واضحًا إذا ما كان العيش بهذه الطريقة سيجلب راحة البال التي فكر فيها بِيْرو. يمكن أن نشك أيضًا في شك بِيْرو ويمكننا أن نسأل إذا ما كانت الراحة ستأتي من ركوب الأخطار التي ركبها بِيْرو. ربما كان ذلك ملائمًا لبِيْرو، لكن ما هو الدليل على أن ذلك سيكون عمليًا بالنسبة لنا؟ يمكن أن لا تكون متأكدًا مائة بالمائة بأن كلبًا شرسًا سيعضك، لكن يكفي أن تكون متأكدًا 99 بالمائة لتحاول تجنب هذا الكلب.

لم يكن كل فلاسفة الشك في تاريخ الفلسفة متطرفون كبِيْرو. هناك تقليد عظيم لفلسفة الشك المعتدل التي تطرح الافتراضات موضع تساؤل وتفحص بدقة الأدلة التي تدفعنا إلى الاعتقاد في فكرة ما، دون محاولة العيش وكأن كل شيء هو موضع شك كل الوقت. التساؤل الشكي من هذا النوع هو في

صميم التفكير الفلسفي. كان كل الفلاسفة الكبار متشككون بهذا المعنى. إن هذا التفكير هو نقيض الدوغمائية. الشخص الدوغمائي هو شخص واثق بأنه يعرف الحقيقة. ينازع الفلاسفة هذا الفكر الوثوقي. إنهم يسألون عن السبب الذي يدفع الناس إلى الاعتقاد في ما يفعلون وعن الأدلة التي تدعم خلاصاتهم. هذا ما كان يفعله سُقرَاط وأَرِسْطو وهذا ما يفعله فلاسفة العصر الحاضر كذلك. غير أنهم لا يفعلون ذلك مِنْ أَجْلِ إبراز صعوبة معينة. إن هدف فلاسفة الشك المعتدل هو الاقتراب من الحقيقة، أو على الأقل الكشف عن القليل الذي نعرفه أو بإمكاننا معرفته. لا تحتاج إلى السقوط من أعلى الجرف لتكون فيلسوف شك من هذا النوع. لكنك تحتاج أن تسأل أسئلة غير مألوفة وأن تفكر بطريقة نقدية في الأجوبة التي يقدمها لك الناس.

على الرغم من أن بِيْرو دعا إلى التحرر من كل التزام، لا يمكن لمعظمنا إدراك ذلك. هناك قلق نشترك فيه جميعًا وهو حقيقة أننا سنموت يومًا ما. هناك فيلسوف إغريقي آخر، أَبِيقوْر، يقدم اقتراحات عن الطريقة التي يمكن أن نتعامل بها مع هذا الوضع.

الفصل الرابع



أَبِيقوْر

ممر الحديقة

فكر في مراسيم دفنك. كيف ستكون؟ من سيكون هناك؟ ماذا سيقولون؟ ما تفكر به هو طبعًا من وجهة نظرك. وكأنك مازلت حيًّا تراقب المراسيم عن بعد، ربما من أعلى، أو من كرسي مع المعزين. يعتقد بعض الناس الآن بأن هذه إمكانية حقيقية، أنه يمكن أن نعيش بعد الموت خارج الجسد كنوع من الروح قادرة على مشاهدة ما يجري في هذا العالم. لكن بالنسبة لمن يعتقد بأن الموت هي النهاية، هناك مشكل حقيقي. كلما حاولنا وتخيلنا أننا لسنا هناك، يجب أن نتخيل بأننا هناك نشاهد ما يجري عندما لا نكون هناك.

سواء كنت قادرًا على تخيل موتك أو لا، يبدو طبيعيًا أن نخاف شيئًا ما من هذه النهاية. من هذا الذي لا يخاف الموت؟ إذا كان شيء ما يقلقنا كثيرًا فهو هذا الأمر. يبدو معقولاً جدًا أن نقلق من إمكانية موتنا يومًا ما ولو أن ذلك سيحدث بعد عدد من السنين من الآن. القليل من الناس هم من لم يفكروا أبدًا بعمق حول هذا الموضوع.

بين الفيلسوف الإغريقي القديم أَبِيقوْر (341 – 270ق.م) بأن الخوف من الموت هو مضيعة للوقت ويرتكز على منطق غير سليم. إنها حالة ذهنية يجب تجاوزها. إذا فكرت بكل وضوح حول الموضوع، لن يكون الموت مرعبًا على الإطلاق. عندما تفكر بطريقة صحيحة، سوف تستمتع بوقتك هنا أكثر – الأمر الذي كان ذا أهمية قصوى بالنسبة لأَبِيقوْر. يعتقد بأن هدف الفلسفة هو أن تجعلك تعيش حياتك أحسن وأن تكون سعيدًا. يعتقد بعض الناس أن التفكير باستمرار في الموت هو مرضي، لكنه بالنسبة لأَبِيقوْر هو طريقة لجعل حياتك أكثر قوة.

ولد أَبِيقوْر في جزيرة ساموس وهي إحدى جزر بحر إيجة. عاش معظم حياته في أثينا وأصبح هناك شخصًا مشهورًا انجذب إليه مجموعة من التلاميذ الذين عاشوا معه في جماعة. ضمت المجموعة النساء والعبيد وهو أمر نادر في أثينا. لم يجعله هذا الأمر مشهورًا، سوى بين أتباعه الذين عبدوه. كان يُسيّر هذه المدرسة الفلسفية في بيت بحديقة، وأصبحت تعرف هذه المدرسة بالحديقة.

مثل كل الفلاسفة القدماء (والحديثين بِيتَر سِنْغَر، أنظر الفصل 40)، اعتقد أَبِيقوْر أنه يجب أن تكون الفلسفة عملية. يجب أن تغير الطريقة التي نعيش بها. وتبعًا لذلك، كان مهما أن يمارس من التحقوا به الفلسفة عوض تعلمها فقط.

بالنسبة لأَبِيقوْر، كان مفتاح الحياة هو إدراك أن ما نسعى إليه هو المتعة. والأهم من ذلك هو تجنب الألم كلما استطعنا ذلك. يوجهنا هذا في هذه الحياة: إلغاء المعاناة من حياتك والزيادة في سعادتك سيجعلان حياتك أحسن. كانت أحسن طريقة للحياة كالتالي: عش حياة بسيطة، كن طيبًا مع من حولك، وحِط نفسك بالأصدقاء. بهذه الطريقة تتحقق كل رغباتك. لن تكون في حاجة إلى شيء لا تستطيع الحصول عليه. ليس جيدًا أن تكون مستعجلاً في الحصول على منزل إذا لم يكن لك المال لشرائه. لا تقضي حياتك في الشغل مِنْ أَجْلِ شراء شيء لا تستطيع شراءه على أي حال. من الأحسن أن تعيش حياة بسيطة. إذا كانت رغباتك بسيطة فمن السهل تلبيتها وسيبقى لك الوقت والطاقة للاستمتاع بالأمور المهمة في حياتك. كانت هذه وصفته للسعادة وهي معقولة جدًا.

كان هذا التعليم نوعًا من العلاج. كان هدف أَبِيقوْر هو أن يعالج تلامذته من الألم الذهني وأن يقترح عليهم تجاوز الألم الجسدي بتذكر لحظات المتعة الماضية. أشار إلى أنه يمكن الاستفادة من المتع في وقتها كما أنه يمكن الاستمتاع بها بتذكرها بعد ذلك، وبهذا تكون لها فوائد طويلة الأمد. عندما كان يحتضر

وكان يشعر بالألم كتب إلى صديق له عن الطريقة التي تمكن بها من نسيان مرضه وذلك بتذكر لحظات المتعة التي كان يحصل عليها من المحادثات السابقة.

يختلف هذا عن ما نعنيه اليوم بكلمة (أَبِيقوْري). إنه العكس تمامًا. الأَبِيقوْري هو شخص يحب الأكل الجيد، شخص ينغمس في الملذات والمتعة الحسية. كان لأَبِيقوْر ذوقًا أبسط من هذا بكثير. كان يُعلّم الناس بأن يكونوا معتدلين – سيخلق الاستسلام للرغبات الجشعة رغبات أكثر وبالتالي سينتج عن ذلك معاناة نفسية ورغبة غير محققة. يجب تجنب هذا النوع من الحياة الذي يعتمد على الرغبة في المزيد. كان أَبِيقوْر وأتباعه يأكلون الخبز والماء عوض الأكل الآخر. إذا بدأت بشرب نبيذ غال الثمن، فسوف تنتهي بالسعي للحصول على نبيذ أغلى من الأول وستقع في شرك رغبة الأشياء التي لا تستطيع الحصول عليها. على الرغم من ذلك، فقد كان أعداؤه يدّعون أنه في جماعة الحديقة كان الأَبِيقوْريون يقضون وقتهم في الأكل والشرب وممارسة الجنس مع بعضهم البعض في طقوس عربدة لا نهائية. هذا هو المعنى الحديث لكلمة (أَبِيقوْري). إذا كان أتباع أَبِيقوْر فعلوا ذلك فهذا يعارض تمامًا تعاليم أَبِيقوْر. من المحتمل جدًا أن هذا هو مجرد إشاعة.

الأمر الأكيد هو أن أَبِيقوْر قضى كثيرًا من الوقت في الكتابة. كان كثير الإنتاج. تشير كتب التاريخ بأن أَبِيقوْر كتب حوالي 300 كتاب على ورق البردي، على الرغم من أنه لم يصلنا منها أي كتاب.

ما نعرف عنه اليوم هو مستمد في أغلبه من كتابات أتباعه عنه. كانوا يحفظون كتاباته عن ظهر قلب ونقلوا تعاليمه عبر الكتابة. وُجد بعض ما كتبوه في شظايا متفرقة في الرماد البركاني الذي سقط على هيركولانيوم قرب بومباي عندما ثار بركان في جبل فيسوفيوس. مصدر آخر مهم للمعلومات حول فلسفة أَبِيقوْر هو القصيدة الشعرية الطويلة: حول طبيعة الأشياء للشاعر والفيلسوف الروماني لوكرتيوس والتي نظمها 200 سنة بعد وفاة أَبِيقوْر. يلخص هذا الشعر التعاليم الأساسية لهذه المدرسة.

لنعد إلى السؤال الذي طرحه أَبِيقوْر. لماذا لا يجب أن نخاف الموت؟ أحد هذه الأسباب هو أنك لن تحس به. ليس الموت شيئًا يحدث لك. عندما يحدث، لن تكون هناك. ردد فيلسوف القرن العشرين لُودْفِيغ فِتْغِنشتَاين في كتابه مصنف منطقي فلسفي هذه الرؤية: «الموت ليست حدثًا في الحياة». الفكرة هي أن الأحداث هي أشياء نعيشها، لكن الموت هو إزالة لإمكانية تجربتها، وليست شيئًا إضافيًّا نكون واعين به ونجربه.

يبين أَبِيقوْر بأنه عندما نتخيل موتنا، يرتكب معظمنا خطأ التفكير بأن هناك شيء ما سيبقى منا تشعر به بما سيحدث لجثتنا. لكن هذا سوء فهم لطبيعتنا. نحن مرتبطون بأجسادنا الخاصة، بلحمها وعظامها. كان أَبِيقوْر يعتقد بان أجسادنا مكونة من ذرّات (على الرغم من أن معنى الذرة اليوم يختلف تمامًا عن ما عناه أَبِيقوْر). حالما تتفتت هذه الذرّات عند الموت، فإننا لن نوجد كأفراد قادرين على الوعي. حتى لو أن أحد جمع الذرّات بكل

عناية ونفخ فيها الروح من جديد، فسيكون هذا الجسد غريبًا عني. لن يكون الجسد الجديد أنا، على الرغم من أنه يشبهني. لن أحس بآلامه لأنه عندما يتوقف الجسد عن الاشتغال، لا شيء يمكن أن يرجعه إلى الحياة. ستتكسر سلسلة الهوية.

طريقة أخرى اعتقد أَبِيقوْر أنها تعالج أتباعه من خوفهم من الموت هي المقارنة بين ما نحس به تجاه الماضي وما نحس به تجاه الحاضر. نهتم بواحد ولا نهتم بالآخر. فكر في الوقت السابق على ولادتك. يوجد كل الزمن الذي لم تكن فيه موجودًا. ليس فقط الأسابيع التي كنت فيها في رحم أمك حين كان يمكن أن تكون ولادتك مبكرة، أو حتى قبل أن تحمل بك أمك، حين كنت مجرد إمكانية بالنسبة لأبويك، ولكن بالأحرى في تريليونات السنين قبل وجودك. لا نقلق أبدًا لعدم وجودنا خلال كل تلك الألفيات من السنين قبل ميلادنا. ولم يهتم أي أحد بذلك الوقت الذي لم نكن فيه موجودين؟ إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا نهتم إذن بكل الزمن اللا نهائي لعدم الوجود بعد الموت؟ تفكيرنا غير متوازي لأننا نتبنى موقفين مختلفين، نفكر كثيرًا في الزمن الذي يأتي بعد الموت ولا نفكر في الزمن قبل الولادة. لكن أَبِيقوْر كان يعتقد بأن هذا خطأ. ما أن تدرك هذا حتى تبدأ في التفكير في زمن ما بعد الموت بنفس الطريقة التي تفكر بها في زمن ما قبل الولادة. إذن لن يكون زمن ما بعد الموت ذا أهمية كبيرة بالنسبة لك.

يشعر بعض الناس بالقلق من إمكانية أن يتعرضوا للعقاب في حياة ما بعد الموت. رفض أَبِيقوْر هذا الخوف أيضًا. كان يقول لأتباعه وبكل ثقة بأن الآلهة لا تهتم حقًا بمخلوقاتها. إنهم يوجدون بعيدًا عنا ولا يهتمون بشؤون هذا العالم. إذن يجب أن نكون مرتاحين. هذا هو العلاج – الجمع بين كل هذه الأفكار. إذا كانت فعلاً مؤثرة، ستشعر حتمًا بالراحة تجاه مستقبل اللا وجود الآن. لخص أَبِيقوْر كل فلسفته في الشاهد الذي وضع على قبره: «لم أكن موجودًا، وجدت، لم أعد موجودًا، لا أهتم».

إذا كنت تعتقد أننا فقط أجسادًا مكونة من مادة، وليس هناك خطر جدي للعقاب بعد الموت، إذن فمنطق أَبِيقوْر يمكن أن يقنعك بأنه لا خوف من الموت. غير أنه يمكن أن تقلق على الرغم من ذلك من عملية الاحتضار ما دامت مؤلمة ومن الأكيد أننا سنعيشها. هذا صحيح ولو انه من غير المعقول أن تقلق من الموت نفسها. تذكر على الرغم من ذلك بأن أَبِيقوْر كان يعتقد بأنه يمكن للذكريات الجميلة أن تخفف من الألم، فقد وجد حلاً لذلك أيضًا. لكن إذا كنت تعتقد بأنك جسد وروح وانه يمكن للروح أن تبقى بعد موت الجسد، إذن فعلاج أَبِيقوْر لن ينفعك: يمكنك أن تتخيل بأنك ستستمر في الحياة حتى بعد أن يتوقف قلبك عن الخفقان.

لم يكن الأَبِيقوْريون وحدهم يعتقدون بأن الفلسفة هي نوع من العلاج: اعتقد ذلك أغلب الفلاسفة الإغريق والرومان. اشتهر الرواقيون بالخصوص بدروسهم عن الكيفية التي يمكن أن نكون بها أقوياء نفسيًا في مواجهة الأحداث التعيسة.

الفصل الخامس



أَبْكِتيتوْس، شِيْشِرون، سِينيكَا

تعلم اللا مبالاة

إذا بدأ المطر بالهطول في الوقت الذي يجب عليك أن تغادر المنزل، فهذا أمر مؤسف. لكن إذا كان يجب عليك أن تخرج، دون ارتداء معطف أو استعمال مظلة أو تأجيل الموعد، فليس هناك الكثير لتفعله في هذه الظروف. لن تستطيع إيقاف المطر مهما كانت شدة رغبتك في ذلك. هل يجب أن تنزعج لذلك؟ أو تتفلسف فقط حول الموضوع؟ يعني التفلسف بكل بساطة قبولك لما لم تستطع تغييره. ماذا عن العملية الحتمية للشيخوخة وعن قِصر الحياة؟ كيف يجب أن تشعر حول هذه الخاصيات للوضعية البشرية؟ نفس الشيء مرة ثانية.

عندما يقول الناس بأنهم يتفلسفون حول ما يحدث لهم، فإنهم يستعملون الكلمة بنفس المعنى الذي قد يكون استعمله الرواقيون. تستمد كلمة الرواقي من الـرواق، والذي كان رواقًا مصبوغا في أثينا حيث كان الفلاسفة يعتادون على اللقاء ببعضهم البعض. كان زينون السيشومي أول الفلاسفة الرواقيين (334 - 262ق.م). كان للرواقيين الإغريقيين الأوائل آراء حول مجموعة من الإشكاليات الفلسفية تتعلق بالواقع والمنطق والأخلاق. لكنهم كانوا مشهورين جدًا بآرائهم حول التحكم الذهني. كانت فكرتهم الأساسية هي أنه يجب أن تهتم فقط بالأشياء التي يمكنك تغييرها. يجب أن لا نزعج أنفسنا بأي شيء آخر. كانوا مثل فلاسفة الشك يسعون إلى تحقيق حالة ذهنية هادئة. حتى في حالة أحداث مأساوية كموت أحد الأشخاص الأعزاء يجب أن تبقى هادئًا. إن موقفنا مما يحدث يدخل في نطاق تحكمنا على الرغم من أن ما يحدث ليس كذلك.

كانت فكرة أننا مسئولون عن ما نحس به ونفكر به فكرة أساسية في الفلسفة الرواقية. يمكن أن نختار ردة فعلنا تجاه الحظ الجيد والسيئ. بعض الناس يفكرون في المشاعر كما يفكرون في الأحوال الجوية. اعتقد الرواقيون خلافًا لذلك بأن الإحساس تجاه وضعية أو حدث هو مسألة اختيار. المشاعر لا تحدث لنا تمامًا. لا نحتاج أن نحس بالحزن عندما نفشل في الحصول على ما نريد؛ لا داعي للغضب عندما يخدعنا أحد الأشخاص. كانوا

يعتقدون بأن المشاعر تعطل المنطق وتهدم القدرة على الحكم. يجب أن لا نتحكم فيهم فقط بل يجب إزالتهم تمامًا.

كان إبكتيتوس (55 – 135 ب.م) من بين أشهر الرواقيين المتأخرين، بدأ حياته كعبد. تحمل الكثير من المعاناة وعرف ما هو الألم والجوع، وأصبح أعرجًا نتيجة للضرب المبرح الذي كان يتلقاه. عندما صرح بأن العقل يمكن أن يبقى حرًا حتى عندما يكون الجسد مستعبدًا، فقد كان يحيل على تجربته الخاصة. لم تكن هذه الرؤية فقط نظرية مجردة. ضمت تعاليمه نصائح عملية عن كيفية التعامل مع الألم والمعاناة. خلص إلى ما يلي: «إن أفكارنا هي من اختيارنا». ألهمت هذه الفلسفة طيارًا أمريكيًّا جِيْمس سطوكديل والذي أسقطت طائرته شمال فييتنام خلال حرب فييتنام. عُذب سطوكديل عدة مرات واحتُفظ به في زنزانة في حبس انفرادي لمدة أربع سنوات. تمكن من البقاء على قيد الحياة بفضل تطبيقه لما تذكره من فلسفة إبكتيتوس كان قد تعلمها في الكلية. عندما كان ينزل بمظلته نحو أراضي العدو قرر أن يبقى هادئًا تجاه ما يفعلون به مهما كانت قسوة المعاملة. إذا لم يكن قادرًا على تغيير الوضع، فلن يدع الوضع يؤثر فيه. أعطته الفلسفة الرواقية القوة لتحمّل الألم والوحدة وتجاوزهما، وهذا وضع كان سيحطم معظم الناس.

بدأت هذه الفلسفة الصارمة في اليونان لكنها ازدهرت في ظل الإمبراطورية الرومانية. ساعد كاتبان هذه الفلسفة على الانتشار وهما ماركوس تيليوس شِيْشِرون (106 – 43ق.م) ولوسيوس

أنييوس سِينيكَا (1ق.م – 65 ب.م). كان قِصر الحياة وحتمية الشيخوخة موضوعان استأثرا باهتمامهما بالخصوص. اعترفا بأن الشيخوخة هي عملية طبيعية ولم يحاولوا تغيير ما لا يمكنهم تغييره. لكن في نفس الوقت، كانوا يعتقدون أنه يمكنهم الاستفادة بأحسن الطرق من هذا الوقت القصير في هذا العالم.

يبدو أن شِيشِرون كان يعمل الكثير خلال يوم واحد، حيث كان محاميًّا وسياسيًّا وفيلسوفًا. في كتابه حول الشيخوخة، حدد أربع مشاكل أساسية لها علاقة بالشيخوخة: يصبح العمل صعبًا، يصبح الجسد ضعيفًا، يزول الاستمتاع باللذات الجسدية، وتكون الموت قريبة. الشيخوخة أمر حتمي كما بين ذلك شِيشِرون لكنه يمكننا أن نختار كيف نتفاعل مع هذه العملية. يجب أن ندرك بأن لا يجعل الضعف في الشيخوخة حياتنا غير محتملة. أولاً، يستطيع الناس كبار السن أن يبدلوا جهدًا أقل للحصول على ما يريدون بفضل تجربتهم، وسيكون أي عمل يقومون به أكثر فعالية. لن تضعُف أجسادهم ولا عقولهم بشكل كبير إذا مرنوها بالممارسة. وحتى أن ضَعُف استمتاعهم باللذات الجسدية، يمكنهم قضاء وقت أكثر في الحفاظ على الصداقات والمحادثات التي هي في حد ذاتها مصدرًا للمتعة. وأخير اعتقد بأن الروح ستعيش للأبد ولذلك لا يجب أن يَقلق الناس كبار السن من الموت. كان موقف شِيشِرون هو أنه يجب أن نقبل العملية الطبيعية للشيخوخة وأن ندرك أنه لا يجب أن يكون الموقف الذي نتبناه تُجاه هذه العملية متشائمًا.

سار سِينيكَا، فيلسوف آخر قام بالترويج للآراء الرواقية، على نفس الخط عندما كتب عن قِصر الحياة. لا تسمع غالبًا الناس يشتكون من طول الحياة. يقول أغلب الناس بأن الحياة قصيرة. هناك الكثير من الأعمال ويوجد وقت قصير فقط لتنفيذها. حسب تعبير الفيلسوف اليوناني القديم أبقراط، «الحياة قصيرة والفن طويل». غالبًا ما يتمنى الناس الكبار في السن الذين يرون أجل الموت يقترب العيش لبعض السنين لتحقيق الأشياء التي كانوا يرغبون في فعلها في الحياة. غالبًا ما يكون هذا التمني متأخرًا ويشعرون بالحزن تجاه الأشياء التي كان يمكن أن تتحقق. تكون الطبيعة قاسية بهذا الصدد. في الوقت الذي نصل فيه إلى أعلى مستوى في تجربتنا في الحياة، يكون الموت بالمرصاد.

لم يكن سِينيكَا متفقًا مع هذا الرأي. كان سِينيكَا متعدد المهارات. كان له الوقت لأن يكون كاتبًا مسرحيًّا وسياسيًّا ورجل أعمال ناجح وأيضًا فيلسوفًا. لا يكمن المشكل، كما يراه، في قصر الحياة بل في الاستعمال السيئ للوقت الذي نتوفر عليه. مرة أخرى، ما كان يهمه أكثر هو موقفنا من مظاهر الوضعية الإنسانية التي لا يمكننا تجنبها. يجب أن لا نغضب لأن الحياة قصيرة ولكن يجب عوضًا عن ذلك أن نستفيد من كل الوقت المتوفر. أشار إلى انه يمكن لبعض الناس هدر آلاف السنين بنفس السهولة التي يضيعون بها سنوات حياتهم. وحتى لحظتها سيشتكون بأن الحياة هي قصيرة جدًا. في الواقع الحياة طويلة بالقدر الكافي لنحقق الكثير من الأعمال إذا قمنا بالاختيارات

المناسبة: إذا لم نضيعها في الأمور التافهة. يسعى البعض لكسب المال بطاقة كبيرة لا تترك لهم وقتًا لفعل أي شيء آخر. يقع آخرون في شرك الشرب والجنس ويكرسون كل وقتهم لذلك.

إذا انتظرت أن تكبر في السن لاكتشاف ذلك، فسيكون الوقت متأخرًا حسب سِينيكَا. أن يصبح الشعر أبيضًا والوجه مليئًا بالتجاعيد لا يعني بالتأكيد أن شخصًا كبيرًا في السن قد قام بأعمال ذات قيمة، على الرغم من أن بعض الناس يتصرفون وكأن ذلك صحيحًا. عندما يبحر شخص ما وينجرف مع التيار بهذه الطريقة مدفوعًا بالرياح العاصفة، فهو لم يكن في سفر. كان يُقذف من مكان لآخر لكثير من الوقت. هكذا هو الشأن بالنسبة للحياة. أن تكون فاقدًا للسيطرة ومنجرفًا مع الأحداث دون أن يكون لك الوقت لتعيش تجارب ذات قيمة ودلالة هو مختلف تمامًا عن العيش الحقيقي.

من فوائد هذا العيش الحقيقي هو أنك لن تشعر بالخوف من ذكرياتك عندما تكبر في السن. عندما تهدر وقتك، سوف لن ترغب في تذكر الحياة التي ضيعتها لأن الأمر سيكون مؤلمًا حين تتأمل في الفرص التي لم تستغلها. هذا يفسر، حسب سِينيكَا، انشغال بعض الناس بتوافه الأمور، لأنها طريقة لتجنب حقيقة ما فشلوا في تحقيقه. كان يدعو قراءه إلى الابتعاد عن عامة الناس وتجنب الاختباء وراء الانشغال بأعمال تافهة.

إذن كيف يجب أن نقضي وقتنا حسب سِينيكَا؟ كان الهدف الأسمى للرواقي هو العيش منعزلاً بعيدًا عن الناس الآخرين.

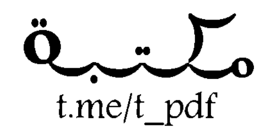
صرح بأن أحسن طريقة للوجود من الناحية الإدراكية هي دراسة الفلسفة. كانت هذه طريقة للعيش الحقيقي.

أعطت الحياة لسِينيكَا الكثير من الفرص لممارسة ما يعظ به الآخرين. في سنة 41 ب.م، اتهم بإقامة علاقة بأخت الإمبراطور غايوس. ليس أكيدًا أنه كان على علاقة بها، لكن النتيجة كانت إرساله إلى المنفى في كورسيكا لثماني سنوات. لكن حظه ضرب مرة أخرى، وتم استدعاؤه لروما كمعلم لابن الإمبراطور نيرو الذي كان عمره أنداك 12 سنة. بعد ذلك أصبح سِينيكَا كاتب خطب الإمبراطور ومستشاره السياسي. غير أن هذه العلاقة انتهت بطريقة سيئة: حظ سيئ هذه المرة. اتَّهم نيرو سِينيكَا بالتآمر مع آخرين لقتله. لم يكن بإمكان سِينيكَا الإفلات من العقاب هذه المرة. أمره نيرو بقتل نفسه. كان الرفض غير مقبولاً وكان سيؤدي إلى قتله على أي حال. لم تكن هناك فائدة من المقاومة. قتل نفسه وإخلاصًا لمذهبه الرواقي بقي مطمئنا وهادئًا إلى النهاية.

هناك طريقة لرؤية التعاليم الأساسية للرواقيين وهي التفكير فيها كنوع من العلاج النفسي، مجموعة من آليات النفسية التي تجعل حياتنا أكثر هدوءًا. تَخلّص من تلك المشاعر التي تحجب تفكيرك وسيكون كل شيء أكثر وضوحًا. غير أنه لسوء الحظ حتى لو استطاعت أن تهدئ من مشاعرك فستكون قد فقدت شيئًا مهما. يمكن أن تنقص حالة اللا مبالاة الذي دعا إليها الرواقيون من الإحساس بالتعاسة في مواجهة الأحداث التي لا نستطيع التحكم فيها، غير أن ثمن ذلك ربما هو أن نصبح

باردي الإحساس وعديمي الشفقة، وحتى أقل إنسانية. إذا كان هذا هو ثمن الحصول على الهدوء، فهو ربما ثمن باهظ.

على الرغم من أنه تأثر بالفلسفة الإغريقية القديمة، فإن أوْغَسْطِين - أحد المفكرين المسيحيين الذين سنتناول فلسفتهم في الفصل التالي - كان بعيدًا في تفكيره عن المدرسة الرواقية. كان رجل المشاعر القوية وكان له اهتمام عميق بالشر الذي كان يراه في العالم، وكانت له رغبة قوية في فهم الإله وخططه لهذا العالم.



الفصل السادس



أوْغَسْطِين

من يتحكم فينا؟

كان أوْغَسْطِين (354 – 430) يريد معرفة الحقيقة بكل جدية. كان كمسيحي يؤمن بالإله. لكن إيمانه لم يجب عن جميع الأسئلة التي كانت لديه. ماذا يريده الإله أن يفعل؟ كيف يجب أن يعيش؟ قضى أغلب حياته في التفكير والكتابة عن هذه الأسئلة. كانت المخاطر كبيرة جدًا. كان يبدو ارتكاب خطأ فلسفي بالنسبة للناس الذين يعتقدون في إمكانية البقاء في النار للأبد أن له نتائج وخيمة. كان أوْغَسْطِين يرى انه يمكن أن ينتهي به المآل في نار جهنم ويحرق بالكبريت إذا كان على خطأ. كان المشكل الذي أرّقه كثيرًا هو لماذا سمح الإله للشر بالوجود

في هذا العالم. ما زال الجواب الذي قدمه مشهورًا لدى العديد من المؤمنين.

في مرحلة القرون الوسطى، من القرن الخامس حتى الخامس عشر، كانت الفلسفة والدين مرتبطين جدًا. تأثر فلاسفة القرون الوسطى بالفلاسفة الإغريق كأَرِسْطو وأَفلَاطوْن. غير أنهم عدلوا من أفكارهم وطبقوها على أديانهم الخاصة. كان الكثير من هؤلاء الفلاسفة مسيحيين، كما كان آخرون يهود ومسلمين كابن ميمون وابن سينا. كان أوْغَسْطِين، الذي أصبح قديسًا في ما بعد، أحد أشهر هؤلاء الفلاسفة.

ولد أوْغَسْطِين في طاغاست (سوق أهراس حاليًّا) في الجزائر بشمال إفريقيا والتي كانت آنذاك جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. كان اسمه الحقيقي هو أورليوس أوْغَسْطِينوس، غير أنه يعرف الآن كالقديس أوْغَسْطِين أو أوْغَسْطِين هيبو (نسبة إلى المدينة حيث كان يسكن).

كانت أم أوْغَسْطِين مسيحية، غير أن أباه اعتنق دينا محليًّا. بعد شباب جامح وحياة بلوغ مبكرة حيث كان له ابن من علاقة غير شرعية، اعتنق المسيحية في الثلاثينيات من عمره وأصبح في النهاية أسقفًا لمدينة هيبو. يعرف الناس أنه طلب من الإله أن يجعله يكبح رغباته الجنسية، لكن الوقت لم يكن قد حان لأنه كان يستمتع بالمتع الدنيوية كثيرًا. في حياته اللاحقة كتب عدة كتب من بينها الاعترافات، مدينة الرب وتقريبًا مائة كتاب آخر، حيث كان يستمد أفكاره من أَفلَاطوْن لكنه كان يمنحها معاني مسيحية.

كان أغلب المسيحيين يعتقدون أن للإله قدرات خاصة: كلي الخيرية، كلي المعرفة وكلي القدرة. كانت هذه الصفات جزء من تعريف الإله. لن يكون الإله إلها إلّا إذا كان يتميز بتلك الخصال. في ديانات أخرى، يوصف الإله بنفس الطريقة، غير أن أوْغَسْطِين كان مهتمًا فقط بالمنظور المسيحي.

يجب على كل من اعتقد في هذا الإله أن يقرر بوجود الكثير من المعاناة في هذا العالم. سيكون صعبًا إنكار ذلك. الكثير من هذه المعاناة هو ناتج عن كوارث طبيعية كالزلزال والأمراض. بعضها الآخر هو ناتج عن الشر الأخلاقي: أي الشر الذي يرتكبه البشر. القتل والتعذيب هما مثلان واضحان عن هذا الشر الأخلاقي. قبل كتابات أوْغَسْطِين بكثير، كان أَبِيقوْر، الفيلسوف الإغريقي (انظر الفصل 4) قد أدرك أن هذا يمثل مشكلاً. كيف يمكن لإله خير وقوي أن يقبل بوجود الشر؟ إذا لم يكن الإله قادرًا على منعه من الحدوث، فهو ليس قويًا حقيقة. هناك حدود لما يمكن أن يفعله. لكن إذا كان الإله هو الأقوى، ولا يبدو أن له رغبة في إيقاف الشر، فكيف يكون كلي الخيرية؟ لم يكن للأمر معنى واضح. ما زال هذا الأمر يحير الناس حتى يومنا هذا. ركز أوْغَسْطِين تفكيره على الشر الأخلاقي. أدرك أن فكرة إله خيّر يعرف أن الشر يحدث ولا يفعل شيئًا لمنعه هي صعبة على الفهم. لم يكن مقتنعًا بفكرة أن الإله كان يتحرك بطرق غامضة ليست في متناول إدراكنا كبشر. كان أوْغَسْطِين يريد أجوبة.

تخيل قاتلاً على وشك قتل ضحيته. يحمل سكينا حادًا ويستعد للقتل. فعل شر حقيقي على وشك الحدوث. غير أننا نعرف أن الإله له من القوة ما يكفي لمنع هذا الفعل من الحدوث. تكفي بعض التغييرات الصغيرة في الخلايا العصبية في مخ القاتل الافتراضي، أو أن يجعل الإله السكين رطبًا ومطاطيًّا كلما استُعمل في القتل. بهذه الطريقة لن تكون السكاكين مؤذية ولن يُجرح أي أحد. من الأكيد أن الإله يعرف ما يجري لأنه يعرف كل شيء بالتأكيد. لا شيء يغيب عنه ومن الأكيد أنه لا يريد للشر أن يحدث، لأن هذا جزء من معنى الخيرية الفائقة. غير أن القاتل يقتل ضحيته على الرغم من ذلك. لا تتحول سكاكين الصلب إلى مطاط. ليس هناك برق ولا رعد، ولا يسقط السلاح من اليد القاتل. وحتى القاتل لا يغير رأيه في آخر لحظة. إذن ماذا يحدث؟ هذا هو المشكل الكلاسيكي للشر، مشكل تفسير سبب سماح الإله بحدوث مثل هذه الأشياء. من المفترض أنه إذا كان مصدر كل شيء هو الإله، فمصدر الشر أيضًا هو الإله. بمعنى من المعاني فالإله يريد هذا الشر أن يحدث.

في سنوات الشباب كان لأوْغَسْطِين طريقة لتجنب الاعتقاد بأن الإله يريد الشر أن يحدث. كان يؤمن بالمانوية. كانت المانوية دينا ظهر في الأصل في بلاد الفرس (إيران حاليًّا). كان المانويون يعتقدون بأن الله ليست له قوة مطلقة. عوضًا عن ذلك هناك صراع دائم يحدث بين قوى متكافئة للشر والخير. تبعًا لهذه الرؤية فالإله والشيطان يتصارعون دومًا للسيطرة على العالم. كانا كلاهما

قويًّا جدًا لكن لا أحد كان قويًّا بالقدر الكافي للقضاء على الآخر. في بعض الأماكن وفي بعض الأوقات يتغلب الشر على الخير. لكن لا يبقى ذلك لوقت طويل. يعود الخير من جديد وينتصر على الشر. هذا يفسر لماذا تحدث مثل هذه الأشياء المرعبة. أصل الشر هي قوى الظلام ويستمد الخير وجوده من قوى النور.

يعتقد المانويون بأنه داخل الشخص يأتي الخير من الروح والشر من الجسد بكل نقط ضعفه ورغباته وميله إلى دفعنا إلى الضلال. يفسر هذا لماذا يُدفع الناس أحيانًا إلى ارتكاب الآثام. لم يكن مشكل الشر مشكلًا بالنسبة إليهم لأنهم يؤمنون بأن الله ليست له قدرة مطلقة تمكنه من السيطرة على كل مظاهر الواقع. إذا لم يكن للإله قدرة مطلقة، إذن فليس الإله مسئولًا عن وجود الشر، ولا يمكن لأحد أن يلومه على فشله في منع الشر من الحدوث. سيفسر المانويون أفعال القاتل الشريرة بوجود قوى الظلام بداخله والتي دفعته نحو ارتكاب الشر. كانت هذه القوى قوية في هذا الشخص لدرجة أن قوى النور لم تستطع الانتصار عليها.

في حياته اللاحقة رفض أوْغَسْطِين المانوية. لم يستطع أن يفهم لماذا يجب أن يبقى هذا الصراع بين الشر والخير أبديًّا. لماذا لا يحسِم الإله المعركة لصالحه؟ من الأكيد أن قوى الخير هي أقوى من قوى الشر. على الرغم من أن المسيحيين كانوا يقبلون بوجود قوى للشر، فإن قوى الشر لا يمكن أن تكون بنفس قوى الإله. غير أنه إذا كان للإله قدرة مطلقة، كما أصبح أوْغَسْطِين

يعتقد، فإن مشكل الشر ما زال قائمًا. لماذا يسمح الإله بوجود الشر؟ لماذا يوجد الكثير منه في هذا العالم؟ لم يكن هناك أي حل سهل. فكر أوْغَسْطِين كثيرًا واجتهد في حل هذه المشاكل. كان حله الأساسي يرتكز على وجود الإرادة الحرة: قدرة الإنسان على اختيار ما سيفعله في التالي. تُعرف غالبًا بالدفاع عبر الإرادة الحرة. هذه هي التيوديسيا – محاولة لفهم السبب الذي يجعل اله كلي الخيرية يسمح بوجود المعاناة والدفاع عن الفكرة.

أعطانا الإله إرادة حرة. يمكنك مثلاً أن تقرر إذا ما كنت ستقرأ الجملة التالية أو لا. هذا هو اختيارك. إذا لم يكن هناك أحد يرغمك على القراءة، إذن فلك كامل الحرية للتوقف عن القراءة. كان أوْغَسْطِين يعتقد أن امتلاك الإرادة الحرة هو أمر جيد. إنه يسمح لنا بالتصرف بطريقة أخلاقية. يمكننا أن نقرر أن نكون خيرين، وهذا كان يعني بالنسبة إليه إتباع أوامر الله والوصايا العشر، وكذلك وصية المسيح بحب الجار. من بين نتائج امتلاك الإرادة الحرة هو أن يختار الإنسان فعل الشر. يمكن أن نُضَلل ونفعل أشياء سيئة، كأن نكذب أو نسرق أو نؤذي وحتى أن نقتل الناس. يحدث هذا غالبًا عندما تتفوق العاطفة على العقل. نطور رغبات قوية في الحصول على أشياء أو المال، كما نستسلم لشهوتنا الجسدية ونبتعد عن الله وعن وصاياه. يعتقد أوْغَسْطِين بأنه يجب على الجانب العاقل فينا أن يتحكم في النزوات العاطفية، وهو رأي يشترك فيه مع أَفلَاطوْن. خلافًا للحيوان، تملك المخلوقات البشرية قدرة العقل ويجب عليهم

أن يستعملوها. لو كان الإله قد برمجنا أن نختار الخير دائمًا، فلن نقوم بأي عمل مؤذي، لكننا لن نكون أحرارًا في اختياراتنا، ولن نستعمل عقلنا لتقرير ما نفعل. كان بإمكان الإله أن يخلقنا كذلك. بين أوْغَسْطِين أنه كان أمرًا جيدًا أن الإله أعطانا حرية الإرادة، وإلّا فإننا كنا سنشبه الدمى التي تحركها خيوط خفية وسنكون آنذاك مؤدبين. لا داعي في هذه الحالة أن نفكر في السلوك لأننا سنختار الاختيار الصحيح بطريقة تلقائية.

تبعًا لذلك فالإله قوي بالقدر الكافي لمنع الشر. لكن حقيقة أن الشر ما زال متواجدًا ليست ناتجة بطريقة مباشرة عن الإله. الشر الأخلاقي هو نتيجة لاختياراتنا. يعتقد أوْغَسْطِين أن وجود الشر هو جزئيًّا نتيجة لاختيارات آدم وحواء. كما اعتقد ذلك كثير من المسيحيين في زمانه، كان مقتنعًا بأن الأمور سارت بطريقة خاطئة في جنة عدن كما تم وصفها في السفر الأول من الكتاب المقدس (سفر التكوين). عندما أكلت حواء ثُمَّ آدم من شجرة المعرفة، وبذلك خانوا عهد الله، فقد جلبوا الخطيئة إلى هذا العالم. لم تكن هذه الخطيئة، التي كانت تسمى الخطيئة الأصلية، شيئًا أثر فقط في حياتهم، فكل الناس قطعًا يؤدون الثمن. يعتقد أوْغَسْطِين أن الخطيئة الأصلية تُمرّر من جيل لآخر عبر التوالد. حتى الأطفال يحملون آثار هذه الخطيئة منذ نعومة أظافرهم. تجعلنا الخطيئة الأصلية أكثر استعدادًا لارتكاب الخطيئة.

بالنسبة للقراء المعاصرين، يكون صعبًا قبول فكرة أنه يجب أن نُلام وأن نُعاقب على أفعال ارتكبها شخص آخر. يبدو هذا

الأمر غير عادل. لكن فكرة أن الشر هو نتيجة لإرادتنا الحرة وليس بسبب الإله ما زالت تقنع عددًا من المؤمنين. إنها تسمح لهم بالاعتقاد في إله كلي المعرفة، كلي الإرادة وكلي الخيرية.

اعتقد بَويثِيوْس أحد أشهر الكتاب في القرون الوسطى في مثل هذا الإله، لكنه ناقش بإلحاح موضوعًا مختلفًا يتعلق بالإرادة الحرة: مسألة كيف يمكننا أن نختار فعل أي شيء إذا كان الإله يعرف مسبقًا ما سنختار.

الفصل السابع



بَويثِيوْس

عزاء الفلسفة

إذا كنت في سجن تنتظر تنفيذ حكم الإعدام، هل ستقضي آخر أيامك في كتابة كتاب فلسفي؟ هذا ما فعله بَويثِيوْس. أصبح هذا الكتاب أشهر كتبه.

كان اسمه الكامل هو أنسيوس مانليوس سيفرينوس بَويثِيوْس (475 – 525) وقد كان واحدًا من الفلاسفة الرومان المتأخرين. مات عشرون سنة فقط قبل سقوط روما في يد البرابرة. لكن حتى خلال حياته كانت الأمور قد تدهورت في روما. كان، مثل زملائه الرومان شِيْشِرون وسِينيكا، يرى الفلسفة كنوع من مساعدة الذات، طريقة عملية لتحسين شروط حياتنا بالإضافة

إلى كونها تخصصًا في الفكر التجريدي. كما أنه ارتبط بالفلاسفة الإغريق كأَفلَاطوْن وأَرِسْطو الذين ترجم أعمالهم إلى اللاتينية، وأبقى فكرهم حيًّا في وقت كان هناك خطر ضياعهم قائمًا. كانت كتاباته كمسيحي تعجب الفلاسفة المتدينين الذين قرؤوا كتبه في القرون الوسطى. ربطت فلسفته بين الفلسفة الإغريقية والرومانية والفلسفة المسيحية التي هيمنت على الغرب لقرون بعد مماته.

كانت حياة بَويثِيوْس خليطًا بين الحظ السيئ والجيد. عينه تيودوريك، ملك القوط الذي حكم روما في ذلك الوقت، قنصلًا. وقد أصبح أبناء بَويثِيوْس قناصلة تبعًا لذلك على الرغم من أنهم صغارًا جدًا في السن لبلوغ تلك المرتبة بعملهم الخاص. كان كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة له. كان غنيًّا من عائلة كريمة وكان مشكورًا كثيرًا. تمكن بطريقة ما من أن يجد الوقت لدراساته الفلسفية بجانب عمله الحكومي، وكان كاتبًا غزير الإنتاج ومترجم. كانت حياته سعيدة. غير أنه بعد ذلك تغير الحظ واتُّهم بالتآمر على تيودوريك. أُبعد من روما وأرسل إلى رفينا حيث وضع في السجن، وعذب وتم قتله بالخنق والضرب حتى الموت. كان دائمًا يتمسك ببراءته لكنه لم يُصدق من طرف متهميه.

عندما كان في السجن وكان يعرف انه سيموت قريبًا، ألف بَويثِيوْس كتابًا أصبح بعد موته الكتاب الأكثر رواجًا في القرون الوسطى، وكان عنوانه عزاء الفلسفة. يبدأ الكتاب ببَويثِيوْس وهو في زنزانة السجن وكله أسف على نفسه. فجأة أدرك أن هناك امرأة تنظر إليه. كان طولها يبدو من معتدل إلى سامق في

السماء. كانت تلبس فستانا ممزقًا مطروزًا عليه سلم يبدأ بحرف الباء في الأسفل إلى حرف التاء (تيتا). تحمل صولجانا في يد وكتبًا في اليد الأخرى. كانت هذه المرأة هي الفلسفة. عندما تتكلم، تقول لبَويثِيوْس ما يجب عليه أن يعتقد. كانت غاضبة منه لنسيانه لها، وقد جاءت لتذكره بالطريقة التي يجب عليه أن يتصرف في مواجهة ما وقع له. باقي الكتاب هو محادثاتهما التي تمحورت حول الحظ والإله. يتكون الكتاب من النثر والشعر. كانت المرأة، الفلسفة، تقدم له نصائح.

تقول لبَويثِيوْس بأن الحظ يتغير وانه لا يجب أن يتفاجأ بذلك. هذه هي طبيعة الحظ. إنه متقلب. إن عجلة الحظ تدور. مرة تكون في الأعلى ومرة تكون في الأسفل. يمكن أن يجد ملك غني نفسه فقيرًا في يوم واحد. كان على بَويثِيوْس أن يدرك بأنه هكذا تجري الأمور بكل بساطة. ليس هناك ضمان بأنه إذا كنت محظوظًا اليوم فإنك ستبقى كذلك في المستقبل.

تبين الفلسفة أن البشر هم أغبياء بالسماح لسعادتهم أن تعتمد على شيء متغير. السعادة الحقيقية تأتي من الداخل، من الأشياء التي يمكن للإنسان أن يتحكم فيها وليست من الأشياء التي يمكن للحظ أن يدمرها. هذا هو موقف الرواقيين الذين تحدثنا عنهم في الفصل الخامس. عندما يصف الناس أنفسهم بأنهم يتفلسفون حول الأشياء السيئة اليوم، فهذا هو مقصدهم. فهم يحاولون أن لا يتأثروا بالأشياء التي لا يتحكمون فيها، مثل الأحوال الجوية وهوية آبائهم. تقول الفلسفة لبَويثِيوْس بأن لا شيء

سيئ في حد ذاته، يتوقف كل شيء على الطريقة التي نفكر بها حول الموضوع. السعادة هي حالة ذهنية، وليست حالة العالم حولنا، فكرة سيعتبرها إبكتيتوس فكرته الخاصة.

تريد الفلسفة من بَويثِيوْس أن يلتفت إليها مرة أخرى. تقول له بأنه يمكنه أن يكون سعيدًا على الرغم من وجوده في السجن في انتظار الإعدام. ستقوم بمعالجته من حزنه. كانت الرسالة هي أن المال والسلطة والمقام الرفيع لا قيمة لهم لأنه يمكن أن نملكهم ثُمَّ نفقدهم. لا يجب أن يبني أي أحد سعادته على أسس هشة. يجب أن تُبنى السعادة على أسس أكثر صلابة، على شيء لا يمكن أن نفقده. لأن بَويثِيوْس كان يعتقد بأنه سيستمر في العيش بعد الموت، فإن البحث عن السعادة في أشياء تافهة هو خطأ. سيفقدهم جميعًا بعد الموت على أي حال.

لكن أين يستطيع بَويثِيوْس أن يجد سعادته؟ جواب الفلسفة هو أنه سيجدها في الإله والطيبة (اللذان هما في نهاية المطاف شيء واحد). كان بَويثِيوْس مسيحيًّا منذ طفولته، لكنه لم يذكر ذلك في عزاء الفلسفة. يمكن أن يكون الإله الذي تصفه الفلسفة هو إله أَفلَاطوْن، الشكل الخالص للطيبة. غير أن القراء اللاحقين سيتعرفون على التعاليم المسيحية حول تفاهة المال والمقام الرفيع وأهمية كسب رضًا الإله.

تُذكِّر الفلسفة بَويثِيوْس في كل الكتاب بما يعرفه مسبقًا. يبدو أن هذه الفكرة تحيل على فكر أَفلَاطوْن لأن أَفلَاطوْن اعتقد أن كل الأشياء التي نتعلمها هي في الحقيقة نوع من التذكر لأفكار

نعرفها مسبقًا. لا نتعلم أبدًا أشياء جديدة، كل ما علينا فعله هو استثارة الذاكرة. الحياة هي صراع لتذكر ما نعرفه مسبقًا. ما يعرفه بَويثِيوْس مسبقًا هو أنه كان مخطئًا في قلقه من زوال الحرية والتقدير العام. إنها أشياء توجد خارج مجال تحكمه. ما يهم هو موقفه من الوضع، وهذا أمر يمكنه اختياره.

غير أن بَويثِيوْس كان حائرًا أمام مشكلة حقيقية والتي أقلقت الكثير من الناس الذين يعتقدون في الإله. ما دام الإله كاملاً فهو يعلم كل شيء حدث وكل شيء سيحدث أيضًا. هذا ما نعنيه عندما نصف الإله بأنه كلي المعرفة. إذن إذا كان الإله موجودًا فمن الأكيد أنه يعلم من سيفوز بكأس العالم القادمة، وماذا سأكتب فيها بعد. يجب أن يكون على علم مسبق بكل شيء سيحدث مستقبلاً. يجب أن يحدث كل شيء تنبأ به. إذن في هذه اللحظة يعرف الله كيف ستصير كل الأشياء.

تبعًا لذلك يجب أن يعرف الإله ما سأفعل لاحقًا، حتى ولو لم أكن أعرف ما سأفعل الآن. عندما آخذ قرارًا حول ما سأفعل، تتعدد أمامي الإمكانيات المستقبلية. عندما أصل إلى مفترق طرق، يمكنني أن أسير يمينا أو يسارًا، أو ربما أتوقف. يمكنني الآن أن أتوقف عن الكتابة وأذهب إلى المطبخ لأعد بعض القهوة. أو يمكنني أن أواصل الكتابة على الحاسوب. يبدو أن ذلك قراري، شيء يمكنني أن أختار فعله أو عدم فعله. لا أحد يجبرني على ذلك بطريقة أو أخرى. وبالمثل بإمكانه أن

تغلق عينيك إذا أردت ذلك. كيف يمكن أن يحدث هذا والإله يعرف ما سننتهي بفعله؟

إذا كان الله يعرف ما سنفعله نحن الاثنين، كيف يمكن أن يكون لنا اختيار حقيقي حول ما سنفعل؟ هل الاختيار مجرد وهم؟ يبدو أنه لا يمكن أن يكون لنا إرادة حرة إذا كان الإله يعرف كل شيء. قبل عشر دقائق كان بإمكان الإله أن يكتب على ورقة (نيجل سيستمر في الكتابة). كان ذلك صحيحًا آنذاك وبالتالي سأستمر حتمًا في الكتابة، سواء أدركت ذلك في ذلك الوقت أم لم أدركه. إذا كان بإمكانه فعل ذلك فبالتأكيد لم يكن لذي اختيار في ما فعلت، على الرغم من أنني أحسست بأنني اخترت ما فعلت. حياتي مقررة مسبقًا في أدق تفاصيلها. إذا لم نكن نختار أفعالنا، هل من العدل أن نُعاقب أو نُجازى على ما فعلنا؟ إذا لم نكن نختار ما نفعل، كيف يقرر الإله إذا ما كنا سنذهب إلى الجنة أو جهنم؟

هذا أمر محير. هذا ما يسميه الفلاسفة مفارقة. لا يبدو ممكنا أن أحدًا ما يعرف ما سأفعل وأنني على الرغم من ذلك أملك اختيارًا حرًا في ما أفعل. تُعارض الفكرتان بعضهما البعض. لكنهما سيكونان مقبولان إذا آمنت بأن الله كلي المعرفة.

لكن المعرفة، المرأة في زنزانة بَويثِيوْس، لديها أجوبة. تقول له إننا نملك إرادة حرة. هذا ليس وهمًا. على الرغم من أن الإله يعلم ما سنفعل، فحياتنا ليست مقدرة من قبل. أو بتعبير آخر، علم الإله بما سنفعل هو مختلف عن القدر (فكرة أن ما نفعل هو

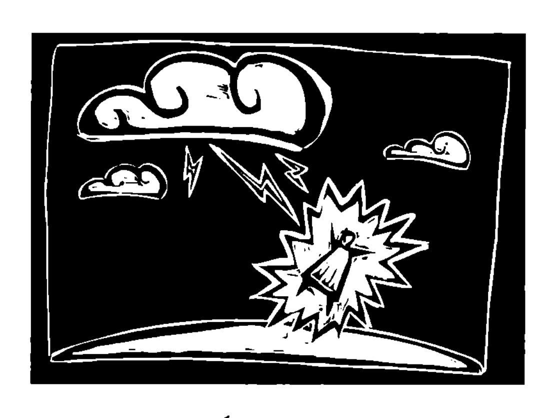
مقدر مسبقًا). نملك على الرغم من ذلك الاختيار في ما سنفعل لاحقًا. الخطأ هو أن تفكر في الإله وكأنه بشر ينتظر الأحداث أن تتطور مع الوقت. تقول الفلسفة لبَويثِيوْس بأن الإله أزلي ويوجد خارج الزمان تمامًا.

ما يعنيه هذا هو أن الإله يستوعب كل شيء في لحظة واحدة. يرى الإله الماضي والحاضر والمستقبل كشيء واحد. أما البشر الفانون فهم يدركون حدثًا يحدث تلو آخر، وهذه ليست الطريقة التي يرى بها الإله العالم. يرجع سبب أن الإله يمكنه معرفة كل شيء دون إلغاء إرادتنا الحرة وتحويلنا إلى آلات مبرمجة مسبقًا بدون أدنى اختيار على الإطلاق إلى كون الإله يراقبنا بطريقة مطلقة خارج الزمان. إنه يرى كل شيء في مرة واحدة بطريقة أبدية. تقول الفلسفة لبَويثِيوْس بأنه يجب عليه أن لا ينسى بأن الإله يحاسبنا على الطريقة التي نتصرف بها وعلى اختياراتنا على الرغم من أنه يعلم مسبقًا ما سنفعل.

إذا كانت الفلسفة محقة في هذا وإذا كان الله موجودًا ويعرف متى سأنهي هذه الجملة، فإنني على الرغم من ذلك أمارس إرادتي الحرة بإنهاء هذه الجملة بنقطة في هذا المكان بالذات.

وفي نفس الوقت، فأنتم كذلك ما زلتم أحرارًا أن تقرروا إذا ما كنتم ستقرأون الفصل التالي أم لا، الذي يفحص دليلين للاعتقاد في وجود الإله.

الفصل الثامن



أنسِلِم وتُومَا الأَكوِيني

الجزيرة المثالية

نتوفر كلنا على تصور ما للإله. نفهم ما يعنيه الإله سواء آمنا بأنه موجود أو لم نؤمن. بدون شك فإنكم تفكرون الآن في تصوركم للإله. هذا مختلف تمامًا عن القول بأن الإله موجود. كان أنسِلِم (1033 – 1109)، قسيس إيطالي أصبح رئيسًا لأساقفة كانتربوري، إنسانا غير عادي من حيث أنه ادعى أنه بإمكانه أن يبين بدليله الأنطولوجي بأنه من الناحية المنطقية فإن حقيقة توفرنا على تصور عن الإله تثبت أن الإله موجود فعلاً.

يبدأ دليل أنسِلِم، الذي ضمنه كتابه بروسلوجيون، من الإدعاء المُسَلم به وهو أن الإله هو ذلك الموجود الذي لا يوجد

شيء يمكن تصوره أعظم منه. هذه فقط طريقة أخرى لقول أن الإله هو أعظم الموجودات التي يمكن تصورها: الأعظم في القوة، في الطيبة وفي المعرفة. لا يمكن تصور موجود آخر أعظم من ذلك، أو أن ذلك الشيء يمكن أن يكون إلها. الإله هو الموجود الأسمى. لا يبدو هذا التعريف قابلاً للجدال: عَرَّف بَويثِيوْس (الفصل 7)، مثلاً، الإله بنفس الطريقة. يمكننا أن نُكَوِّن تصورًا عن الإله في عقولنا. هذا أمر بديهي. غير أن أنسِلِم يشير بعد ذلك إلى أن الإله الذي يوجد فقط في عقولنا ولا يوجد في الواقع لن يكون أعظم موجود يمكن أن نتصوره. يمكن أن يوجد الإله كتصور، حتى الملحدون يقبلون عادة ذلك. لكن إلها متخيلاً لا يمكنه أن يكون أعظم من إله موجود فعلاً. وتبعًا لذلك خلص انسلم إلَى فكرة أنه يجب أن يوجد الإله فعليًّا، فهذه نتيجة منطقية لتعريف الإله. إذا كان أنسِلِم محقًا، فيمكننا أن نكون متأكدين بأن الإله يوجد بكل بساطة من حقيقة أننا نملك تصورًا عن الإله. يعتبر هذا دليل مسبق من حيث أنه لا يعتمد على ملاحظة للعالم للوصول إلى خلاصات. إنه دليل منطقي ينطلق من مسألة بديهية ليثبت أن الإله موجود.

استعمل أنسِلِم مثال الرسام. يتصور الرسام المشهد قبل رسمه. وفي لحظة ما يرسم الرسام ما تخيله. بعد ذلك يوجد الرسم في الخيال وفي الواقع معًا. يختلف الإله عن هذا النوع من الحالات. اعتقد أنسِلِم أنه كان مستحيلاً من الناحية المنطقية تصور الإله دون أن يكون الإله موجودًا فعلاً، غير أننا يمكن

أن نتصور رساماً لم يرسم أبدًا الصورة التي تخيلها، بحيث أن الصورة توجد فقط في مخيلته ولا توجد في العالم. الإله هو الموجود الوحيد بهذا الشكل: يمكننا أن نتخيل أي شيء آخر غير موجود دون أن نناقض أنفسنا. إذا فهمنا حقًا ما يعنيه الإله، سوف ندرك بأنه يستحيل أن يكون الإله غير موجود.

معظم الناس الذين فهموا دليل أنسِلِم عن وجود الإله ظنوا أن هناك شيئًا مريبًا في الطريقة التي وصل بها إلى استنتاجه. إنه يعطي الإحساس بأن هناك شيء غير صحيح. لم يؤمن الكثير من الناس بالإله على أساس هذا الاستنتاج. في المقابل استشهد أنسِلِم من الزبور بأن المخبول هو الذي ينكر وجود الإله. قام راهب آخر بانتقاد منطق أنسِلِم خلال حياته وهو جُونيلو مارموتير. قدم تجريبًا لفكرة تدعم موقف المخبول.

تخيل أنه في مكان ما في المحيط توجد جزيرة لا يمكن لأحد أن يصل إليها. توجد في هذه الجزيرة ثروات هائلة، ومليئة بكل الفواكه، وبها أشجار ونباتات وحيوانات غريبة والتي يمكن تصورها. وهي جزيرة غير مسكونة مما يجعلها مكان مثالي. في الواقع فهذه أحسن جزيرة يمكن أن يتخيلها إنسان. إذا قال شخص ما أنها لا توجد، ليست هناك صعوبة في فهم ما يقصدون بذلك، فهناك دلالة واضحة. لكن تخيل أنه استمر في كلامه عن الجزيرة ليقول بأن هذه الجزيرة يجب أن توجد فعلاً لأنها أحسن من أي جزيرة أخرى. أنت تملك تصورًا عن الجزيرة، لكنها

لن تكون أحسن جزيرة إذا كانت توجد فقط في مخيلتك. يجب أن توجد إذن في الواقع.

يبين جولينو بأنه إذا استعمل أي شخص هذا الدليل لمحاولة إقناعك بأن هذه الجزيرة المثالية توجد فعلاً، ستعتقد ربما بأن الأمر هو مجرد نكتة. لا يمكنك أن تعطي لجزيرة مثالية وجودًا حقيقيًّا في العالم فقط بتصور شكلها. سيكون الأمر عبثًا. هدف جولينو من هذا المثل هو أن دليل أنسِلِم على وجود الإله يشبه من حيث الشكل الدليل على وجود الجزيرة المثالية. إذا لم تكن تعتقد بأن الجزيرة المثالية التي يمكن تخيلها يجب أن توجد فعلاً فلماذا تعتقد نفس الشيء عن الموجود الأعظم الذي يمكنك تصوره؟ يمكن استعمال نفس نوع الدليل لتتخيل كل أنواع الأشياء كموجودة في الواقع: ليس فقط الجزيرة المثالية، ولكن أيضًا الجبل المثالي والبناية المثالية والغابة المثالية. كان جولينو يؤمن بالإله لكنه اعتبر منطق أنسِلِم حول وجود الإله ضعيفًا في هذه الحالة. أجاب أنسِلِم بأن دليله هو صالح فقط في حالة إثبات وجود الله وليس في موضوع الجزر، لأن الأشياء الأخرى هي مثالية فقط في النوع الذي تنتمي إليه، لكن الله هو الأعظم في مقابل كل الموجودات. وتبعًا لذلك فالإله هو الموجود الذي يجب أن يوجد، والوحيد الذي لا يمكن أن لا يوجد.

مائتي سنة بعد ذلك وفي جزء صغير من كتاب ضخم عنونه خلاصة اللاهوت، قدم قديس إيطالي آخر اسمه توما الأكويني (1225 – 74) أدلته الخمسة، خمس طرق لإثبات وجود الله.

أصبحت هذه الأدلة الخمسة أشهر جزء في هذا الكتاب. كان ثاني هذه الأجزاء هو دليل السبب الأول وهو دليل يعتمد كباقي فلسفة الأكويني على دليل كان أَرِسْطو استعمله سابقًا. كان الأكويني، مثل أنسِلِم، يريد استعمال المنطق لإثبات وجود الإله. كان دليل السبب الأول ينطلق من وجود العالم، أي كل شيء موجود. أنظر حولك. من أين أتى كل شيء في هذا العالم؟ الجواب البسيط هو أن كل شيء موجود يحتاج إلى سبب ما لكي يوجد ويأخذ الشكل الذي هو عليه. خذ كرة القدم كمثال. فهي منتوج لأسباب متعددة - لعمل ناس صمموا شكلها وصنعوها، وبفعل استخراج وصناعة المواد الأولية التي صنعت منها. لكن من أوجد هذه المواد الأولية؟ وخلق تلك الأسباب؟ يمكن الرجوع إلى الوراء لمعرفة الأسباب، ثُمَّ إلى الوراء إلى ابعد حد، لكن هل ستستمر سلسلة هذه الأسباب إلى ما لا نهاية؟

كان الأكويني مقتنعًا بأنه لا توجد سلسلة لا متناهية من الأسباب ترجع إلى الوراء في الزمن إلى ما لا نهاية، رجوع أبدي إلى الوراء. إذا كان هناك رجوع أبدي إلى الوراء، فهذا يعني أنه ليس هناك سبب أول: شيء ما كان سببًا لكل شيء تعتقد أنه كان السبب الأول لكل شيء، وشيء ما كان سببًا لذلك أيضًا وهكذا إلى ما لا نهاية. غير أن الأكويني يعتقد أنه منطقيًا يجب أن توجد في مرحلة ما شيء وضع كل شيء في سلسلة من الأسباب والنتائج. إذا كان محقًا في هذا، فمن الأكيد أنه كان هناك شيء ما لم يكن ناتجًا عن سبب والذي بدأ سلسلة الأسباب والنتائج التي جعلتنا

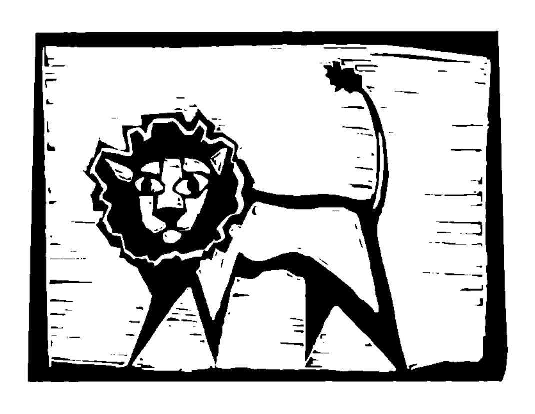
نصل إلى حيث نعيش الآن: سبب بدون سبب. صرح بأن السبب الأول هو الإله. الإله هو السبب غير المسبب لكل شيء موجود.

بعد ذلك قدم الفلاسفة العديد من الردود على هذا الدليل. أشار بعضهم إلى أنه حتى لو اتفقنا مع الأكويني على وجود نوع من السبب غير المسبب والذي بدأ كل شيء، فليس هناك سبب معين يدفعنا إلى الاعتقاد بان هذا السبب الأولي هو الإله. سيكون هذا السبب الأولي غير المسبب حتمًا قوي جدًا، لكن ليس هناك شيء في هذا الدليل يوحي بأنه يجب أن تكون له نفس الخاصيات التي تفترض الديانات وجودها في الإله. مثلاً لا يحتاج هذا السبب غير المسبب أن يكون الأكثر طيبة وكلي المعرفة. يمكن أنه كان اندفاعًا للطاقة عوض أن يكون إلها ذاتيًا.

هناك اعتراض آخر لمنطق الأكويني وهو أنه ليس هناك ضرورة منطقية لقبول افتراضه بوجود رجوع لا نهائي للنتائج وأسبابها. كيف لنا أن نعرف؟ لأننا سنسأل دائمًا، مقابل تقديم أي سبب أول مقترح، عن سبب ذلك السبب الأول. يفترض الأكويني أنه إذا استمر التساؤل إلى ما لا نهاية، فإننا سنصل إلى مرحلة سيكون فيها الجواب (لاشيء). وهذا سبب غير مسبب. لكن من الواضح أن هذا الجواب ليس أحسن من فكرة وجود رجوع لا نهائي للأسباب والنتائج.

بتركيزهما على الاعتقاد في الإله والالتزام بطريقة حياة دينية، قدم القديسين أنسِلِم والأكويني فكرًا مناقضًا بقوة لفكر ميكيافلي وهو مفكر وضعي قارنه البعض بالشيطان.

الفصل التاسع



نِيكُوْلَا مِكيَافِيلِّي

الثعلب والأسد

تخيل أنك أمير تحكم مدينة لها حكم مستقل كفلورانس أو نابولي في إيطاليا القرن السادس عشر. تتوفر على حكم مطلق. يمكنك أن تصدر أمرًا ويطاع. إذا كنت تريد أن تضع شخصًا ما في السجن لأنه عارضك علانية أو تآمر لقتلك، فيمكنك فعل ذلك. لك جيش ينفذ ما تأمره به. غير أنك محاط بمدن أخرى يحكمها حكام لهم طموح في الاستيلاء على مدينتك. كيف ستتصرف؟ هل ستكون نزيها، تنفذ وعودك وتتصرف بلطف وتثق بالناس؟

يعتقد نِيكُوْلَا مِكيَافِيلِّي (1469 – 1527) أنها ستكون احتمالاً فكرة غير صائبة، على الرغم من أنه يمكن أن ترغب في أن تبدو نزيها ولطيفًا بذلك المعنى. حسب مِكيَافِيلِّي، من الأحسن أحيانًا أن تكذب، وأن تخلف وعودك وأن تقتل أعداءك. ليس ضروريًّا للأمير أن يقلق من عدم تنفيذ وعوده. وكما عبر عن ذلك، يجب على الأمير الناجح: «أن يتعلم كيف أن لا يكون لطيفًا». أهم شيء هو أن تبقى في السلطة. وأن تكون دقيقًا في اختيار أي فعل يكون مقبولاً. ليس مفاجئًا أن يكون كتاب الأمير الذي ضمنه كل هذه الأفكار مشهورًا منذ طبعه في 1532. وصفه بعض الناس بأنه شر وفي أحسن الأحوال كتيب خاص بالعصابات؛ اعتقد آخرون بأنه أدق كتاب كتب حول ما يقع فعلاً في السياسة. يقرأه العديد من السياسيين اليوم، على الرغم من أن القليل منهم يعترف بذلك، وربما يكشفون أنهم يطبقون مبادئه.

لم يكن الهدف من كتاب الأمير هو أن يكون دليلاً لجميع الحكام، بل فقط بالنسبة للحكام الجدد الذين وصلوا إلى السلطة. كتب مِكيَافِيلِّي هذا الكتاب عندما كان يعيش في ضيعة على بعد سبعة أميال جنوب فلورانس. كانت إيطاليا القرن السادس عشر منطقة خطرة. ولد مِكيَافِيلِّي في فلورانس ونشأ هناك. عُين كشاب كدبلوماسي والتقى بالعديد من الملوك، وبإمبراطور وبالبابا خلال تنقله في أوروبا. لم يكن يحمل لهم أي تقدير. كان القائد الوحيد الذي أعجب به هو قيصر بورجيا، كان رجلاً بدون رحمة، وهو الابن غير الشرعي للبابا الإسكندر السادس، الذي

لم يتوان عن خداع أعدائه وقتلهم عندما سيطر على جزء كبير من إيطاليا. بالنسبة لِمكيَافِيلِّي، كان بورجيا صائبًا في كل شيء لكنه انهزم بسبب حظه السيئ. مرض في الوقت الذي تمت مهاجمته. كان للحظ السيئ دورًا مهما في حياة مِكيَافِيلِّي وكان موضوعًا فكر فيه كثيرًا.

عندما استرجعت عائلة ميديسي الغنية جدًا حكم فلوراس التي حكمتها من قبل، وضعت مِكيَافِيلِّي في السجن، مدعين أنه شارك في مؤامرة لقتلهم. عاش مِكيَافِيلِّي على الرغم من التعذيب وأُطلق سراحه بعد ذلك. لكن بعض رفاقه أُعدموا. لكن عقوبته كانت الإبعاد لأنه لم يعترف بأي شيء. لم يكن بإمكانه الرجوع إلى المدينة التي أحب. لن تَعُد له أي علاقة مع عالم السياسة. هناك في البادية، كان يمضي وقت المساء في تخيل حوارات مع مفكرين كبار من الماضي. ناقشوا معه في هذه الحوارات أحسن وسيلة للحفاظ على السلطة كقائد. ربما كتب الأمير لينال إعجاب من يملكون السلطة في ذلك الوقت وليحصل على منصب مستشار سياسي. كان سيسمح له هذا بالعودة إلى فلورانس وإلى عالم السياسة الحقيقية بإثارتها ومخاطرها. لكن خطته لم تنجح. انتهى به الأمر أن يكون كاتبًا. بالإضافة إلى كتاب الأمير، كتب عدة كتب أخرى في السياسة وكان مؤلفًا مسرحيًا ناجحًا – ما زالت مسرحية ماندراغولا تمثل أحيانًا إلى اليوم.

إذن ما هي نصائح مِكيَافِيلِّي بالضبط ولماذا صدمت نصائحه العديد من القراء؟ فكرته الأساسية هي أن الأمير يحتاج إلى

ما يسميه فيرتو وهي كلمة إيطالية تعني الرجولة أو الشجاعة الكبيرة. لكن ماذا يعني ذلك؟ يعتقد مِكيَافِيلِّي بأن النجاح يعتمد كثيرًا على الحظ الجيد. سَبَب نصف ما يحدث لنا، حسب اعتقاده، مرده إلى الحظ والنصف الآخر إلى الاختيار. لكنه يعتقد أيضًا أنه يمكن الزيادة من حظك بالتصرف بشجاعة وسرعة. لا يعني كون الحظ يلعب دورًا مهما في حياتنا أن نتصرف كضحايا. يمكن للنهر أن يفيض وهذا أمر لا يمكننا منعه، لكن إذا كنا بنينا سدودًا ودفاعات ضد الفيضانات، فإننا نتوفر على حظوظ أكثر للنجاة. بتعبير آخر، فالقائد الذي يستعد جيدًا ويغتنم الفرصة عندما تأتي سيتصرف احتمالاً بطريقة أحسن من القائد الذي لم يفعل ذلك.

كان مِكيَافِيلِّي مصممًا على تأسيس فلسفته على ما يقع فعلاً. كان يبين لقرائه ما يعنيه بتقديم أمثلة من الماضي القريب، معظمها يتعلق بناس التقى بهم في السابق، مثلاً عندما علم قيصر بورجيا بأن عائلة أورسيني كانت تخطط للإطاحة به، تمكن بورجيا من أن يجعلهم يُصدّقوا بأنه لا علم له بمخططهم. خدع زعماءهم باستدعائه لهم للقائه في مكان كان يسمى سينيغاغليا. عندما وصلوا، أمر بقتلهم جميعًا. استحسن مِكيَافِيلِّي هذه الخدعة. كانت تبدو له كمثال على الرجولة والشجاعة.

مرة أخرى عندما سيطر بورجيا على منطقة تسمى روماغنا، عين قائدًا قاس بالخصوص ريميرو دِيْ أوركو كمسئول. قام هذا القائد بإخضاع سكان روماغنا بالترهيب والعنف. غير أنه عندما هدأت الأمور في روماغنا، أراد بورجيا أن يبعد

نفسه عن وحشية هذا القائد. أمر بقتله وترك جثته مقطعة إلى نصفين في ساحة المدينة حتى يراها الجميع. استحسن مِكيَافِيلِّي هذه المعاملة البشعة، لأنها مكنته من تحقيق ما كان يرغب فيه، أن يبقى سكان روماغنا موالين له. ابتهجوا لقتل دِيْ إوركو لكنهم في نفس الوقت أدركوا أن بورجيا هو الذي أمر بقتله، وقد أخافهم ذلك. إذا كان بورجيا قادرًا على ارتكاب هذا النوع من العنف ضد قائده العسكري، فلا أحد منهم سيكون آمِن. كان فعل بورجيا يتسم بالرجولة والشجاعة في نظر مِكيَافِيلِّي: قدم هذا الفعل مثالاً على ما يجب أن يفعله كل أمير عاقل.

يبدو أن مِكيَافِيلِّي استحسن القتل. من الواضح أنه كان يستحسنه في بعض الظروف إذا كانت النتائج تبرره. لكن هذا لم يكن الهدف من وراء هذه الأمثلة. ما كان يريد أن يوضحه هو أن قتل بورجيا لأعدائه وقتله لقائده العسكري كعبرة للآخرين قد أعطى نتائج إيجابية بالنسبة له. لقد أنتج تصرفه النتائج المرجوة ومنع مزيدًا من إراقة الدماء. استمر بورجيا في السلطة ومنع سكان روماغنا من الثورة ضده من خلال فعله الوحشي والسريع. بالنسبة لِمكيَافِيلِّي، كانت هذه النتيجة أهم من الوسيلة التي استعملها لتحقيقها: كان بورجيا أميرًا جيدًا لأنه لم يكن مترددًا في فعل ما يجب فعله للبقاء في السلطة. لم يكن مِكيَافِيلِّي ليستحسن قتلاً غير مبرر، القتل مِنْ أَجْلِ القتل فقط؛ لكن القتلة الذين وصفهم لم يكونوا كذلك. كان التصرف برحمة في هذه الظروف سيكون كارثيًا بالنسبة لبورجيا وللدولة.

يؤكد مِكيَافِلِّي على أنه من الأحسن للأمير أن يكون مرهوب الجانب من أن يكون محبوبًا. من الناحية المثالية، يكون الأمير مرهوب الجانب ومحبوبًا لكن ذلك صعب الإدراك. إذا كنت تعتمد على ناس يحبونك، فأنت تخاطر لأنهم سيتخلون عنك عندما تسوء الأمور. إذا كانوا يخافونك، فسيمنعهم الخوف منك من أن يخونوك. هذا جزء من عدم ثقته في دوافع الناس، وهي نظرته المنحطة للطبيعة البشرية. كان يعتقد بأن المخلوقات البشرية غير جديرة بالثقة، جشعين ومخادعين. إذا كنت تريد أن تكون حاكمًا ناجحًا فيجب أن تعرف ذلك. من الخطر أن تثق بأن أحدًا سيفي بوعده إلّا إذا كان خائفًا من نتائج عدم وفائه بوعده.

إذا كنت تستطيع أن تحقق ما تسعى إليه بإظهار اللطف والوفاء بوعودك وأن تكون محبوبًا، فعليك فعل ذلك (أو على الأقل أن تتظاهر بفعل ذلك). لكن إذا لم تستطع فعل ذلك، فعليك إذن أن تجمع بين هذه الخصال الإنسانية والصفات الحيوانية. أكد فلاسفة آخرون على أنه يجب على القادة أن يتحلّوا بخصال إنسانية، لكن مِكيَافِلِّي كان يعتقد بأنه يجب على أن يتصرف أحيانًا كوحش. الحيوانات التي يجب التعلم منها هي الثعلب والأسد. الثعلب حيوان ماكر يستطيع أن يكتشف الكمائن، لكن الأسد قوي ومرعب جدًا. لا ينفع أن تكون أسدًا كل الوقت، وتتصرف بوحشية، لأنك ذلك لن يمنعك في السقوط في كمين. ولن ينفع كذلك أن تكون ثعلبًا مراوغا فقط: تحتاج لقوة الأسد أحيانًا لتبقى آمنا. لكن إذا اعتمدت على طيبتك وإحساسك

بالعدل، فلن تبقى في السلطة لوقت طويل. لحسن الحظ أن الناس سذج؛ إنهم ينخدعون بالمظاهر. تبعًا لذلك فبإمكانك كحاكم أن تلعب على المظاهر بإعطاء صورة عنك كطيب ونزيه في الوقت الذي لا تفي فيه بوعودك وتتصرف بوحشية.

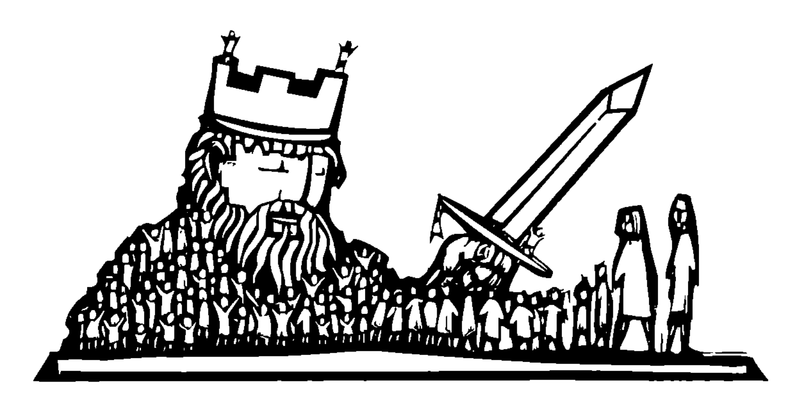
الآن وقد قرأتهم هذا، فأنتم ربما تعتقدون بأن مِكيَافِلِّي كان بكل بساطة رجل شرير. الكثير من الناس يعتقدون ذلك، كما أن نعت (مِكيَافِلِّي) يستعمل كشتيمة لوصف شخص يستعمل الناس الآخرين للوصول إلى مبتغاه. غير أن هناك فلاسفة آخرون يعتقدون أن مِكيَافِلِّي عبر عن شيء مهم. ربما قد لا يَصْلح السلوك العادي الطيب للقادة. في الحياة اليومية يمكن أن تكون طيبًا وتثق بالناس الذين يقدمون لك الوعود، لكن إذا كنت قائدًا لدولة أو بلد، فيمكن أن تكون ثقتك في دول أخرى أن تتصرف بطريقة حسنة نحوك سياسة محفوفة بالمخاطر. في سنة 1938، صدّق الوزير الأول البريطاني آنذاك نيفيل تشامبرلين وعد أدولف هتلر بأنه لن يسعى إلى توسيع ألمانيا على حساب الدول المجاورة. يبدو هذا التصديق الآن تصرفًا غبيًّا وساذجًا. كان بإمكان مِكيَافِلِّي أن يوضح لتشامبرلين أن لهتلر أسبابه للكذب عليه وأنه لا يجب الثقة به.

من جهة أخرى لا يجب أن ننسى بأن مِكيَافِلِّي استحسن أفعال قتل ووحشية ضد أعداء مفترضين. حتى في عالم إيطاليا القرن السادس عشر الدموي، فاستحسان أفعال بورجيا الوحشية هو أمر صادم. يعتقد الكثير منا بأنه يجب أن تكون هناك حدود

لما يمكن لحاكم أن يفعله حتى بأسوأ أعدائه، وأن هذه الحدود يجب أن ينظمها القانون. إذا لم تقنن الحدود، فسينتهي الأمر ببروز طغاة متوحشين. استعمل كل من أدولف هتلر، بوْل بوت، عيدي أمين، صدام حسين، وروبـيرت موغابي نفس الآليات كقيصر بورجيا للبقاء في السلطة. ليس هذا بالضبط إشهارًا لفلسفة مِكيَافِيلِّي.

كان يرى مِكيَافِيلِّي نفسه كإنسان واقعي، إنسان كان يرى أن الناس هم أساسًا أنانيون. يشترك تُومَاس هُوبْز معه في هذه الرؤية: إنها تشكل أساس شرحه الكامل للطريقة التي يعتقد أن المجتمع يجب أن يهيكل بها.

الفصل العاشر



تُومَاس هُوبْز

بغيض، وحشي وقصير

كان تُومَاس هُوبْز (1588 – 1679) من أعظم المفكرين السياسيين الإنجليز. ما يعرف عنه أقل هو أنه كان أيضًا متحمسًا جدًا للرياضة. كان يتمشى لوقت طويل كل صباح، يمشي بخطوات سريعة في المرتفعات حتى يصير قصير النفس. في حالة ما حصل على أفكار جيدة وهو يمشي كان له عكاز به محبرة في مقبضه. كان هذا الرجل الطويل والمحمر الوجه والمرح، بشارب ولحية ناعمة طفلًا مريضًا. لكنه عندما أصبح بالغا، تمتع بصحة جيدة جدًا ولعب التنس حتى أصبح كهلًا. كان يأكل الكثير من السمك، ويشرب نبيذا خفيفًا وكان معتادًا على الغناء – في داخل منزله

بعيدًا عن مرمى سمع الآخرين، وذلك لتمرين رئتيه. وكباقي الفلاسفة كان له فكر نشط جدًا. النتيجة كانت أنه عمر لحدود 91 سنة، وهو عمر استثنائي بالنسبة للقرن السابع عشر حين كان معدل العمر لا يتجاوز 35 سنة.

على الرغم من طبيعته العبقرية، فقد كان مثل مِكيَافِلِّي يحمل رؤية تحط من قيمة بالجنس البشري. كان يعتقد أننا كلنا أنانيون بالغريزة، نخاف من الموت ونسعى لتحقيق الربح الشخصي. نسعى كلنا إلى السيطرة على الآخرين، سواء حققنا ذلك أو لم نقدر على تحقيقه. إذا لم تقبل الصورة التي يقدمها هُوبْز عن الإنسانية، فلماذا تقفل باب منزلك عندما تغادره؟ بالتأكيد لأنك تعرف أن هناك العديد من الناس سيشعرون بالسعادة لسرقة كل شيء تملكه. لكن يمكنك أن تجادل في الأمر، هناك بعض الناس فقط أنانيون بهذا القدْر. يعترض هُوبْز ويعتقد أنه في الأصل كلنا أنانيون وأن القانون والخوف من العقاب هو الذي يمنعنا من التصرف بتلك الأنانية.

بين أن نتيجة هذا الأمر هو أنه إذا تفكك المجتمع، وأصبح ضروريًا أن يعيش الناس في ما سماه (حالة الطبيعة) دون قوانين أو أي شخص في السلطة يضمن تنفيذها، فإنك كباقي الناس ستسرق وتقتل إذا كان ذلك ضروريًا. على الأقل يتوجب عليك فعل ذلك إذا أردت أن تستمر في الحياة. في عالم يتسم بندرة الموارد، وخصوصًا إذا كنت تصارع مِنْ أَجْلِ الحصول على الماء والغذاء للاستمرار في الحياة، سيكون منطقيًا في الواقع أن تقتل الآخرين

قبل أن يقتلوك. في وصف جدير بالذكر، ستكون الحياة خارج المجتمع تتميز «بالوحدة والفقر والقسوة والوحشية والقصر».

إذا ألغيت سلطة الدولة لمنع الناس من الاستيلاء على أراضي بعضهم البعض وقتل من يريدون قتله، فستكون النتيجة حرب أبدية حيث الجميع يحارب ضد الجميع. من الصعب أن تتخيل وضعية أسوأ من هذه الحالة. في هذا العالم غير المحكوم بالقانون حتى الأقوياء لن يكونوا في مأمن لوقت طويل. كلنا بحاجة إلى النوم وعندما ننام يكون سهلاً مهاجمتنا. حتى الضعفاء إذا ما كانوا مراوغين قد يتمكنوا من تحطيم الأقوياء.

يمكنك أن تتخيل أن أحسن طريقة لتجنب القتل هو أن تتجمع في فريق دفاعي مع أصدقائك. المشكل هو أنك لن تكون متأكدًا من أن الكل جدير بالثقة. إذا وعدك الناس الآخرون بالمساعدة، فقد يكون في صالحكم أحيانًا عدم الوفاء بذلك الوعد. ستكون كل الأعمال التي تتطلب التعاون، مثل إنتاج الغذاء بقدر كبير أو البناء مستحيلة دون مستوى أساسي من الثقة. لن تعرف أنك خُدعت إلّا بعد فوات الأوان، وربما في الوقت التي تكون فيه قد تعرضت للطعن من الخلف. قد يوجد لك أعداء في كل مكان. ستعيش حياتك وحيدًا وخائفًا من الهجوم: مشهد غير جذاب.

بين هُوبْز أن الحل هو أن تُسلِّم المسؤولية لبعض الأشخاص الأقوياء أو البرلمان. يجب على الأفراد في حالة الطبيعة أن يوافقوا على عقد اجتماعي، اتفاق على التنازل عن بعض الحريات الخطيرة

مِنْ أَجْلِ تحقيق الأمن. بدون وجود عاهل، ستكون الحياة نوعًا من الجحيم. سيتم منح هذا العاهل الحق في إلحاق العقوبة بكل من خالف القانون. اعتقد هُوبْز أن هناك بعض الحقوق الطبيعية التي قد نصفها كأساسية، مثلاً أن نُعامِل الآخرين كما نتوقع أن نُعامَل. لا تكون القوانين فاعلة إلّا إذا لم يكن هناك شخص أو شيء ما قوي بقدر كافي لإرغام الكل على احترامها. بدون قوانين وبدون عاهل قوي، يمكن أن يتوقع الناس في حالة الطبيعة أن يموتوا بطريقة عنيفة. العزاء الوحيد هو أن هذه الحياة ستكون قصيرة.

لوياثان (1951)، أهم كتاب لهُوبْز، يشرح بالتفصيل الخطوات الضرورية للانتقال من الوضعية الرهيبة لحالة الطبيعة إلى مجتمع آمِن حيث الحياة محتملة. كان لوياثان وحشًا بحريًّا ضخمًا تم وصفه في الكتاب المقدس. بالنسبة لهُوبْز فهذا الوحش يحيل إلى السلطة القوية للدولة. يبدأ لوياثان بصورة عملاق يقف شامخًا فوق أسفل الجبل ويحمل سيفًا وصولجانا. يتكون هذا العملاق من ناس أصغر حجمًا والذين يمكن رؤيتهم كأفراد. يمثل هذا العملاق الدولة القوية وعلى رأسها عاهل أو ملك. بدون هذا الأخير، سيتهدم كل شيء وسيتفكك المجتمع إلى أفراد مستعدين لقتل بعضهم بعضًا مِنْ أَجْلِ البقاء.

للأفراد الذين يعيشون في حالة الطبيعة إذن أسباب وجيهة لأن يرغبوا في العمل سويًّا وأن يبحثوا عن السلام. كانت الطريقة الوحيدة ليتمكنوا من حماية أنفسهم. بدون ذلك ستكون حياتهم رهيبة. يكون الأمن أهم من الحرية. سيدفع الخوف من الموت

الناس نحو تشكيل مجتمع. اعتقد هوبر بأن الناس سيوافقون على التنازل عن عدد من الحريات مِنْ أَجْلِ أن ينجزوا عقدًا اجتماعيًّا مع بعضهم البعض، وهو وعد بأن يسمحوا لعاهل أن ينفذ القوانين عليهم. سيكونون في حال أحسن بسلطة قوية في الحكم بدل قتال بعضهم البعض.

مرت حياة هُوبْز بفترات عصيبة، حتى وهو داخل رحم أمه. أزداد قبل الأوان لأن أمه أشتد عليها وجع الولادة عند سماعها أن السفينة الإسبانية إرمادا قد أبحرت في اتجاه إنكلترا ويمكن أن تغزو البلد. لحسن الحظ لم يحدث ذلك. نجا لاحقًا من أخطار الحرب الأهلية في إنكلترا وذلك بالانتقال إلى باريس، لكن الخوف الحقيقي من أن تعم الفوضى إنكلترا لازمت كتاباته اللاحقة. كتب لوياثان في باريس وعاد إلى إنكلترا بعد نشر الكتاب بقليل. سنة 1651.

على شاكلة الكثير من مفكري عصره، لم يكن هُوبْز فيلسوفًا فقط، بل كان ما قد نسميه اليوم رجل عصر النهضة. كان له اهتمام بالهندسة والعلم وبالتاريخ القديم كذلك. كان كشاب يحب الأدب، وقد كتب الأدب وترجمه. فيما يتعلق بالفلسفة والتي اهتم بها فقط عندما توسط به العمر، كان ماديًّا يعتقد أن البشر هم فقط مخلوقات مادية، وليس هناك شيء اسمه الروح: نحن فقط أجساد هي في جوهرها آلات معقدة.

كانت تقنيات صنع الساعات التكنولوجيا الأكثر تقدمًا في القرن السابع عشر. كان هُوبْز يعتقد أن العضلات والأعضاء

يشبهون هذه التقنيات: كان كثيرًا ما يكتب عن نوابض الفعل والعجلات التي تحركنا. كان مقتنعًا بأن كل مظاهر الوجود الإنساني، بما فيها التفكير، هي أنشطة جسدية. ليس هناك أي مكان للروح في فلسفته. إن هذه فكرة حديثة تبناها العديد من العلماء الآن، لكنها كانت فكرة راديكالية في عصره. حتى أنه ادعى أن الإله هو شيء مادي ضخم، غير أن بعض الناس اعتبروا هذا الإدعاء طريقة متنكرة للتصريح بإلحاده.

يظن منتقدو هُوبْز بأنه بالغ في السماح للعاهل، سواء كان ملكًا أو ملكة أو برلمانا، أن تكون له مثل تلك السلطة على الفرد في المجتمع. الدولة التي يصفها هي ما نسميه اليوم الدولة الاستبدادية: الدولة التي يملك فيها العاهل سلطة غير محدودة تقريبًا على المواطنين. قد يكون السلام مرغوبًا فيه، وقد يكون الخوف من موت عنيف دافع للخضوع لسلطات الحفاظ على السلام. غير أن وضع الكثير من السلطات في يد الأفراد أو مجموعة من الأفراد قد يكون خطرًا. لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولم يكن يؤمن بقدرة الشعب على اتخاذ قرارات لنفسه. لكن لو أنه علم بما فعله الطغاة في القرن العشرين، لكان ربما غير رأيه.

كان معروفًا عن هُوبْز أنه رفض الاعتقاد في وجود الروح. اعتقد رِينَيْ دَيْكارْت، أحد معاصريه، وخلافًا لهويز، بأن العقل والجسد مختلفان تمامًا عن بعضهما البعض. ربما لهذا السبب كان هُوبْز يعتقد بأن دَيْكارْت كان أحسن في الهندسة منه في الفلسفة، وكان عليه أن يهتم بها أكثر ويلتصق بها.

الفصل الحادي عشر



رِينَيْ دَيْكارْت

هل يمكن أن يكون ما تراه مجرد حلم؟

تسمع المنبه، توقفه وتزحف خارج السرير، ترتدي ملابسك وتتناول الفطور وتستعد ليوم من العمل. لكن شيئًا غير متوقع يحدث: تستيقظ وتدرك أنك كنت في حلم. كنت مستيقظًا في حلمك وكنت تُسير حياتك، لكنك في الواقع، كنت لا تزال نائمًا تشخر تحت البطانية. إذا مررت بتجارب مشابهة ستدرك ما أعني. إنها تسمى (حالات استيقاظ غير حقيقية) ويمكن أن تكون مقنعة جدًا. مر الفيلسوف الفرنسي رنيه دَيْكارْت (1596 – 1650) بتجربة مماثلة ودفعته إلى التفكير في الأمر. كيف يمكنه أن يكون متأكدًا بأنه لم يكن يحلم؟

كانت الفلسفة بالنسبة لدَيْكارْت إحدى اهتماماته الفكرية. كان عالمًا رياضيًّا بارزًا، ربما الأكثر شهرة الآن لاختراعه نظام الإحداثيات الدَيْكارْتية – بعد أن شاهد، كما يحكى، ذبابة تمشي في السقف وتساءل عن الطريقة التي يمكنه بها وصف موقعها في نقط مختلفة. كان معجبًا بالعلم كذلك، كان عالم فلك وعالم الأحياء. كانت شهرته ترتكز بشكل كبير على كتابين تأملات ومقال عن المنهج، وهي كتب اكتشف فيها حدود ما يمكن أن نعرفه.

كان، مثل كل الفلاسفة، لا يحب أن يؤمن بشيء حتى يفحص السبب الذي يجعله يؤمن به؛ كان يحب كذلك طرح أسئلة غير مألوفة، أسئلة لا يطرحها الناس العاديون. كان دَيْكارْت يعرف أنه لا يمكن أن يستمر الإنسان في طرح الأسئلة حول كل شيء. سيكون صعبًا أن تعيش إذا لم تكن تثق في بعض الأشياء معظم الوقت، كما اكتشف ذلك بِيْرو (انظر الفصل 3). غير أن دَيْكارْت اعتقد أنه من الجدير بالمحاولة أن تفكر في ما يمكن أن تكون متأكدًا من معرفته. طَوّر منهجًا مِنْ أَجْلِ ذلك. يُعرف هذا المنهج بمنهج الشك الدَيْكارْتي.

كان المنهج بسيطًا: لا تقبل أي شيء كحقيقي إذا كانت هناك أدنى إمكانية بأنه ليس كذلك. تخيل كيسًا كبيرًا مليئًا بالتفاح. تعرف أنه يوجد في الكيس بعض التفاح المتعفن، لكنك لست متأكدًا أيه كذلك. ما تريده هو أن يبقى في نهاية المطاف فقط التفاح الجيد وليس المتعفن في الكيس. كيف يمكنك أن تصل

إلى هذه النتيجة؟ إحدى الطرق هي أن تقلب كل التفاح على الأرض وتفحصه واحدة تلو الأخرى، وتضع التفاح الجيد فقط في الكيس مرة ثانية. يمكن أن ترمي بعض التفاح الجيد لأنك تعتقد أنه يمكن أن يكون متعفنا من الداخل. النتيجة هي أنك ستحتفظ فقط بالتفاح الجيد في الكيس. تمثل هذه الطريقة إلى حد ما منهج الشك الدَيْكارْتي. تأخذ اعتقادًا معينا، مثلاً (أنا مستيقظ وأقرأ الآن)، وافحصه ولا تقبله إلّا إذا كنت متأكدًا أنه غير خاطئ أو مُضلل. إذا كان هناك مجال صغير جدًا للشك، فارفضه. فحص دَيْكارْت مجموعة من الأشياء التي كان يؤمن بحقيقتها وتساءل إذا ما كان فعلاً متأكدًا أنها حقيقية كما تبدو. هل كان العالم حقيقيًا كما يبدو له؟ هل كان متأكدًا أنه لم يكن يحلم؟

ما كان دَيْكارْت يبحث عنه هو شيء يكون متأكدًا منه. سيكون ذلك كافيا لمنحه موطئ قدم في الواقع. لكن كان هناك خطر أن يسقط في دوامة الشك، وينتهي به الأمر أن يدرك بأن لاشيء أكيد على الإطلاق. استعمل نوعًا من الشك هنا، لكن شكه يختلف عن شك بِيْرو وأتباعه. كان هدفهم هو أن يبينوا أنه لا يمكنهم معرفة أي شيء بالتأكيد. غير أن دَيْكارْت كان يرغب في التأكيد على أن بعض المعتقدات لها مناعة ضد أقوى أشكال الشك.

بدأ دَيْكارْت بحثه عن اليقين بالتفكير أولاً في الدليل الذي يكون مَصدَرُه الحواس: النظر، الشم، اللمس، التذوق والسمع. هل يمكننا أن نثق بحواسنا؟ خلص إلى أنه لا يمكن فعل ذلك.

تخدعنا الحواس أحيانًا. نرتكب أخطاء. فكر في ما تراه. هل تثق في بصرك في إدراكه لكل شيء؟ هل يجب أن تثق دائمًا بعينيك؟

تبدو عصًا موضوعة في الماء مائلة إذا نظرت إليها من الجانب. يمكن أن يبدو سور مربع وكأنه دائري من مسافة بعيدة. نرتكب أخطاء أحيانًا حول ما نرى. ويشير دَيْكارْت إلى أنه ليس من الحكمة أن نثق بشيء ضللنا في الماضي. رفض إذن اعتماد الحواس كوسيلة معرفية لليقين. لن يكون أبدًا متأكدًا من أن حواسه لن تخدعه. ربما هم ليسوا كذلك كل الوقت، لكن إمكانية ولو ضعيفة بأنهم سيخدعوننا تعني أنه لا يجب الاعتماد عليهم. لكن إلى أين يؤدي بنا هذا الشك؟

من المحتمل أن الاعتقاد «أنا مستيقظ وأقرأ هذا الآن» يبدو أكيد تمامًا بالنسبة لك. أنت مستيقظ، أتمنى ذلك، وأنت تقرأ الآن. كيف يمكنك أن تشك في هذا الأمر؟ غير أننا ذكرنا سابقًا بأنه يمكنك أن تعتقد بأنك مستيقظ وأنت تحلم. كيف تعرف أنك لست تحلم الآن؟ ربما أنت تعتقد بأن التجارب التي تمر بها الآن هي واقعية جدًا ومفصلة جدًا لتكون أحلامًا؛ لكن العديد من الناس يرون أحلامًا واقعية جدًا. هل أنت متأكد من أنك لست في حلم واقعي جدًا الآن؟ كيف تعرف ذلك؟ ربما قرصت نفسك لتتأكد بأنك لست نائمًا. إذا لم تفعل ذلك، حاول الآن. على ماذا يدل ذلك؟ لاشيء. يمكن أن تكون قد حلمت أنك تقرص نفسك. إذن يمكن أن تكون في حلم. أعرف أنك لا تشعر بذلك، وأن هذا أمر غير محتمل، لكن من الأكيد أن

هناك شك قليل حول ما إذا كنت مستيقظًا أم لا. بتطبيقنا لمنهج الشك الدَيْكارْتي، يجب عليك أن ترفض فكرة «أنا مستيقظ وأقرأ هذا الآن» كأنها ليست أكيدة تمامًا.

يبين لنا هذا أنه لا يمكننا أن نثق بحواسنا تمامًا. لا يمكننا أن نكون متأكدين على نحو جازم من أننا لسنا في حلم. يقول دَيْكارْت أنه بالتأكيد 2+3=5 حتى في الأحلام. هنا حيث يستعمل دَيْكارْت تجربة ذهنية، قصة خيالية لتوضيح وجهة نظره. إنه يدفع بالشك إلى أقصى مدى ممكن ويقدم لنا امتحانا أصعب بالنسبة لأي معتقد من امتحان «هل يمكن أن أكون أحلم؟». تخيل أن هناك عفريت قوي وذكي جدًا، لكنه شرير أيضًا. يمكن لهذا العفريت، إن كان موجود فعلاً، أن يجعل عملية 3+3=5 كل مرة تفعل ذلك على الرغم من أن الجمع يساوي في الواقع 6. لن تعرف أن العفريت يفعل ذلك بك. ستجمع الأعداد بكل براءة وسيبدو كل شيء عاديًّا.

ليس هناك أي طريق سهل لمعرفة أن ذلك لا يحدث الآن. ربما قد يكون هذا العفريت الذكي والشرير يوهمني بأنني جالس في البيت أكتب في حاسوبي، في الوقت الذي أكون فيه مستلقيًّا في شاطئ جنوب فرنسا. أو ربما أنا لست سوى مخ في جرة على رف في مختبر هذا العفريت الشرير. ربما يكون قد وضع أسلاكًا في دماغي ويرسل رسائل إلكترونية ويوهمني بأنني أفعل شيئًا في حين أنني أفعل شيئًا آخر مختلف تمامًا. ربما قد يجعلني هذا العفريت أعتقد أنني أكتب كلمات لها معنى، في حين أنني أكتب

نفس الحرف مرارًا وتكرارًا. ليس هناك وسيلة لنعرف الحقيقة. لا يمكنك أن تقدم دليلاً على أن هذا لا يحدث على الرغم من أنه يبدو أمرًا غير معقول.

تجربة العفريت الشرير الذهنية هي طريقة دَيْكارْت لدفع الشك إلى أقصى الحدود. إذا كان هناك شيء واحد نكون متأكدين بأن هذا العفريت لن يخدعنا بشأنه، فسيكون الأمر رائعًا. وسيقدم جوابًا لأولئك الذين يعتقدون أنه لا يمكننا معرفة أي شيء معرفة يقينية على الإطلاق.

أنتجت الخطوة الثانية التي قام بها دَيْكارْت قولة مشهورة في الفلسفة، على الرغم من أن العديد من الناس يعرفون القولة ولا يعرفون معناها بالتحديد. كان دَيْكارْت يرى أنه حتى لو كان العفريت موجودًا وكان يخدعنا، يجب أن يكون هناك شيء يخدعه العفريت. حالما يفكر دَيْكارْت في فكرة ما، فهو موجود بالتأكيد. لن يستطيع العفريت أن يجعله يعتقد أنه موجود إذا لم يكن موجودًا. لأن الشيء الذي لا يوجد لا يمكن أن تكون له أفكار. (أفكر إذن أنا موجود)، كانت هي الخلاصة التي توصل إليها دَيْكارْت. أنا أفكر فمن الأكيد أنني موجود. جرب هذه الفكرة بنفسك. ما دمت تملك فكرة أو إحساسًا، فمن المستحيل أن تشك أنك موجود. لكن هويتك – أي من تكون – فهذا سؤال آخر. يمكنك أن تشك إذا ما كان لك جسد أو أنك الجسد التي تراه وتلمسه، غير أنه لا يمكنك أن تشك بأنك موجود

كشيء يفكر. ستدحض هذه الفكرة ذاتها. حالما تبدأ في الشك في وجودك، فإن فعل الشك نفسه يؤكد أنك موجود كشيء يفكر.

قد يبدو هذا وكأنه لا يعني الشيء الكثير، غير أن اليقين من وجوده كان مهما جدًا بالنسبة لدَيْكارْت. بين له بأن هؤلاء الذين شككوا في كل شيء – فلاسفة الشك البِرينَيْين – كانوا خاطئين. وكان هذا كذلك بداية ليعرف بالثنائية الدَيْكارْتية. وهي فكرة أن العقل منفصل عن الجسد ويتفاعل معه. إنها ثنائية لأن هناك نوعين من الأشياء: العقل والجسد. سَخِر أحد فلاسفة القرن العشرين، جلبرت رايل، من هذه الرؤية كأسطورة للشبح في الآلة: الجسد هو الآلة والروح هي الشبح الذي يسكنه. اعتقد دَيْكارْت بأن العقل قادر على إنتاج آثار في الجسد والعكس صحيح لأنهما يتفاعلان معًا في مكان ما في الدماغ – الغدة الصنوبرية. لكن هذه الثنائية تركته في مواجهة مشاكل حقيقية تتعلق بتفسير الطريقة التي يُنتج بها شيء غير مادي، الروح أو العقل، تغيرات شيء مادي، الجسد.

كان دَيْكارْت متأكدًا أكثر من وجود عقله من وجود جسده. كان يمكنه أن يتخيل نفسه بدون جسد على أن يتخيله بدون عقل. إذا افترض أنه بدون عقل، فإنه ما يزال قادرًا على التفكير، وتبعًا لذلك يدل هذا على أن له عقل لأنه لن يستطيع أن ينتج أفكارًا إذا لم يكن لديه عقل. تعتبر فكرة أن بالإمكان التفريق بين العقل والجسد وأن العقل أو الروح شيء لامادي، غير مكون من دم

ولحم وعظام، فكرة منتشرة بين الناس المتدينين. يعتقد الكثير من المؤمنين بأن الروح ستبقى حية بعد موت الجسد.

لم يكن كافيا تأكيد وجوده في ارتباطه باستمرار التفكير لدحض مذهب الشك المطلق على الرغم من ذلك. كان دَيْكارْت بحاجة إلى المزيد من اليقينيات ليتخلص من دوامة الشك التي ارتبطت في ذهنه بالتأملات الفلسفية. بين أنه يجب أن يكون إلها طيبًا موجودًا. استعمل أحد أدلة أنسِلِم الأنطولوجية (الفصل 8) ليقنع نفسه أن فكرة الإله تؤكد وجود الإله. لن يكون الإله كاملًا إلّا إذا كان طيبًا وموجودًا، كما أن وجود مثلث لا يستقيم إلّا إذا كان مكونا من زوايا داخلية يكون مجموعها 180 درجة. هناك دليل آخر، دليل العلامة، يشير إلى أننا نعرف بان الإله موجود لأنه ترك فينا فكرة مغروسة في عقولنا – لن توجد هذه الفكر لو كان الإله غير موجود. ما أن تأكد من وجود الإله، أصبحت المرحلة التكوينية لفكر دَيْكارْت أسهل. لن يخدع الإله الطيب الإنسانية في شأن الكثير من الأمور الأساسية. وتبعًا لذلك وصل دَيْكارْت إلى خلاصة تفيد بأن العالم يجب أن يكون إلى حد ما كما نتصوره. عندما تَكُون لنا إدراكات واضحة ومتميزة، فهي جديرة بالثقة. خلاصته هي: العالم موجود، إلى حد ما كما يبدو لنا، على الرغم من أننا نرتكب أخطاء في ما ندركه. غير أن بعض الفلاسفة يعتقدون بأن هذا هو تفكير بالتمني وأن ذلك العفريت الشرير قد يكون خدعه في موضوع وجود الإله كما خدعه في عملية الجمع 3+3=5. لم يكن بإمكان دَيْكارْت أن يتجاوز معرفته

بأنه شيء مفكر لَوْلَا يقينه من وجود الإله. اعتقد دَيْكارْت بأنه وجد طريقًا للخروج من الشك المطلق، لكن منتقديه ما زالوا يشككون في ذلك.

استعمل دَيْكارْت كما رأينا الدليل الأنطولوجي ودليل العلامة ليثبت بارتياح كامل وجود الإله. كان لبلَايْز بَاسْكَال، فيلسوف فرنسي آخر، مقاربة مختلفة لمسألة ما يجب علينا أن نعتقد.

الفصل الثاني عشر



بلَايْز بَاسْكَال

ضع رهاناتك

إذا قذفت قطعة نقدية في الهواء يمكن أن تسقط على الأرض طرّة أو نقشًا. هناك احتمال 50 / 50 لكل منهما، إلّا إذا وُجِّهت في اتجاه معين. إذن لا يهم في هذه الحالة أي جانب ستراهن عليه لأن الطرة ستنقلب دائمًا ليظهر النقش. إذا لم تكن متأكدًا من أن الإله موجود أو غير موجود، ماذا يجب عليك أن تفعل؟ هل هذا يشبه قذف قطعة نقدية في الهواء؟ هل يجب أن تقامر على أن الإله غير موجود وتعيش حياتك كما تحب؟ أو ستكون أكثر تعقلًا وتتصرف وكأن الإله موجود، على الرغم من أن احتمال صدق هذا الاعتقاد سيستغرق وقتًا طويلًا؟ فكر بلَايْز بَاسْكَال الذي كان يعتقد في وجود الإله كثيرًا حول هذا الموضوع.

كان بَاسْكَال مسيحيًّا مؤمنا. لكنه خلافًا للعديد من المسيحيين كانت له رؤية كئيبة جدًا للإنسانية. كان متشائمًا. كان يرى السقوط في كل مكان، النقائص التي توجد فيها والتي يعتقد أن سببها هو خيانة آدم وحواء لثقة الإله بأكلهم التفاحة من شجرة المعرفة. مثل أوْغَسْطِين (انظر الفصل 4)، كان يعتقد أن المخلوقات البشرية تحركها الرغبة الجنسية، وأنها غير جديرة بالثقة وأنها تشعر بالملل بسرعة. الكل بئيس. الكل ممزق بين القلق واليأس. يجب أن ندرك بأننا كلنا تافهين. إن الوقت القصير الذي نعيشه فوق الأرض هو تقريبًا بدون قيمة تذكر بالمقارنة مع الزمن الأبدي الذي يسبق حياتنا ويأتي بعدها. إننا نحتل فضاء صغيرًا جدًا في الفضاء غير المحدود للكون. غير أن بَاسْكَال كان يعتقد بأن الإنسانية تتوفر على إمكانات إذا لم نغفل وجود الإله. إننا نوجد في مكان وسط بين الوحوش والملائكة، لكننا ربما أقرب كثيرًا إلى الوحوش في أغلب الحالات ومعظم الوقت.

تم جمع كتاب الأفكار لبَاسْكَال والذي يعتبر أهم كتاب له من نصوص متفرقة من كتاباته والذي نشر سنة 1670 بعد وفاته المبكرة عن سن 39 سنة. كُتب على شكل مجموعة من الفقرات القصيرة والمكتوبة بفنية عالية. لم يكن أحد متأكدًا من الكيفية التي كان يُقصد أن يجمع بها هذه الفقرات، لكن الفكرة الرئيسية للكتاب واضحة: الدفاع عن فهمه الخاص للديانة المسيحية. لم يكن بَاسْكَال قد أتم كتابة هذا المؤلف عندما فاجأه الموت. اعتمد ترتيب الأجزاء على الطريقة التي رتب بها قطعًا

من الورق في حِزَم مربوطة بخيط. تُشكل كل حزمة جزءًا من الكتاب المنشور.

كان بَاسْكَال طفلاً مريضًا ولم يكن في صحة جيدة طوال حياته. حتى في اللوحات الفنية لوجهه، كان لا يبدو في صحة جيدة. كانت عيناه الدامعتان تنظر إليك بحزن. غير أنه حقق الكثير في وقت قصير. أصبح كشاب عالمًا بتشجيع من أبيه، واشتغل على الفراغات وصمم مقاييس الضغط الجوي. في سنة 1642، اخترع آلة حاسبة ميكانيكية كان بإمكانها الجمع والطرح باستعمال قلم لتحريك أقراص مرتبطة بمعدات معقدة. صَنع هذه الآلة لمساعدة أبيه في تدبير الحسابات. كان لها حجم صندوق أحذية وعلى الرغم من أنها كانت صعبة الاستعمال، فقد اشتغلت. المشكل الأساسي هو أن صنعها كان غالي التكلفة.

بالإضافة إلى كونه كان عالمًا ومخترعًا، فقد كان عالم رياضيات عظيم. كانت أفكاره الرياضية الأكثر إبداعًا هي أفكاره حول حساب الاحتمالات. لكن الناس سيتذكرونه كفيلسوف وكاتب ديني. وذلك ليس لأنه كان يحب أن يسمى فيلسوفًا: كانت كتاباته تحتوي على تعليقات حول المعرفة القليلة للفلاسفة وعن تفاهة أفكارهم. كان يفكر في نفسه كعالم لاهوت.

انتقل بَاسْكَال من اشتغاله على الرياضيات والعلم إلى الكتابة عن الدين كشاب عندما انضم إلى طائفة دينية مثيرة للجدل تعرف باسم الجانسينية. كان الجانسينيون يؤمنون بالقضاء والقدر، وهي فكرة أننا لا نملك إرادة حرة، وأن هناك بعض الناس فقط

من اختارهم الإله لدخول الجنة. كما أنهم كانوا يؤمنون بطريقة صارمة جدًا للحياة. أنّب بَاسْكَال أخته مرة عندما رآها تحضن ابنها لأنه كان لا يَستحسن إظهار المشاعر. عاش أيامه الأخيرة كناسك، وعلى الرغم من الألم الذي كان يحس به بسبب المرض الذي قتله في نهاية المطاف، استمر في الكتابة.

كان رنيه دَيْكارْت (الفصل 11) – مثل بَاسْكَال، كونه كان مسيحيًّا مؤمنا وعالمًا وعالم رياضيات – يعتقد أنه يمكنك إثبات وجود الإله بالمنطق. كان بَاسْكَال يعتقد العكس. بالنسبة له، كان الإيمان بالإله مسألة إحساس بالقلب والإيمان. لم يكن مقتنعًا بأنواع الأدلة المنطقية التي كان الفلاسفة عمومًا يستعملونها. لم يكن مثلاً مقتنعًا بأنه يمكننا أن نرى دليل وجود الإله في الطبيعة. بالنسبة له، ما يقودنا إلى الله هو القلب وليس العقل.

غير أنه في كتابه الأفكار، قدم دليلاً ذكيًّا لإقناع الناس الذين ليسوا متأكدين من وجود الإله بأنه يجب عليهم الإيمان بالإله، وهو دليل عُرف برهان بَاسْكَال. استمد هذه الفكرة من اهتمامه بحساب الاحتمالات. إذا كنت مغامرًا عاقلاً، وليس فقط مدمنا، فإنك تريد أن تكون لك أحسن الحظوظ لربح الجائزة الكبرى، ولكنك تريد أيضًا أن تقلل من خسائرك قدر الإمكان. يحسب المقامرون حظوظهم ويراهنون، من حيث المبدأ، وفقًا لذلك. إذن ماذا يعني ذلك عندما يتعلق الأمر بالرهان على وجود الإله؟

لنفترض أنك لست متأكدًا من وجود الإله أو عدمه، هناك عدد من الاحتمالات. يمكنك أن تعيش حياتك وكأن الإله غير

موجود. إذا كنت محقًا، ستكون عشت حياتك دون وهم الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت، وستكون قد تجنبت تعذيب نفسك بإمكانية أنك أذنبت كثيرًا ولن تستحق دخول الجنة. وسوف لن تكون ضيعت وقتك في الكنيسة وأنت تعبد إلها غير موجود. لكن هذه المقاربة، على الرغم من أن لها بعض المنافع الواضحة، تحمل معها خطرًا كبيرًا. إذا لم تكن تؤمن بوجود الإله وتبين أنه يوجد فعلاً، لن تفقد فقط حظوظك في دخول الجنة، ولكن أيضًا سينتهي بك المطاف في جهنم وستعذب للأبد. هذه أسوأ نتيجة يمكن تخيلها لأي إنسان.

بدلًا من ذلك، يقترح بَاسْكَال أنه يمكنك أن تختار أن تعيش حياتك وكأن الإله موجود فعلاً. يمكنك أن تقوم بالصلوات وتذهب إلى الكنيسة وتقرأ الكتاب المقدس. إذا تبين أن الإله يوجد فعلاً، فإنك ستفوز بأحسن جائزة ممكنة: إمكانية جدية بالعيش في النعيم الأبدي. إذا اخترت أن تؤمن بالله، وتبين أنك خاطئ، فإنك لن تكون قد قدمت تضحية كبيرة (ومن المفترض أنك لن تعيش بعد الموت لتعرف ذلك وتتحسر على الوقت والمجهود الذي بذلته في حياتك). وكما عبر عن ذلك بَاسْكَال، «إذا فزت فإنك ستفوز بكل شيء، إذا خسرت فإنك لن تخسر أي شيء». كان يدرك أنه يمكن أنه لن تستمتع بتلك (المتع المسمومة): المجد والرفاهية. لكن عوضًا عن ذلك، ستكون مخلصًا، نزيها، متواضعًا، ممتنا، كريمًا وصديقًا طيبًا، وستقول دائمًا الحقيقة. لن يرى كل الناس الأمر من هذا المنظور.

كان بَاسْكَال ربما منغمسًا في طريقة حياة دينية جدًا لدرجة أنه لم يدرك أنه سيكون تضحية بالنسبة لعدد من الناس غير المتدينين أن يكرسوا حياتهم للدين وأن يعيشوا حياة الوهم، كما سيرون الأمر من وجهة نظرهم. غير أن بَاسْكَال يشير إلى أنه، من جهة، لك حظوظًا في أن تستمتع بالنعيم الأبدي إذا كنت محقًا، مع بعض الإزعاجات النسبية وبعض الأوهام إذا كنت مخطئًا. من جهة أخرى، فإنك تخاطر بأن تُعاقَب في جهنم، لكن أرباحك الممكنة لا تقارن بالعيش في النعيم الأبدي.

لا يمكنك أن تبقى محايدًا في موضوع وجود الإله أو عدمه أيضًا. من وجهة نظر بَاسْكَال، إذا حاولت أن تفعل ذلك، ستحصل على نفس النتائج كالتي ستحصل عليها إذا لم تؤمن بأن الإله موجود: ستُرمى في جهنم ولن تصل أبدًا إلى الجنة. يجب أن تأخذ قرارًا بطريقة أو بأخرى. أنت لا تعرف فعلًا إذا كان الإله موجودًا. ماذا يجب عليك أن تفعل؟

كان بَاسْكَال يعتقد أن الأمر واضح. إذا كنت مقامرًا عاقلًا، وتتفحص حظوظك بنظرة هادئة، فإنك سترى أنه يجب عليك أن تراهن على أن الإله موجود حتى لو أن حظوظك جد ضئيلة، كما يحصل مع قذف القطعة النقدية في الهواء. الجائزة المحتملة هي لا متناهية وخسارتك المحتملة ليست كبيرة. كان بَاسْكَال يعتقد أن أي إنسان عاقل لن يفعل أي شيء غير المراهنة على وجود الإله في جُوْل مثل هذه الحظوظ. بالتأكيد هناك مخاطرة

أن تراهن على الله وتخسر: أن يكون الإله غير موجود. لكنها مخاطرة يجب أن تتحملها.

لكن إذا فهمت هذا المنطق، لن تشعر في قلبك على الرغم من ذلك بأن الإله موجود؟ من الصعب (وربما مستحيل) أن تحاول إقناع نفسك بشيء أنت تشك أنه غير صحيح. حاول أن تتخيل أن هناك جنيات في خزانة ثيابك. يمكنك أن تتخيل ذلك، لكن ذلك مختلف عن اعتقادك فعلاً أن الجنيات موجودة هناك فعلاً. نعتقد في الأشياء التي نعتقد أنها صحيحة. هذه هي طبيعة الاعتقاد. كيف يمكن لإنسان لا يعتقد في وجود الإله أن يؤمن بالله؟

قدم بَاسْكَال جوابًا عن هذا السؤال؟ حالما تكتشف أن الاعتقاد في الإله يخدم مصالحك العليا، فعليك إذن أن تجد طريقة لإقناع نفسك بأن الإله موجود وأن تؤمن. ما يجب عليك أن تفعل هو أن تقلد الناس الذين يؤمنون بالله. امض وقتك في الكنيسة تفعل ما يفعلون هناك. استعمل الماء المقدس وردد الأناشيد وغير ذلك. سينتهي بك المطاف في وقت قصير إلى أنك لن تقلدهم فقط بل ستحصل على الاعتقادات والمشاعر التي يحس بها الآخرون. هذه أحسن طريقة للفوز بنعيم أبدي وتجنب التعذيب في جهنم.

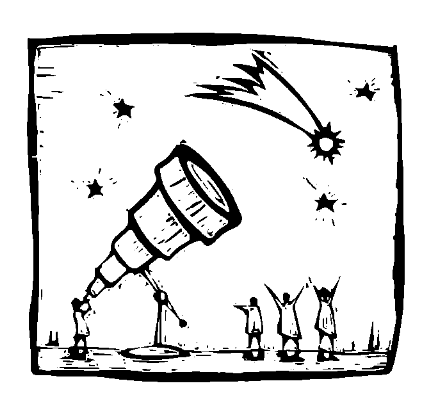
لا يجد كل الناس أفكار بَاسْكَال مقنعة تمامًا. إحدى المشاكل الواضحة جدًا في هذا الشأن هي أنه إذا كان الإله موجودًا، فيمكن أن لا ينظر الإله بعين الرضا للناس الذين آمنوا به لأن ذلك كان

بالنسبة لهم الرهان الأحسن. يبدو أن هذا نوع خاطئ من التفكير في الاعتقاد بالإله. إنه تفكير مبني على المصلحة الشخصية لأنه مؤسس كليًّا على رغبة أنانية في إنقاذ روحك بأي ثمن. يمكن أن تكون هناك مخاطرة بأن الإله سيعمل على التأكد من أن الناس الذين قامروا بهذه الطريقة على وجوده لن يدخلوا الجنة.

مشكل جدي آخر له صلة برهان بَاسْكَال وهو أنه لا يأخذ بعين الاعتبار إمكانية أنه بإتباعك له قد تكون اخترت الدين الخطأ والإله الخطأ. قدم بَاسْكَال الاختيار بين الاعتقاد في إله مسيحي أو الاعتقاد في عدم وجود إله على الإطلاق. غير أن هناك عدة ديانات أخرى تَعِد معتنقيها بالنعيم الأبدي. إذا كانت إحدى الديانات الأخرى صحيحة، إذن فإذا اختار شخص ما الديانة المسيحية، فإن هذا الشخص الذي اتبع رهان بَاسْكَال سيحرم نفسه من النعيم الأبدي تمامًا كذلك الشخص الذي لم يؤمن بوجود الإله إطلاقًا. لو أن بَاسْكَال فكر في هذه الإمكانية، لكان أكثر تشاؤمًا تجاه الإنسانية أكثر مما كان.

كان بَاسْكَال يعتقد في الإله الذي وصفه الإنجيل؛ كان لبارُوْك سبِيْنَوْزا رؤية مختلفة جدًا حول الإله، الأمر الذي دفع البعض إلى الشك في أنه ملحد متخفي.

الفصل الثالث عشر



بارُوْك سبِيْنَوْزا

صانع العدسات

تعلم معظم الديانات أن الإله موجود في مكان ما خارج العالم، ربما في السماء. كان بارُوْك سبِيْنَوْزا (1932 – 77) غير عادي في تفكيره بأن الإله هو العالم. كتب عن (الإله أو الطبيعة) لتفسير هذه الفكرة – وكان يعني أن الكلمتين تحيلان على نفس الشيء. إن الإله والطبيعة هما طريقتان لوصف شيء واحد. الإله هو الطبيعة والطبيعة هي الإله. هذا شكل من وحدة الوجود وهو الاعتقاد بأن الإله هو كل شيء. كانت فكرة متطرفة سببت له عدة مشاكل.

ولد سبِيْنَوْزا في أمستردام، من أب برتغالي يهودي. كانت أمستردام مشهورة آنذاك باستقبالها للناس الهاربين من الاضطهاد. لكن حتى هنا كانت هناك حدود لما يمكن للإنسان أن يعبر عنه من آراء. على الرغم من أنه نشأ في الديانة اليهودية، فإن سبِيْنَوْزا عُزل ولُعن من طرف أحبار المعبد اليهودي في سنة 1656 عندما كان عمره 24 سنة ربما لأن آراءه حول الإله كانت متطرفة جدًا. غادر أمستردام ليستقر في لاهاي. انطلاقًا من هذه اللحظة أصبح اسمه بيندكت دو سبِيْنَوْزا عوض بارُوْك، اسمه اليهودي.

أُعجب العديد من الفلاسفة بالهندسة. تحولت أدلة الفيلسوف القديم اقليدس حول افتراضات هندسية مختلفة من حقائق بديهية بسيطة إلى افتراضات أولية تقود إلى نتائج مثل أن مجموع الزوايا الداخلية لمثلث يساوي زاويتين مستقيمتين. ما يُعجب به الفلاسفة عادة في الهندسة هي الطريقة التي ننتقل بها من نقط انطلاق متفق عليها إلى نتائج مفاجئة. إذا كانت المسلمات صحيحة، فمن الأكيد ستكون النتائج صحيحة. ألْهم هذا النوع من التفكير الهندسي كل من رنيه دَيْكارْت وتُومَاس هُوبْز.

لم يُعجب سبِيْنَوْزا بالهندسة فقط، بل كتب الفلسفة وكأنها هندسة. تشبه الأدلة في كتابه الأخلاق الأدلة الهندسية وتَضمَّن مسلمات وتعريفات. يُفترض أن لها نفس المنطق الصارم للهندسة. عوض تناول مواضيع مثل زوايا المثلث ومحيطات الدوائر، فإن مواضيعه تتناول الإله، الطبيعة، الحرية والعاطفة. كان يشعر بأنه يمكن تحليل هذه المواضيع والتفكير فيها بنفس الطريقة

التي نفكر بها في المثلثات والدوائر والمربعات. ينهي أجزاء كتابه بعبارة QED وهي اختصار لعبارة تعني (الذي يجب إثباته) والتي تظهر في كتب الهندسة. كان يعتقد أن هناك منطق بنيوي مُضمَّن في العالم ومكاننا فيه والذي يمكن للتفكير أن يكشفه. لا يوجد شيء كما هو صدفة، بل هناك هدف ومبدأ وراء كل ذلك. كل شيء يندمج معًا في نظام كبير واحد وأحسن طريقة لفهم كل هذا هي قوة الفكر. تسمى هذه المقاربة للفلسفة والتي تركز على العقل عوض التجريب والملاحظة غالبًا بالعقلانية.

كان سبِيْنَوْزا يحب الوحدة. كان يجد الوقت وراحة البال لمتابعة دراساته في الوحدة. وكان ربما اشتغاله في مؤسسة عمومية أسلم له، بالنظر إلى آراءه حول الإله. لهذا السبب كذلك لم يُنشر أشهر كتاب له، الأخلاق، إلّا بعد وفاته. على الرغم من أن سمعته كمفكر مبدع جدًا انتشرت خلال حياته، فقد رفض عرضًا للتدريس في جامعة هيدلبيرغ. كان على الرغم من ذلك سعيدًا بمناقشة أفكاره مع بعض الفلاسفة الذين كانوا يأتون لزيارته. كان الفيلسوف وعالم الرياضيات غَوتْفرِيد لاَيبْنِز أحد زواره.

كان سبِيْنَوْزا يعيش حياة بسيطة، وكان يسكن في منزل مكترى، بدل أن يشتري منزلاً خاصًا. لم يكن بحاجة إلى مال كثير وكان بإمكانه العيش بما كان يكسبه من عمله كصانع للعدسات بالإضافة إلى بعض المال الذي كان يمنحه إياه بعض الناس المعجبين بأعماله الفلسفية. كانت العدسات التي كان يصنع تستعمل في بعض الآلات العلمية كالمنظار والمجهر. سمح له

هذا بأن يبقى مستقلاً وأن يشتغل في بيته. للأسف، ساهم هذا في موته المبكر من عدوى في الصدر عن سن 44 سنة. كان قد استنشق غبار الزجاج الذي كان يتطاير بفعل اشتغاله على صنع العدسات، وقد دمر هذا بالتأكيد رئتيه تقريبًا.

كان سبِيْنَوْزا يعتقد أنه إذا كان الإله لا نهائي، سينتج عن ذلك بالتأكيد أنه لا يمكن أن يوجد أي شيء ليس بالإله. إذا اكتشفت شيئًا في الكون ليس بالإله، فالإله إذن ليس بلا نهائي، لأن الإله يمكن أن يكون ذلك الشيء كما يمكن أن يكون كل شيء آخر أيضًا. كلنا أجزاء من الإله، ولكن أيضًا الحجر والنمل وأوراق النبات والنوافذ. كل هذه الأشياء. كلها تجتمع معًا في كل معقد جدًا، لكن في نهاية المطاف كل شيء موجود هو جزء من هذا الكل: الإله.

يُعلِّم علماء الدين التقليديون بأن الإله يحب الإنسانية ويستجيب للصلوات الشخصية. هذا شكل من التجسيم - إسقاط صفات بشرية كالرحمة مثلاً على مخلوق غير إنساني، الإله. الشكل الأقصى لهذا هو أن تتخيل الإله كرجل طيب له لحية كبيرة وابتسامة لطيفة. لا يشبه إله سبِينَوْزا هذا في أي شيء. إنه ليس شخصًا ولا يهتم بأي شيء ولا أي أحد. بالنسبة لسبِينَوْزا، يمكنك أن تحب الإله ويجب عليك ذلك، لكن لا تنتظر أي حب منه في المقابل. يشبه هذا محب للطبيعة يتوقع أن تحبه الطبيعة في المقابل. في الواقع، فالإله الذي يصفه هو غير مبالي تمامًا بالمخلوقات البشرية ولا بما يفعلون لدرجة أن البعض اعتقد أن سبِيْنَوْزا

لا يعتقد في الإله على الإطلاق وأن فكرة وحدة الوجود ما هي إلّا تستر عن إلحاده. كانوا يعتبرونه ملحدًا ولا يؤمن بالدين على الإطلاق. كيف يمكن لإنسان يعتقد أن الإله لا يهتم بالإنسانية أن يكون شيئًا آخر؟ من وجهة نظر سبِيْنَوْزا، فهو على الرغم من ذلك يملك حبًا عقلانيًا للإله مؤسسًا على فهم عميق توصل إليه بالعقل. لكن هذا ليس الدين كما هو مألوف لدى الناس. ربما كان أحبار المعبد اليهودي على حق في عزله.

كانت أفكار سبِيْنَوْزا حول الإرادة الحرة مثيرة للجدل أيضًا. كان يؤمن بالحتمية. كان هذا يعني أن كل فعل بشري هو نتيجة لأسباب سابقة. لو أن حجرًا استطاع أن يملك وعيًا كالبشر، لتخيل عند قَذفه في الهواء أنه يتحرك بقوته الخاصة على الرغم من أن الأمر ليس كذلك. ما كان يحرك الحجر هو قوة القذف وآثار الجاذبية. يشعر الحجر بأن هو وليس الجاذبية من يتحكم في مساره. المخلوقات البشرية هي كذلك أيضًا: نعتقد أننا نختار بحرية ما نفعل وأننا نتحكم في حياتنا. لكن ذلك يحدث لأننا لا نفهم عادة الطرق التي تنتج عنها اختياراتنا وأفعالنا. في الحقيقة فالإرادة الحرة هي وهم. ليس هناك فعل حر تلقائي.

على الرغم من أنه كان يؤمن بالحتمية، فقد كان يعتقد أن نوعًا ما من الحرية الإنسانية المحدودة جدًا ممكنا ومرغوبًا فيه. إن أسوأ طريقة للوجود هي ما سماه العبودية: أي أن تكون تحت رحمة مشاعرك. عندما يحدث شيء سيئ، أو عندما يتصرف شخص معك بقلة أدب، مثلاً، وتفقد هدوءك وتحس بالكره، فهذه

طريقة سلبية للوجود. فأنت تتصرف برد فعل تجاه الأحداث. تسبب الأحداث الخارجية غضبك. أنت لا تتحكم في نفسك على الإطلاق. أحسن طريقة لتَجَنُب ذلك هو أن تفهم الأسباب التي تشكل السلوك - الأشياء التي تدفعك إلى الغضب. بالنسبة لسبِيْنَوْزا، أحسن ما يمكننا تحقيقه هو أن تكون مشاعرنا ناتجة عن اختياراتنا وليس عن أحداث خارجية. على الرغم من أن هذه الاختيارات لا تكون حرة تمامًا، فمن الأحسن أن نكون فعالين عوض أن نكون سلبيين.

يعتبر سبِيْنَوْزا نموذجًا للفيلسوف. كان له استعداد أن يكون مثيرًا للجدل، أن يقدم أفكارًا لا يقبلها الجميع، وأن يدافع عن آرائه بالحجج. يستمر عبر كتاباته في التأثير في من يقرأون أعماله حتى عندما لا يتفقون تمامًا مع ما يكتب. لم يستطع رأيه بأن الإله هو الطبيعة أن ينتشر، لكن بعد وفاته، كان له معجبون بارزون، ضمنهم الروائية الفكتورية جُورْج إليوت التي ترجمت كتابه الأخلاق، وفيزيائي القرن العشرين ألبرت إنشتاين الذي على الرغم من أنه لم يؤمن بإله شخصي، كشف في رسالة أنه فعلاً يؤمن بإله سبِيْنَوْزا.

كان إله سبِيْنَوْزا كما رأينا إلها غير مشخص وليست له صفات بشرية، ولن يعاقب أي أحد بسبب ذنوبه. سار جُوْن لُوك، الذي ولد في نفس السنة التي ولد فيها سبِيْنَوْزا، في طريق مختلف. كانت مناقشته لطبيعة الذات مُسْتلهَمة جزئيًّا من اهتمامه بما يمكن أن يقع يوم الحساب.

الفصل الرابع عشر



جُوْن لوْك وتُومَاس رَيْد

الأمير والإسكافي

كيف كنت وأنت رضيع؟ إذا كانت لك صورة التُقطَت في ذلك الوقت، أنظر إليها. ماذا ترى؟ هل أنت حقًا ذلك الذي في الصورة؟ ربما تبدو مختلفًا الآن. هل تستطيع أن تتذكر كيف كنت وأنت رضيع؟ أغلبنا لا يستطيع. كلنا نتغير مع الوقت. ننمو نتطور وننضج، ونضعف وننسى أشياء. يصبح جسم أغلبنا أكثر تجعيدًا ويبيض شعرنا ويسقط، نغير آراءنا، أصدقاءنا، طريقة لبسنا وأولوياتنا. بأي معنى إذن، ستصبح نفس الشخص كذلك الرضيع عندما تكبر في السن؟ أزعجت مسألة ما يجعل شخص ما نفس الشخص مع مرور الزمن الفيلسوف الإنجليزي جُوْن لُوك (1932 - 1704).

كان للُوك مثل العديد من الفلاسفة اهتمامات واسعة. كان متحمسًا حول الاكتشافات العلمية لأصدقائه روبرت بويل وإسحاق نيوتن، وكان مهتمًا بالسياسة في ذلك الوقت، وكتب كذلك حول التربية. في أعقاب الحرب الأهلية في إنكلترا، هرب إلى هولندا بعد أن اتهم بالتآمر لقتل الملك الجديد، تشارلز الثاني. شجع من هناك التسامح الديني مبينا انه غير معقول أن نرغم الناس على تغيير معتقداتهم الدينية بواسطة التعذيب. كان لرأيه الذي يؤكد على أننا نملك حقًا ممنوحًا من الإله في الحياة، الحرية، السعادة والملكية تأثيرًا على الآباء المؤسسين الذين كتبوا الدستور الأمريكي.

ليس لدينا صور أو رسومات للُوك لما كان رضيعًا. لكنه ربما تغير كثيرًا عندما كبر في السن. في متوسط عمره كان شخصًا نحيلًا، انفعاليًّا وذا شعر مبعثر. غير أنه كرضيع كان مختلفًا. من بين معتقدات لُوك هو أن عقل الرضيع هو مثل صفحة بيضاء. لا نعرف شيئًا عندما نولد، وكل معرفتنا تتكون من تجربتنا في الحياة. عندما كبر الرضيع لُوك وأصبح فيلسوفًا شابًا، فإنه اكتسب كل أنواع المعتقدات وأصبح الشخص الذي نعتقد أنه هو جُوْن لُوك الآن. لكن بأي معنى كان هو نفس الشخص كرضيع، وبأي معنى كان لُوك المتوسط العمر هو نفس الشخص الذي كانه وهو شاب؟

لا يُطرح هذا النوع من المشاكل فقط بالنسبة للبشر الذين يتساءلون عن علاقتهم بالماضي. وكما لاحظ ذلك لُوك، فقد

يكون هذا مطروحًا حتى عندما نتكلم عن الجوارب. إذا كان لديك جورب به ثقب ورقعت الثقب، ثُمَّ بعد ذلك رقعت ثقبًا آخر، فسينتهي بك المطاف بجورب مليء بالرقع، وسوف يكون القماش الأصلي قد اختفى تمامًا. هل سيكون ذلك نفس الجورب؟ بمعنى ما، فإنه كذلك لأن هناك استمرارية من أجزاء أصلية إلى جورب مرقع تمامًا. لكن بمعنى آخر ليس هذا نفس الجورب لأن الثوب الأصلي اختفى تمامًا. أو تخيل شجرة بلوط. تنمو شجرة البلوط من جوز البلوط، تفقد أوراقها كل سنة، يكبر حجمها وتسقط بعض الفروع، لكنها تبقى نفس الشجرة. هل أجواز البلوط هي نفسها الشتلة الصغيرة وهل الشتلة الصغيرة هي نفسها شجرة البلوط الضخمة؟

هناك طريقة لمقاربة مسألة ما يجعل إنسانا الشخص نفسه مع مرور الزمن هو أن نشير إلى أننا أشياء حية. أنت الحيوان نفسه الذي كنته وأنت رضيع. استعمل لُوك كلمة رجل (يعني بها الرجل والمرأة) ليحيل على (الحيوان الإنساني). كان يعتقد أن القول بأننا نبقى نفس الرجل خلال حياتنا بهذا المعنى هو صحيح. هناك استمرارية للمخلوق الإنساني الحي والتي تتطور خلال مسار حياتها. غير أنه بالنسبة للُوك أن تكون نفس الرجل هو مختلف جدًا عن أن تكون نفس الشخص.

حسب لُوك، يمكن أن أكون نفس الرجل لكن ليس نفس الشخص الذي كنته سابقًا. كيف يمكن هذا؟ يدعي لُوك أن ما يجعلنا نفس الشخص مع مرور الزمن هو وعينا، أي معرفتنا

بذواتنا. لا يشكل ما لا تستطيع تذكره جزءًا منك كشخص. لنوضح ذلك، تخيل أميرًا وهو يستيقظ بذكريات إسكافي وإسكافي بذكريات أمير. يستيقظ الأمير كالعادة في قصره ويبدو من مظهره أنه نفس الشخص الذي كان قبل أن ينام. لكن لأنه يحمل الآن ذكريات الإسكافي عوضًا عن ذكرياته، فإنه يشعر بأنه الإسكافي. كان هدف لُوك هو أن يبين بأن الأمير كان محقًا بأن يشعر أنه الإسكافي. الاستمرارية الجسدية لا تقرر في هذا الموضوع. ما يهم في مسائل تتعلق بالهوية الشخصية هو الاستمرارية النفسية. إذا كنت تحمل ذكريات الإسكافي، فأنت الإسكافي، حتى لو أن لك جسد الأمير. إذا ارتكب الإسكافي جريمة، فسنعتبر من يوجد في جسد الأمير مسئولاً عن الجريمة.

بالتأكيد في الحالات العادية لا تتحول الذكريات بهذه الطريقة. استعمل لُوك هذه التجربة الذهنية ليثبت حقيقة. لكن بعض الناس يدعون بأنه من الممكن أن يسكن أكثر من شخص جسد واحد. تُعْرف هذه الوضعية باضطراب تعدد الشخصيات حيث يبدو أن هناك شخصيتين مختلفتين داخل فرد واحد. توقع لُوك هذه الإمكانية وتخيل شخصين مختلفين تمامًا يعيشون في جسد واحد – الأول حاضر بالنهار والآخر بالليل. إذا كان هذان العقلان لا يتواصلان مع بعضهما البعض، إذن فهناك شخصان اثنان حسب لُوك.

بالنسبة للُوك فأسئلة الهوية الشخصية هي مرتبطة إلى حد بعيد بالمسؤولية الأخلاقية. كان يعتقد بأن الإله سيعاقب الناس

على الجرائم التي يتذكرون ارتكابها. الشخص الذي لم يعد يتذكر فعل الشر ليس هو نفس الشخص الذي ارتكب جريمة. يكذب الناس في الحياة اليومية بالتأكيد حول ما يتذكرونه. وتبعًا لذلك فعندما يدعي شخص أنه نسي ما اقترفه من أفعال، فالقضاة يترددون في إطلاق سراحه. لأن الإله يعرف كل شيء فسيكون قادرًا على التمييز بين من يستحق العقاب ومن لا يستحقه. هناك نتيجة لرؤية لُوك وهي أنه إذا تتبع الباحثون عن النازيين رجلاً مسنا كان يشتغل كحارس في معسكرات الإبادة النازية، فيجب أن يحاسب الرجل المسن على ما يمكنه أن يتذكر، وليس على جرائم أخرى. لن يعاقبه الإله على جرائم لم يعد يتذكرها، على الرغم من أن المحاكم لن تمنحه البراءة للشك.

منحت مقاربة لُوك للهوية الشخصية أيضًا جوابًا لسؤال أربك بعض معاصريه. كانوا مهتمين بمسألة ما إذا كنا سنحتاج إلى البعث في نفس الجسد يوم الحساب. إذا حصل ذلك، ماذا سيحدث لو أن جسدك كان قد أُكل من طرف إنسان متوحش أو حيوان مفترس؟ كيف سيتم جمع كل أجزاء الجسد للبعث بعد الموت؟ إذا كان إنسان متوحش قد أكل جسدك، إذن فهناك أجزاء من جسدك أصبحت جزءًا منه. إذن كيف سيتم بعث جسد الإنسان المتوحش ووجبته (أي أنت) كجسدين؟ وضح لُوك أن ما يهم هو أن تكون نفس الشخص في الحياة الأخرى عوض نفس الجسد. من وجهة نظره ستكون نفس الشخص إذا

كانت لك نفس الذكريات، حتى لو أن هذه الأخيرة لها علاقة بجسد آخر.

إحدى نتائج رؤية لُوك هي أنك احتمالاً لست نفس الشخص الذي يوجد في الصورة كرضيع. أنت نفس الفرد لكن إذا لم تتذكر نفسك كرضيع، فأنت لست نفس الشخص. تمتد هويتك الشخصية إلى الحد الذي يمكنك تذكره من حياتك الماضية. وكلما اندثرت ذكرياتك مع الكبر في السن، فإن الحد الذي تكونه كشخص يتقلص.

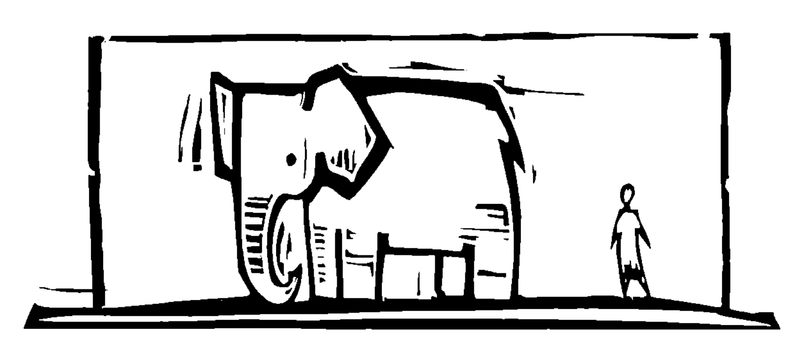
يرى بعض الفلاسفة أن لُوك ذهب بعيدًا في تركيزه على الوعي بالذات كأساس للهوية الشخصية. في القرن الثامن عشر، قدم تُومَاس ريد مثالاً يبين ضعفًا في طريقة تفكير لُوك حول ماهية الشخص. يمكن لجندي مسن أن يتذكر شجاعته في الحرب عندما كان ضابطًا شابًا، وعندما كان ضابطًا شابًا كان يتذكر أنه تعرض للضرب عندما كان طفلاً حين سرق بعض التفاح من حقل. غير أنه لم يعد يتذكر هذا الحادث عندما كبر في السن. من الأكيد أن هذا التداخل في الذكريات قد يعني أن الضابط الشاب كان نفس الشخص كالطفل. كان تُومَاس ريد يعتقد أنه من الواضح أن الرجل المسن والطفل هما نفس الشخص.

غير أنه بالنسبة لنظرية لُوك فإن الجندي المسن هو نفس الشخص كالضابط الشاب لكنه ليس نفس الشخص كالطفل الذي تعرض للضرب (لأن الرجل المسن لم يتذكر ذلك). على الرغم من ذلك فالضابط الشاب هو نفس الشخص كالطفل (لأن

الضابط تذكر حادث السرقة). ينتج عن هذا أمر غير معقول وهو أن الرجل المسن والضابط الشجاع هما نفس الشخص، والضابط الشجاع والطفل هما نفس الشخص، في حين ان الرجل المسن والطفل ليسا نفس الشخص في نفس الوقت. من حيث المنطق فهذا الأمر غير صحيح. فهذا يشبه القول بأن أ=ب وب=ج لكن (أ) لا يساوي (ج). يبدو أن الهوية الشخصية تعتمد على تداخل الذكريات، وليس على التذكر التام كما ذهب إلى ذلك لُوك.

كان تأثير لُوك كفيلسوف يتأسس أكثر على أشياء أخرى مختلفة عن مناقشته للهوية الشخصية. قدم لُوك في كتابه القيم مقال حول الفهم الإنساني (1690) رؤيته بأن أفكارنا تمثل العالم لنا وأن هناك بعض مظاهر العالم فقط توجد كما تبدو لنا. دفع هذا جُورْج بارْكِلي إلى تقديم تفسيره التخيلي الخاص للواقع.

الفصل الخامس عشر



جُورْج بارْكلِي (وجُوْن لُوك)

الفيل في الغرفة

هل تساءلت مرة إذا ما كان الضوء في الثلاجة ينطفئ عندما تغلق باب الثلاجة عندما لا يستطيع أحد رؤيته؟ كيف يمكنك أن تصدر رأيا في ذلك؟ ربما يمكنك أن تُركِّب كاميرا عن بعد. لكن ماذا يحدث عندما توقف تشغيل الكاميرا؟ ماذا عن شجرة في الغابة تسقط حيث لا أحد يسمعها؟ هل فعلاً تحدث ضجيجًا؟ كيف تعرف أن غرفة نومك تستمر في الوجود عندما لا تكون موجودًا فيها؟ ربما تختفي كل مرة تغادرها. يمكنك أن تطلب من شخص آخر التأكد من ذلك. السؤال الصعب هو: هل تستمر في الوجود عندما لا يراقبها أحد؟ ليس واضحًا كيف

ستجيب عن هذه الأسئلة. يعتقد أغلبنا أن الأشياء تستمر في التواجد وهي غير مراقبة لأن هذا هو التفسير الأكثر بساطة. يعتقد أغلبنا أيضًا أن العالم الذي نراه يوجد هناك في مكان ما: فهو لا يوجد فقط في عقولنا.

غير أنه بالنسبة لجُورْج بارْكِلي (1685 – 1753) فيلسوف إيرلندي أصبح أسقفًا لكلوين، كل شيء لا ندركه فهو غير موجود. إذا لم يكن هناك عقل يدرك بطريقة مباشرة الكتاب الذي تقرأه، فسيتوقف عن أن يكون موجودًا. عندما تنظر إلى الكتاب ويمكنك رؤية الأوراق ولمس الصفحات، فإن ذلك كله يعني بالنسبة لبارْكِلي أنك تمر بتجارب. لا يعني أن هناك شيء هناك في العالم يسبب هذه التجارب. ليس الكتاب إلّا مجموعة من الأفكار في عقلك وفي عقول الناس الآخرين (وربما في عقل الإله)، وليس شيئًا منفصلاً عن العقل. بالنسبة لبارْكِلي فمفهوم عالم خارجي لا يوجد على الإطلاق. يبدو أن كل هذا يتعارض مع الحس المشترك. من الأكيد أننا محاطون بأشياء تستمر في الوجود سواء أدركناها أو لم ندركها، أليس كذلك؟ لم يكن بارْكِلي يعتقد أن ذلك صحيح.

نتفهم موقف بعض الناس الذين اعتقدوا بأن بارْكِلي أصابه الجنون عندما بدأ في عرض نظريته لأول مرة. في الواقع لم يبدأ الفلاسفة في أخذ نظريته مأخذ الجد إلّا بعد وفاته، وأدركوا ما كان يحاول فعله. عندما سمع أحد معاصريه صامويل جُوْنسون بنظرية بارْكِلي، قذف حجرًا برجله بقوة في الشارع وصرح: «أرفض

هذا الشيء بهذه الطريقة)). كان هدف جُونسون هو أن يبين بأنه متأكد من الأشياء المادية هي موجودة وليست مكونة فقط من أفكار - كان يحس بالحجر وهو يصطدم مع أصابع رجله بقوة عندما قذفه برجله، وعليه فمن الأكيد أن بارْكِلي كان مخطئًا. غير أن بارْكِلي كان أكثر ذكاء مما اعتقده جُونسون عنه. لا تثبت صلابة الحجر كما أحسها بقدمه وجود الأشياء المادية، بل فقط وجود فكرة حجر صلب. بالنسبة لبارْكِلي ما نسميه حجر ليس شيئًا أكثر من الإحساسات التي يتسبب فيها. ليس هناك حجر مادي حقيقي وراءها يتسبب في ألم في الرجل. في الحقيقة، ليس هناك واقع على الإطلاق منفصلاً عن الأفكار التي نملك.

يوصَف بارْكِلي أحيانًا كمثالي وأحيانًا كلامادي. كان مثاليًا لأنه كان يعتقد أن كل ما يوجد هي الأفكار، وكان لا ماديًا لأنه أنكر وجود الأشياء المادية. مثل العديد من الفلاسفة الذين ناقشناهم في هذا الكتاب، كان بارْكِلي معجبًا بالعلاقة بين الواقع والمظهر. كان يعتقد بأن أغلب الفلاسفة كانوا مخطئين حول حقيقة هذه العلاقة. بين بالخصوص بأن لُوك كان مخطئًا في تقديره لعلاقة الأفكار بالعالم. من الأسهل فهم مقاربة بارْكِلي بمقارنتها بمقاربة لُوك.

كان بارْكِلي يظن أنه عندما تنظر إلى فيل، فأنت لا ترى الفيل نفسه. ما تعتبره الفيل هو في الحقيقة تمثلاً له، أو ما كان يسميه فكرة في العقل، شيء مثل صورة لفيل. استعمل لُوك كلمة (فكرة) ليعبر عن أي شيء نفكر فيه أو ندركه. إذا رأيت فيلاً

رماديًّا، فإن اللون الرمادي لا يمكن أن يكون شيئًا في الفيل لأن الفيل سيأخذ لونا آخر تحت تأثير ضوء مغاير. اللون الرمادي هو ما يسميه لُوك (خاصية ثانوية). إنه يَنْتج عن تجميع لخاصيات الفيل مع خاصيات جهازنا الإدراكي، في هذه الحالة العين. لون جلد الفيل، تركيب ورائحة روثه هي كلها خاصيات ثانوية.

الخاصيات الأولية مثل الحجم والشكل هي حسب بارْكلِي خاصيات حقيقية لأشياء في العالم. تشبه أفكار الخاصيات الأولية لتلك الأشياء. إذا رأيت شيئًا مربعًا، فإن الشيء الحقيقي الذي يؤدي إلى تكون فكرتك عن ذلك الشيء هو أيضًا المربع لكن إذا رأيت مربعًا أحمر، فإن الشيء الحقيقي في العالم الذي يثير إدراكك ليس هو اللون الأحمر. الأشياء الحقيقية لا لون لها. كان لُوك يعتقد أن إحساساتنا باللون تنتج عن التفاعل بين المكونات المجهرية للأشياء وجهازنا البصري.

غير أن هناك مشكل جدي هنا. كان لُوك يعتقد أن هناك عالم موجود هناك، العالم الذي يحاول العلماء وصفه، والذي لا نصل إليه إلّا بطريقة غير مباشرة. كان واقعيًّا من حيث أنه آمن بوجود عالم واقعي يستمر هذا العالم الواقعي في التواجد حتى عندما لا يدركه أحد. تكمن الصعوبة بالنسبة للُوك في معرفة كيف هو هذا العالم. يعتقد أن الأفكار عن الخاصيات الأولية كالحجم والشكل هي صور جيدة لذلك الواقع. لكن كيف يمكنه الجزم بذلك؟ كفيلسوف تجريبي، الذي يؤمن بأن التجربة هي مصدر المعرفة، يجب أن يكون لديه دليل مقنع عن

الإدعاء بأن الأفكار عن الخاصيات الأولية تشبه العالم الواقعي. لكن نظريته لا تفسر كيف يمكننا أن نعرف شكل هذا العالم الواقعي لأنه لا يمكننا أن نذهب إليه ونتحقق من هذا. كيف يمكنه أن يكون متأكد جدًا من أن أفكارنا عن الخاصيات الأولية مثل الحجم والشكل تشبه خاصيات العالم الواقعي هناك؟

ادعى بارْكِلي بأنه أكثر تناسقًا في تفكيره. خلافًا للُوك، كان بارْكِلي يظن أنه يمكننا إدراك العالم مباشرة. ذلك لأن العالم لا يتكون من شيء غير الأفكار. التجربة كلها هي كل ما يوجد هناك. بتعبير آخر، يوجد العالم وكل شيء فيه في عقول الناس.

كل شيء تجربه أو تفكر فيه - كرسي أو طاولة أو الرقم 3 أو أي شيء آخر، يوجد بالنسبة لبارْكِلي في العقل. الشيء هو مجموعة من الأفكار التي تكونها أنت والناس الآخرين عن هذا الشيء. لا وجود لهذا الشيء خارج العقل الذي يدركه. بدون شخص يرى الأشياء ويسمعها، فهذه الأشياء لا وجود لها، لأن الأشياء لا توجد خارج الأفكار التي يكونها الناس عنها. لخص بارْكِلي هذه الرؤية العجيبة بعبارة: (الوجود يعني الإدراك).

إذن فضوء الثلاجة لا يمكن أن يكون مشغلًا، ولا يمكن للشجرة أن تحدث ضوضاء عندما لا يكون هناك عقل لإدراك ذلك. ربما يبدو هذا هو الخلاصة الواضحة التي يمكن أن نستنتج من فلسفة بارْكِلي اللا مادية. لكن بارْكِلي لم يكن يعتقد بأن الأشياء تظهر وتختفي من الوجود باستمرار. حتى أنه أدرك بأن ذلك سيكون غريبًا. كان يعتقد بأن الإله ضمن استمرارية

وجود أفكارنا. يدرك الإله باستمرار الأشياء في العالم، ولهذا فقد استمرت في التواجد.

تمت الإشارة إلى هذه النظرية في مجموعة أبيات خماسية هزلية كُتبت في بداية القرن العشرين. المجموعة الأولى تبرز غرابة فكرة أن شجرة تتوقف عن التواجد إذا لم يدركها أحد:

كان ذات مرة رجل قال بأنه أكيد
أن الإله يرى الأمر غريب إلى حد بعيد
إذا وجد شجرة
تستمر في الوجود
إذا لم يكن هناك أحد في الحقول

هذا بالتأكيد صحيح. الشيء الأصعب الذي يمكن قبوله من هذه النظرية هو شجرة لن تكون موجودة إذا لم يوجد أحد هناك ليدركها. وها هو الحل، رسالة من الإله:

أيها السيد العزيز، استغرابك غريب
أنا دائمًا موجود في الحقول
ولهذا تستمر الشجرة
في الوجود
ما دام يدركها المخلص لك الإله الموجود

هناك صعوبة واضحة بالنسبة لبارْكلِي هي كيف يمكن أن نكون مخطئين حول أي شيء. إذا كان كل ما لدينا هي الأفكار،

وليس هناك عالم وراءها، كيف يمكن أن نفرق بين الأشياء الحقيقية والأوهام البصرية؟ كان جوابه هو أن الفرق بين ما ندركه كواقع وتخيل الأوهام هو أنه عندما ندرك الواقع، لا تتعارض أفكارنا مع بعضها البعض. مثلاً إذا رأيت مجدافًا في الماء، قد يبدو مائلاً في مستوى الجزء الموجود تحت سطح الماء. بالنسبة لفيلسوف واقعي كلُوك، الحقيقة هي أن المجداف مستقيم س– إنه فقط يبدو مائلاً. بالنسبة لبارْكِلِي، فإننا ندرك مجدافًا مائلاً، لكن هذا سيتعارض مع الأفكار التي سنحصل عليها عندما نصل إلى المجداف تحت الماء ونلمسه. سنكتشف أنه مستقيم.

لم يمض بارْكِلِي كل ساعة من يومه في الدفاع عن لا ماديته. كان له الكثير ما يعمل في حياته غير ذلك. كان إنسانا اجتماعيًا ومحبوبًا، وكان من بين أصدقائه جُونْتان سويفت، كاتب رحلات غاليفر. في حياته المتأخرة، فكر في خطة طموحة لإقامة كلية في جزيرة برمودا وتمكن من جمع الكثير من المال لتنفيذ ذلك. للأسف فشلت هذه الخطة جزئيًا لأنه لم يدرك أن هذه الجزيرة بعيدة ويصعب نقل اللوازم إليها. غير أنه بعد موته سميت جامعة أمريكية في الساحل الغربي باسمه: جامعة بارْكِلِي في كاليفورنيا. كان سبب ذلك قصيدة شعر كتبها عن أمريكا والتي ضمت بيتًا يقول: «غربًا بالطبع ستمتد الإمبراطورية»، وهو بيت أعجب أحد مؤسسي الجامعة.

ربما هناك ما هو أغرب من لا مادية بارْكِلِي وهو حبه لتطوير القطران، وهي مادة تستعمل في الطب الشعبي كانت تصنع

من الماء وصنوبر القطران. كان يفترض أن هذه المادة تعالج كل الأمراض. ذهب بعيدًا في حبه لهذه المادة لدرجة أنه كتب شعرًا عن فعاليتها. على الرغم من أن هذه المادة كانت مشهورة لبعض الوقت وتعالج بعض الأمراض البسيطة لاحتوائها على بعض الخاصيات التطهيرية المعتدلة، فهي ليست اليوم علاجًا مشهورًا. لم تكسب مثالية بارْكِلي شهرة أيضًا.

كان بارْكِلي مثالاً للفيلسوف الذي كان مستعدًا للتمسك برأيه والدفاع عنه إلى أقصى حد، حتى وإن أدى ذلك إلى نتائج تعارض الحس المشترك. كان لڤُوْلتَير، في المقابل، الوقت القليل لهذا النوع من المفكرين، أو فعلاً، لأغلب الفلاسفة.

الفصل السادس عشر



ڤُوْلتَير وغَوتْفرِيد لايبْنِز

أحسن العوالم الممكنة؟

إذا كنت ستخلق العالم، هل ستخلقه على هذا الشكل؟ ربما لا. غير أنه في القرن الثامن عشر حاجج بعض الناس بأن هذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة، «كل ما هو موجود، فهو تام»، صرح بذلك الشاعر الإنجليزي الكسندر بوب (1688 – 1744). كل شيء موجود في هذا العالم هو تام بالطريقة التي يوجد عليها وذلك لسبب: لأنه عمل الإله والإله هو طيب وكلي القدرة. حتى عندما يبدو أن الأمور تسوء، فهي ليست كذلك. المرض والفيضانات والزلازل وحرائق الغابات والجفاف، كلها جزء من غاية إلهية. يكمن خطأنا في تركيزنا على التفاصيل وننسى

الخطة الكبرى. إذا كان بإمكاننا الرجوع إلى الوراء ورؤية الكون من منظور الإله، سندرك كمال العالم، كل شيء يتناسق مع الأشياء الأخرى، وكل شيء يبدو شرًا هو في الحقيقة جزء من هذه الخطة الكبرى.

لم يكن بوب وحيدًا في تفاؤله هذا. استعمل الفيلسوف الألماني غَوتْفرِيد فيلهلم لاَيبْنِز (1646 – 1716) مبدأه للعقل الكافي لاستنتاج نفس الخلاصات. افترض أن هناك بالتأكيد تفسير منطقي لكل شيء. ما دام الإله كاملاً في كل شيء – وهذا جزء من التعريف المتعارف عليه للإله، ينتج عن ذلك أن ذلك الإله كانت له أسباب جيدة لصنع الكون بالشكل الذي يظهر لنا به اليوم. لا يمكن أن يكون قد ترك شيئًا للحظ. لم يخلق عالمًا كاملاً جدًا من كل النواحي – كان هذا سيجعل من العالم إلها، ما دام الإله هو الشيء الأكثر كمالاً في هذا العالم أو أي شيء كامل يمكن أن يوجد. غير أنه خلق أحسن العوالم الممكنة، عالم بأقل قدر ممكن من الشر للوصول إلى هذه النتيجة. من الممكن أنه كان يمكن خلق العالم بطرق أخرى، لكن لم يكن ممكنا أن ينتج أي تصميم لعالم بكثير من الخير وبشر أقل.

لم يكن فرانسوا ماري أرووي، المعرف بڤُولتَير (1694 – 1778) يرى الأمر بهذه الطريقة. لم يكن مرتاحًا للدليل القائل بأن كل شيء على ما يرام. كان متشككًا جدًا في الأنظمة الفلسفية وفي نوع من المفكرين يعتقدون بأن لهم كل الأجوبة عن كل شيء. كان هذا الكاتب المسرحي، والكاتب الساخر والروائي والمفكر

معروفًا في كل أوروبا بآرائه الصريحة. يلتقط أشهر تمثال منحوت له، الذي أنجزه جَان أنطوان هودان، ابتسامته الظاهرة على شفتيه المقبوضتين وقسمات الضحك التي تظهر على وجه هذا الرجل الذكي والشجاع. كان يدافع عن حرية التعبير وعن التسامح الديني لكنه كان مثيرًا للجدل. كان، مثلاً، مشهورًا بقوله: «أنا أكره ما تقول لكني سأدافع عن حقك في قول ذلك حتى الموت»، يعتبر هذا دفاعًا قويًّا عن فكرة أنه حتى الأفكار التي تحتقر تستحق أن تُسمع. لكن في أوروبا القرن الثامن عشر، كانت الكنيسة الكاثوليكية تتحكم بصرامة في ما يمكن نشره. منعت الكثير من مسرحيات ڤُوْلتَير وكُتبِه من النشر وتم حرقها في مكان عام، وحتى أنه سجن في سجن باستيل في باريس لأنه شتم أرستقراطي له نفوذ. لكن لم يمنعه أي شيء من مساءلة الآراء المسبقة والادعاءات التي كان يصدرها من كانوا حوله. يشتهر اليوم أكثر بكتابه كانديد (1759).

في هذه الرواية الفلسفية قوض ڤُوْلتَير تمامًا ذلك النوع من التفاؤل حول الإنسانية والكون الذي عبر عنه بوب ولاَيبْنِز، وقد أنجز ذلك بطريقة ممتعة جدًا لدرجة انه أصبح متصدرًا للمبيعات. حذف ڤُوْلتَير اسمه من غلاف الكتاب مغلبًا الحكمة في ذلك، لو لم يفعل ذلك لكان مصيره السجن مرة ثانية لاستهزائه من المعتقدات الدينية.

كانديد هو الشخصية الرئيسية. يوحي اسمه بالبراءة والصفاء. في بداية الكتاب، كان خادمًا شابًا أحب بجنون ابنة سيده،

كونيجُوْند، لكنه طرد من قصر أبيها عندما ضُبط في وضعية غير أخلاقية معها. انطلاقًا من تلك اللحظة وبحكي سريع وعجائبي، يسافر عبر دول حقيقية وخيالية مع معلمه في الفلسفة الدكتور بانغلوس، حتى يلتقي بحبه المفقود كونيجُوْند مرة ثانية، على الرغم من أنها أصبحت الآن كبيرة في السن وقبيحة المنظر. في مجموعة من المشاهد الكوميدية، يشهد بانغلوس وكانديد أحداثًا فظيعة ويلتقون بمجموعة من الشخوص على طول الطريق، وكانوا كلهم تعرضوا لأحداث مؤسفة.

استعمل قُوْلتَير معلم الفلسفة ليتحدث بطريقة كاريكاتورية عن فلسفة لاَيبْنِز، والتي كان الكاتب يسخر منها في ذلك الوقت. كان كانديد يعتبر كل ما يحدث من كوارث طبيعية، تعذيب حروب واغتصاب والاضطهاد الديني والعبودية تأكيد إضافي بأننا نعيش في أحسن العوالم الممكنة. عوض أن تجعله يعيد النظر في معتقداته، كانت كل كارثة تزيد من اقتناعه بأن كل شيء هو للأحسن وأن الأمور يجب أن تكون كذلك لتنتج الوضعية الأكثر كمالًا. كان قُوْلتَير يستمتع بالكشف عن رفض بانغلوس رؤية ما يوجد أمامه، وكان هذا سخرية من تفاؤل لاَيبْنِز. لكن حتى نكون منصفين للاَيبْنِز، لم يكن رأيه أن الشر لا يحدث، لكن بالأحرى هو أن الشر الموجود كان ضروريًا لخلق أحسن العوالم الممكنة. غير أن سخرية قُوْلتَير توحي بأن هناك شر كثير جدًا في هذا العالم وأنه من الصعب قبول رؤية لاَيبْنِز لأن ما يحدث ليس

أقل شر ممكن لتحقيق أحسن العوالم الممكنة. وجود الكثير من الألم والمعاناة في هذا العالم يقوض تفاؤل لاَيبْنِز.

في سنة 1755، حدثت أسوأ الكوارث الطبيعية في القرن الثامن عشر وهو زلزال برشلونة الذي قتل 20000 شخص. خُربت المدينة البرتغالية ليس فقط بفعل الزلزال بل أيضًا بسبب التسونامي الذي ضرب المدينة لاحقًا، وبفعل الحرائق التي اشتعلت لعدة أيام. خلخلت المعاناة والموت اعتقاد ڤُولْتَير في الإله. لم يستوعب كيف أن حدثًا مثل هذا يمكن أن يكون جزءًا من خطة أوسع. لم يكن لهذه الدرجة من المعاناة أي معنى بالنسبة له. لماذا يسمح إله طيب لهذا بالحدوث؟ ولم يستوعب كذلك لماذا كانت لشبونة الهدف. لماذا هناك وليس في مكان آخر؟

في مشهد أساسي في كتابه كانديد، استعمل ڤُولْتَير هذه المأساة ليهاجم المتفائلين. غرق المسافرون بعد غرق سفينة قرب لشبونة بسبب عاصفة قتلت كل الآخرين الذين كانوا على ظهرها. كان الناجي الوحيد من طاقم السفينة بحار تعمد على ما يبدو قتل أحد أصدقائه. لكن على الرغم من غياب العدل الواضح، استمر بانغلوس في رؤية ما يحدث من خلال منظار التفاؤل. عندما وصل بانغلوس إلى لشبونة التي دمرها الزلزال وقتل عشرات الآلاف من سكانها، استمر بانغلوس في التأكيد بعبثية بأن كل شيء جيد. تسوء الأمور في بقية الكتاب بالنسبة لبانغلوس، حيث أُعدم وشُرح جسده وهو حي بعد أن ضُرب وأُرغم على التجديف في قارب. لكنه على الرغم من ذلك تمسك

برأيه بأن لاَيبْنِز كان محقًا في اعتقاده في وجود تناسق مُعد مسبقًا في كل شيء موجود. لن تزحزح أي تجربة أستاذ الفلسفة المعاند عن معتقداته.

خلافًا لبانغلوس، تغير كانديد تدريجيًا بما عاينه من أحداث. على الرغم من أنه كان في البداية يشارك أفكار معلمه، مع نهاية الكتاب جعلته تجاربه مرتابًا تجاه الفلسفة واختار حلاً أكثر واقعية لمشاكل الحياة.

اجتمع كانديد وكونيجُوْند ثانية وعاشوا مع بانغلوس وشخوص آخرين في ضيعة خاصة. اقترح مارتن، أحد الشخوص، أن الطريقة الوحيدة لجعل الحياة محتملة هي التوقف عن التفلسف والاهتمام أكثر بالعمل. بدأوا لأول مرة بالتعاون وكل منهم بدأ يعمل ما يتقنه. عندما بدأ بانغلوس بتوضيح أن كل شيء حدث في حياتهم كان شرًا ضروريًا للوصول إلى هذه النتيجة السعيدة، قال له كانديد بأن ذلك جيد لكن «يجب أن نشتغل في بستاننا». كان هذه آخر الكلمات في القصة، وكان القصد منها تمرير رسالة قوية للقارئ. كانت هذه الجملة الدرس الأخلاقي للكتاب والنهاية المضحكة لهذه المزحة الطويلة. في مستوى معين داخل القصة، كان كانديد يقول ببساطة أنه يجب عليهم أن يشتغلوا في البستان وأن يبقوا أنفسهم منشغلين بالعمل. غير أنه في مستوى أعمق، الاشتغال في البستان بالنسبة لڤُولتَير هو استعارة عن فعل شيء مفيد بالنسبة للإنسانية عوض الكلام فقط عن مسائل فلسفية مجردة. هذا ما يحتاج الشخوص في الكتاب فعله لكي يزدهروا

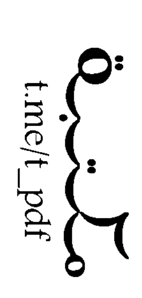
ويكونوا سعداء. لكن ڤُولتَير يلمح إلى أنه ليس كانديد وأصدقاؤه من يحتاجُوْن إلى فعل ذلك، بل يجب علينا جميعًا فعله.

كان ڤُولتَير إنسانا غير عادي بين الفلاسفة بسبب كونه غنيًّا. عندما كان شابًا، كان عضوا في مؤسسة وجدت عيبًا في يانصيب الدولة واشترى الآلاف من الأوراق اليانصيب الرابحة. استثمر أكثر في ذلك وأصبح أكثر غنى. أعطاه هذا استقلالاً ماديًّا مكنه من الدفاع عن القضايا التي يؤمن بها. كان استئصال الظلم أمرًا محبوبًا لديه. من بين أعماله المثيرة للإعجاب دفاعه عن سمعة جَان كلاس الذي عُذب وأُعدم بسبب اتهامه بقتل ابنه. كان واضحًا أن كلاس كان بريئًا: كان ابنه قد انتحر لكن المحكمة تجاهلت الأدلة. تمكن ڤُولتَير من إعادة المحاكمة وتغيير الحكم. لكن ذلك لم ينفع كلاس الذي ظل يدافع عن براءته إلى آخر نفس؛ لكن على الأقل تمت تبرئة المتواطئين معه. هذا ما يعنيه (الاشتغال في البستان) بالنسبة لڤُولتَير.

انطلاقًا من الطريقة التي سخر بها ڤُولتَير من دليل بانغلوس بأن الإله خلق أحسن العوالم الممكنة، يمكن أن نعتقد بأن كاتب كانديد هو ملحد. في الواقع، على الرغم من أن ڤُولتَير لم يكن له الوقت لدين منظم، فقد كان ربوبيًّا، أي يؤمن بأن هناك دليل واضح على وجود الإله وفعل الخلق في الطبيعة. بالنسبة إليه، النظر إلى السماء ليلاً يكفي ليدل على وجود خالق. كان دَيڤيد هِيوْم مرتابًا تجاه هذه الفكرة. كانت انتقاداته لهذا النوع من التفكير مدمرة.

الفصل السابع عشر





دَيڤيد هِيوْم

صانع الساعة الخيالي

أنظر في المرآة إلى إحدى عينيك. بها عدسة تركز الصورة، وقزحية تتكيف مع تغير الضوء وأجفان ورموش لحمايتها. إذا نظرت جانبًا، فإن مقلة العين تدور في محجرها. إنها أيضًا جميلة. كيف يحدث هذا؟ إنها جزء من هندسة مذهلة. كيف يمكن لعين أن تدور بهذه الطريقة بالصدفة فقط؟

تخيل أنك وجدت بالصدفة غابة كثيفة في صحراء خالية من السكان، ووصلت إلى أرض خالية من الأشجار. تتسلق بقايا قصر متداعي، الجدران، السلالم، الممرات والساحات. تعرف أنه لم يوجد هناك بالصدفة. من الأكيد أن شخص ما صممه،

نوع ما من المهندسين. عندما تجد ساعة عندما تكون تتمشى بالخارج، من المعقول جدًا أن تفترض أنها صُنعت من طرف صانع ساعات، وأنها صممت مِنْ أَجْلِ هدف: تحديد الوقت. لم تضع تلك الدوائر المسننة الصغيرة جدًا نفسها في هذا المكان. من الأكيد أن شخصًا ما قد فعل ذلك كله. كل هذه الأمثلة تشير إلى الشيء نفسه: الأشياء التي تبدو وكأنها صممت هي بالتأكيد تقريبًا كذلك.

فكر بعد ذلك في الطبيعة: الأشجار، الورود، الثدييات، الطيور، الزواحف والحشرات وحتى الأميبا. هذه الأشياء تبدو كذلك وكأنها صممت. الكائنات الحية هي أكثر تعقيدًا من أي ساعة. للثدييات أنظمة عصبية معقدة، نظام ضخ الدم في كل الجسد ويتأقلمون مع الأماكن التي يسكنون فيها. من الأكيد أن خالقًا قويًا وذكيًا جدًا خلقهم. من الأكيد أن ذلك الخالق - صانع الساعات الإلهي، أو المهندس الإلهي - هو الإله. أو ذلك ما اعتقده الكثير من الناس في القرن الثامن عشر عندما كان دَيڤيد هِيوْم يكتب أفكاره الفلسفية وحتى اليوم ما زال البعض يعتقد ذلك.

يعرف غالبًا هذا الدليل على وجود الإله بدليل التصميم. كان يبدو أن الاكتشافات الجديدة في العلم في القرن السابع عشر والثامن عشر تؤيد هذا الدليل. كشفت المجاهر تعقد حيوانات المستنقعات الصغيرة، كما أظهرت التيليسكوبات جمال وانتظام

النظام الشمسي ودرب التبّانة. كانت هذه تبدو أيضًا أنها ركبت بدقة متناهية.

لم يكن الفيلسوف السكوتلندي دَيڤيد هِيوْم (1711 - 1776) مقتنعًا بذلك. لأنه كان متأثرًا بلُوك، فقد اهتم بتفسير الطبيعة البشرية وموقعنا في الكون وذلك بالتفكير في الطريقة التي نكتسب بها المعرفة وحدود ما يمكننا أن نتعلمه باستعمال العقل. كان يعتقد، مثل لُوك، بأن مصدر معرفتنا هو الملاحظة والتجريب، وتبعًا لذلك فقد كان مهتمًا بالخصوص بدليل وجود الإله الذي ينطلق من ملاحظة بعض مظاهر العالم.

كان يعتقد بأن دليل التصميم يعتمد على منطق سيئ. ضم كتابه بحث في الطبيعة الإنسانية (1748) جزءًا يهاجم فكرة إثبات وجود الإله بهذه الطريقة. كان هذا الجزء وجزء آخر بينا فيهما أنه ليس معقولاً أبدًا أن نصدق تقارير لشهادات عينية لمعجزات مثيرة جدًا للجدل. في ذلك الوقت كان صعبًا جدًا في بريطانيا مهاجمة المعتقدات الدينية بكل صراحة. كان هذا يعني أن هِيوْم لم يحصل على وظيفة في الجامعة على الرغم من أنه كان من أعظم المفكرين في زمانه. قدم له أصدقاءه نصيحة جيدة عندما قالوا له بأن لا يسمح بنشر كتابه حوارات في الدين الطبيعي الذي يهاجم فيه الأدلة المتعارف عليها في ذلك الوقت عن وجود الإله حتى بعد مماته.

هل يثبت دليل التصميم وجود الإله؟ كان هِيوْم يعتقد أنه لا يثبت أي شيء. لا يقدم هذا الدليل شهادة واضحة وكافية عن

وجوب وجود إله كلي المعرفة والقدرة وكلي الطيبة. ركز معظم فلسفة هِيوْم على نوعية الأدلة التي يمكن أن نقدم للدفاع عن معتقداتنا. يرتكز دليل التصميم على حقيقة أن العالم يبدو وكأنه مخلوق وفق تصميم معين. لكن هِيوْم يجادل بأن كون العالم يبدو وكأنه مخلوق وفق تصميم معين لا يعني أنه فعلاً كذلك، ولا يعني ذلك أيضًا أن الإله هو المصمم. كيف وصل إلى هذه الخلاصة؟

تخيل ميزانا قديمًا يظهر جزئيًّا من وراء ستار. يمكنك فقط رؤية كفة ميزان واحدة. إذا رأيت كفة ترتفع، فكل ما يمكنك معرفته هو أنه كيفما كان الشيء في الكفة الأخرى فهو أثقل من الكفة التي تراها. لا يمكنك أن تعرف لون الشيء ولا شكله ولا إذا كان شيء ما مكتوبًا عليه أو إذا ما كان مغلفًا بفرو أو أي شيء آخر.

نفكر في هذا المثال في الأسباب والنتائج. كجواب عن سؤال: «ما الذي جعل الكفة ترتفع؟»، كل ما يمكنك أن تجيب هو أن السبب كان شيئًا أكثر وزنا في الكفة الأخرى. أنت ترى النتيجة – كفة ترتفع – وتحاول أن تفكر في السبب انطلاقًا مما تراه. غير أنه بدون دليل واضح لا يمكنك أن تعرف أكثر من ذلك. أي شيء ستقول هو مجرد تخمين ولا تملك أي وسيلة تمكننا من معرفة ما إذا كان ما تقوله صحيحًا أم لا إذا لم نتمكن من رؤية ما يوجد وراء الستار. كان هِيوْم يظن أننا نوجد في الوضعية نفسها في ما يتعلق بالعلم من حولنا. نرى آثارًا لأسباب مختلفة ونحاول أن نستنبط التفسير الأكثر احتمالاً

لهذه الآثار. نرى عينا بشرية، شجرة، جبل ويمكن أن يبدوا لنا كأشياء مخلوقة وفق تصميم معين. لكن ماذا يمكننا أن نقول عن خالقهم المحتمل؟ تبدو العين وكأن صانع عيون قد فكر في الطريقة الأمثل لصنعها. لكن لا يعني ذلك أن من صنع العين هو الإله. لما لا؟

نفكر في الإله عادة على أنه يملك القدرات الخاصة الثلاث التي ذكرنا من قبل: كلي القدرة، كلي المعرفة وكلي الطيبة. حتى لو وصلت إلى خلاصة أن شيئًا قويًّا جدًا خلق العين البشرية، فليس لديك دليل واضح على أن هذا الشيء كلي القدرة. يمكن أن توجد في العين عيوب، كما أن النظر قد يسوء: يحتاج العديد من الناس لنظارات ليروا بطريقة صحيحة، مثلاً. هل يمكن أن يكون الإله كلي القدرة وكلي المعرفة وكلي الطيبة هو من خلق العين بهذا الشكل؟ ربما. لكن الدليل الذي نحصل عليه بالنظر إلى العين لا يبين ذلك. إنه يبين في أحسن الأحوال أن شيئًا ذكيًّا جدًا وقويًّا جدًا قد خلقها.

هل يبين ذلك حتى؟ هناك تفسيرات أخرى ممكنة. كيف لنا أن نعرف أن العين خلقت من طرف مجموعة من الآلهة أقل قيمة اشتغلت كلها مع بعضها البعض؟ تُصنع أغلب الآلات المعقدة من طرف مجموعة من الناس. لماذا لا ينطبق نفس الشيء على العين وأشياء طبيعية أخرى، على افتراض أنها رُكبت أصلاً؟ تُبنى أغلب البنايات من طرف مجموعة من البنائين، كيف لعين أن تصنع بطريقة مختلفة؟ أو ربما خلقت العين من طرف إله قديم

مات منذ ذلك الوقت. أو من طرف إله شاب كان يتعلم كيف يصنع العيون بدقة. لأننا لا نتوفر على دليل يمكننا من أخذ قرار في ما يتعلق بهذه القصص المختلفة، لا يمكننا أن نكون متأكدين بالنظر فقط إلى العين على أساس أنها شيء مصنوع لنصدر حكمًا بأنها مخلوقة حتمًا من طرف إله حي ووحيد يملك تلك القدرات التقليدية. كان هِيوْم يعتقد أنه إذا بدأت في التفكير في هذا المجال بوضوح، ستكون محدودًا في الخلاصات التي ستتوصل إليها.

دليل آخر هاجمه هِيوْم هو دليل المعجزات. تدعي أغلب الديانات أن المعجزات حدثت. عاد الناس للحياة بعد الموت، مشوا فوق الماء، وشفوا بطريقة غير متوقعة من الأمراض، التماثيل تتكلم وتبكي، واللائحة طويلة. لكن هل يجب علينا أن نؤمن بأن المعجزات حدثت فقط لأن ناسًا آخرين يقولون لنا بأنهم شاهدوها؟ يعتقد هِيوْم أنه لا يجب أن نصدقهم. كان متشككًا جدًا في هذه الفكرة. إذا قال لك شخص بأن رجلاً شفي بمعجزة من مرض، ماذا يعني ذلك؟ كان هِيوْم يعتقد بأنه ليفسر شيئًا ما على أنه معجزة يجب أن يتحدى قانونا في الطبيعة. قانون الطبيعة هو شيء مثل: «لا أحد يموت ويعود للحياة ثانية» أو (التماثيل لا تتكلم أبدًا) أو «لا أحد يمكنه أن يمشي فوق الماء». هناك قدر كبير من الأدلة على صحة هذه القوانين الطبيعية. لكن إذا شاهد شخص ما معجزة، لماذا يجب علينا أن لا نصدقهم؟ فكر في ما ستقوله إذا دخل إلى الغرفة وهو يجري الآن، وقال لك بأنه شاهد شخصًا يمشي على الماء.

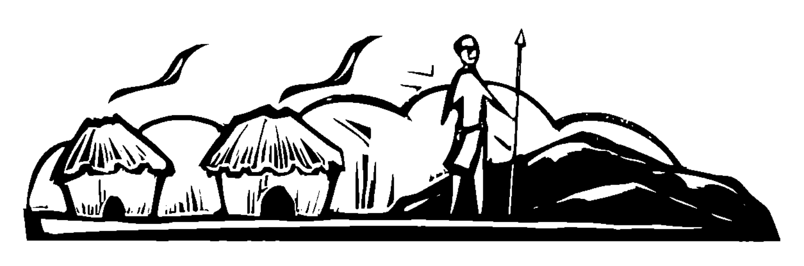
كان رأي هِيوْم هو أن هناك دائمًا تفسيرات أكثر عقلانية لما جرى. إذا قال لك صديقك بأنه رأى شخصًا يمشي فوق الماء، فمن المحتمل دائمًا أنه إما يحاول خداعك، أو أنه كان نفسه مخطئًا، عوض أن يكون فعلاً عاين معجزة. نعرف أن بعض الأشخاص يفرحون لكونهم محط اهتمام، ويكونوا مستعدين للكذب لتحقيق ذلك. إذن هذا تفسير ممكن لما جرى. كما نعرف أنه يمكننا أن نخطئ. نرتكب أخطاء في إدراك ما نرى وما نسمع. غالبًا ما نرغب في الاعتقاد بأننا شاهدنا شيئًا غير عادي، وتجنب التفسيرات الواضحة. حتى اليوم هناك العديد من الناس يقفزون إلى الخلاصة بأن كل صوت غير واضح يصدر في وقت متأخر من الليل هو نتيجة لفعل خارق - الأشباح تتحرك في المكان - عوض أن يكون بسبب فعل عادي صادر مثلاً عن الفئران أو الريح.

على الرغم من أنه انتقد بشكل منتظم الأدلة المستعملة من طرف المتدينين، لم يصرح هِيوْم أبدًا بأنه ملحد. ربما لم يكن ملحدًا. يمكن أن تقرأ آراءه المنشورة على أنها تسلم بوجود ذكاء إلهي وراء كل شيء في هذا الكون، غير أنه لا يمكننا معرفة الكثير عن خاصيات هذا الذكاء الإلهي. عندما نستعمل قدراتنا العقلية بطريقة منطقية، فإنها لا تستطيع أن تقول لنا الشيء الكثير عن هذه الخاصيات التي يملكها الإله. يعتقد بعض الفلاسفة على هذا الأساس أنه محايد دينيًّا غير أنه ربما أصبح ملحدًا في نهاية حياته، على الرغم من أنه لم يعبر عن ذلك من قبل عندما زاره أصدقاؤه في إدنبرا سنة 1776 عندما كان يحتضر، قال لهم

بوضوح بأنه لا ينوي إصدار أي اعتراف وهو على فراش الموت. سأله جيمس بوسويل، مسيحي المعتقد، إذا ما كان قلقًا تجاه ما سيحدث له بعد الموت. أجابه هِيوْم بأنه ليس لديه أي أمل على الإطلاق بأنه سيعيش بعد الموت. قدم الجواب الذي كان سيقدمه أَبِيقوْر (أنظر الفصل 4): لم يكن قلقًا لا فيما يتعلق بالزمن الذي سيأتي بعد الموت ولا الزمن الذي لم يعشه قبل ولادته.

عاصر هِيوْم عددًا من المفكرين البارزين، وقد كان يعرف الكثير منهم بصفة شخصية. كان جَان جَاك رُوسُو واحدًا منهم وقد كان له أثر كبير على الفلسفة السياسية.

الفصل الثامن عشر



جَان جَاك رُوسُو

ولدنا أحراراً

في سنة 1766 ذهب رجل ذو عينين صغيرتين سوداوتين، يرتدي معطف فرو طويل إلى مسرح درُورِي لِيْن بلندن لمشاهدة مسرحية. وكان أغلب الناس بما فيهم الملك جُورْج الثالث مهتمين بهذا الزائر الأجنبي أكثر من اهتمامهم بالمسرحية التي كانت تعرض على خشبة ذلك المسرح. كان يبدو غير مرتاحًا وقلقًا بشأن كلبه الألزاسي الذي وجب عليه تركه في الغرفة المغلقة. لم يكن هذا الرجل يحب كل هذا الاهتمام الذي حظي به وكان سيصبح أسعد في الريف في مكان ما حيث يستمتع بالنظر إلى أزهار برية. لكن من كان هذا الرجل؟ ولماذا أُعجب به الجميع؟

الجواب هو أنه كان المفكر والكاتب السويسري العظيم جَان جَاك رُوسُو (1712 - 1778). كان وصول رُوسُو إلى لندن، بصفته كاتب ذو حس أدبي وفلسفي، بدعوة من دَيفيد هِيوْم، سببًا في ذلك النوع من الهياج وتجمع الناس، مثلما يحدث عندما يأتي مغني بوب مشهور إلى مكان ما في وقتنا الحاضر.

في هذا الوقت كانت الكنيسة الكاثوليكية قد منعت بعض كتبه لاحتوائها على أفكار دينية غير تقليدية. كان رُوسُو يعتقد بأن مصدر الدين الحقيقي هو القلب وأن الطقوس الدينية ليست ضرورية. لكن أفكاره السياسية هي التي جلبت له أكثر المتاعب.

صرح في بداية كتابه العقد الاجتماعي: « ولد الإنسان حرًا وفي كل مكان هو مكبل ». ليس غريبًا أن يحفظ الثوريون هذه الكلمات عن ظهر قلب. وجد ماكسيميليان روبزبير، مثل العديد من قادة الثورة الفرنسية، هذه الكلمات ملهمة. كان الثوار يريدون أن يكسروا القيود التي وضعها الأغنياء في يد الفقراء. كان بعضهم يموت جوعًا في الوقت الذي يستمتع فيه السادة الأغنياء بحياة الرفاهية. كان الثوريون، مثل رُوسُو، غاضبين من سلوك الأغنياء في الوقت الذي لا يجد فيه الفقير ما يسد به رمقه. كانوا يريدون حرية حقًا مع المساواة والأخوة. ولكن من المحتمل أنه لم يكن رُوسُو، الذي مات قبل عقدٍ من ثورة روبزبير، لِيَوافق على إرسال أعدائه إلى المقصلة في جو من الإرهاب. كان قطع رؤوس الأعداء سلوكًا أقرب من حيث الجوهر إلى مكيافيللي منه إلى رُوسُو.

حسب رُوسُو، المخلوقات البشرية هي طيبة بالطبيعة. إذا ما تُركت لحالها وعاشت في غابة، فلن تحدث مشاكل كثيرة. لكن إذا عاشت خارج حالة الطبيعة ووُضعت في المدن فالأمور ستبدأ في التدهور. سيكونون مهووسين بمحاولة السيطرة على الناس الآخرين وكسب اهتمامهم. لهذه المقاربة التنافسية للحياة آثار نفسية كارثية، كما أن اختراع المال يزيد الطين بلة. كان الحسد والطمع نتيجة للعيش معًا في المدن. في حياة البرية، سيكون المتوحش النبيل في صحة جيدة وقوي وفوق كل شيء حرًا، لكن يبدو أن الحضارة تفسد المخلوقات البشرية. كان هذا هو إحساس رُوسُو تجاه حالة الطبيعة غير أنه كان متفائلاً بشأن وجود طريقة أحسن لتنظيم المجتمع، طريقة تسمح للأفراد بالازدهار وبتحقيق الذات، لكنها منسجمة مع رغبة الجميع في العمل لتحقيق نفع عام مشترك.

كان المشكل الذي كان يسعى إلى حله في العقد الاجتماعي (1762) هو إيجاد طريقة للناس ليعيشوا معًا تسمع لكل فرد أن يكون حرًا كما كان خارج المجتمع، وفي نفس الوقت الخضوع لقوانين الدولة. يبدو هذا مستحيل التحقيق. وربما هو كذلك. إذا كان ثمن الخضوع للمجتمع هو العبودية، فذلك ثمن جد مرتفع. لا تتماشى الحرية والقوانين الصارمة التي يفرضها المجتمع، لأن القوانين هي مثل القيود تمنع أنواعًا من الفعل. لكن رُوسُو كان يؤمن بوجود مخرج. كان حله يرتكز على فكرة الإرادة العامة.

الإرادة العامة هي كل ما يخدم المجتمع برمته، الدولة كلها، على أحسن وجه. عندما يختار الناس أن يتوحدوا مِنْ أَجْلِ تحقيق الحماية، يبدو أنه يجب عليهم أن يتخلوا عن بعض الحريات. هذا هو ما فكر فيه لُوك وهُوبْز. من الصعب تصور كيف يمكن للإنسان أن يبقى حرًا حقيقة ويعيش مع ذلك مع مجموعة من الناس - يجب أن توجد قوانين تضبط الكل وقيود على السلوك. لكن رُوسُو كان يعتقد بأنه يمكنك أن تعيش حرًا وفي نفس الوقت تخضع لقوانين الدولة، وعوض أن يكونا في تعارض، يمكن للحرية وللخضوع أن يجتمعًا معًا.

من السهل إساءة فهم ما كان يعنيه رُوسُو بالإرادة العامة. لنقدم مثالاً حديثًا. إذا سألت معظم الناس فسيفضلون عدم أداء ضرائب باهظة. في الوقع، هذه طريقة مألوفة يستعملها السياسيون في الانتخابات: فهم يَعِدون الناس بتخفيض الضرائب. إذا كان للناس أن يختاروا بين دفع 20 في المائة أو 5 في المائة من دخلهم كضريبة، فسيفضلون الضريبة الأقل. لكن هذا ليس بالإرادة العامة. ما يقول الجميع عندما يسألون هو ما قد يسميه رُوسُو بإرادة الجميع. في المقابل فإن الإرادة العامة هي ما يجب عليهم أن يرغبوا فيه، أي ما هو في صالح المجتمع ككل، وليس في خدمة فرد يفكر بطريقة أنانية. عندما نفكر في ما تعنيه الإرادة العامة، يجب علينا أن نتجاهل المصلحة الشخصية والتركيز على مصلحة المجتمع ككل، الصالح المشترك. إذا قبلنا أن تُؤدَّى كلفة الخدمات، تعبيد الطرق مثلاً، من الضرائب ولأن ذلك

في مصلحة المجتمع ككل، فيجب أن نقبل أن تكون الضرائب مرتفعة بالقدر الكافي لتحقيق ذلك. إذا كانت الضرائب منخفضة جدًا، فالمجتمع كله سيعاني. هذه إذن هي الإرادة العامة: يجب أن تكون الضرائب مرتفعة بالقدر الكافي لتحقيق الخدمات.

عندما يجتمع الناس ويشكلون مجتمعًا، فإنهم يصبحون شخصًا واحدًا. كل فرد هو إذن جزء من كل أكبر. الطريقة التي كان يحس رُوسُو أن الأفراد يبقون بها أحرارًا حقًا في المجتمع هي الخضوع للقوانين التي تتطابق مع الإرادة العامة. تكون هذه الأفكار صادرة عن مشرع ذكي. إن مهمة هذا الشخص (المجتمع) هي خلق نظام قانوني يساعد الأفراد على أن يبقوا في انسجام تام مع الإرادة العامة، عوض تحقيق مصالح شخصية أنانية على حساب الآخرين. الحرية الحقيقية بالنسبة رُوسُو هي أن تكون جزءًا من مجموعة تعمل مِنْ أَجْلِ مصلحة المجتمع. يجب أن تتطابق رغباته مع ما هو أحسن بالنسبة للجميع، ويجب على القانون أن يمنعك من التصرف بأنانية.

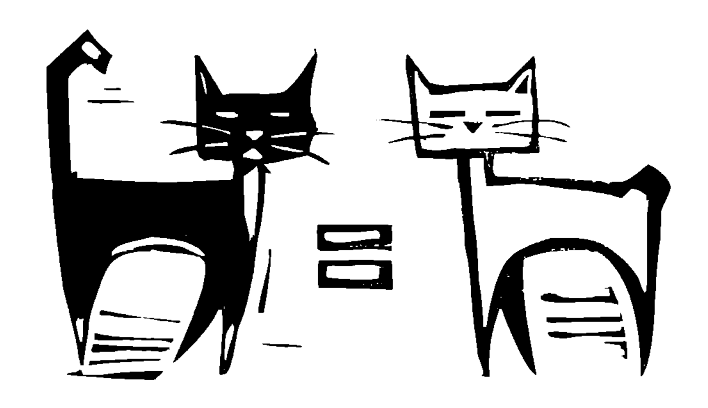
لكن ماذا لو أن شخصًا عارض ما هو الأحسن بالنسبة للمجتمع؟ يمكنك كفرد أن لا ترغب في الاتفاق مع الإرادة العامة. كان رُوسُو جوابًا في هذا الشأن لكنه جواب قد لا يرضي معظم الناس. كان رده المشهور والمقلق شيئًا ما هو أنه إذا لم يعترف شخص ما بأن الخضوع للقانون هو في مصلحة الجماعة، فيجب إذن أن «نرغم هذا الشخص أن يكون حرًا». كان قصده هو أن كل من عارض شيئًا يخدم فعلاً مصلحة الجماعة، وفي نفس

الوقت ربما يعتقد أنه يختار بحرية، فهو ليس بحر حقًا إلّا إذا خضع للإرادة العامة. كيف يمكنك إرغام شخص على أن يكون حرًا؟ إذا أرغمتك على قراءة بقية الكتاب، فلن يكون ذلك اختيار حر قمت به، أليس كذلك؟ من الأكيد أن إرغام شخص على فعل شيء ما يتعارض مع السماح لهم بالقيام باختيار حر.

غير أن هذا بالنسبة رُوسُو ليس تناقضًا. الشخص الذي لا يستطيع أن يحدد الشيء الذي يصح فعله سيكون أكثر حرية إذا أرغمته على الاتفاق مع الإرادة العامة. ما دام كل شخص هو جزء من هذه المجموعة الأكبر، يجب أن تعترف بأنه ما يجب علينا فعله هو الاتفاق مع الإرادة العامة، وليس مع اختياراتنا الفردية الأنانية. حسب هذه الرؤية، عندما نتفق مع الإرادة العامة، نكون أحرارًا حقًا على الرغم من أننا مرغمون على فعل ذلك. هذا هو رأي رُوسُو لكن العديد من المفكرين، مثل جُوْن ستِيوَارْت مِيل (انظر الفصل 24)، بينوا أنه يجب أن تكون الحرية السياسية حرية الفرد في القيام باختيارات الحرة أبعد ما يمكن. فعلاً هناك شيء مشئوم في فكرة رُوسُو الذي احتج على القيود الذي تكبل الإنسان، بتأكيدها على أن إرغام شخص على فعل شيء ما هو نوع من الحرية.

أمضى رُوسُو الكثير من حياته في التنقل من دولة إلى دولة هروبًا من الاضطهاد. في المقابل لم يغادر إيمانِويْل كَانْط مدينته إلّا نادرًا لكن أفكاره انتشرت في كل أوروبا.

الفصل التاسع عشر



إيمانِويْل كَانْط (١)

الواقع الوردي

إذا كنت ترتدي نظارتين بعدستين ورديتين، فإنها ستلون كل مظهر من تجربتك البصرية. ربما قد تنسى أنك ترتدي النظارتين، لكنهما يؤثران على ما يمكنك أن تراه. كان إيمانِويْل كَانْط (1724 – 1804) يعتقد أننا كلنا نفهم العالم حولنا من خلال مصفاة (فِلتر) مثل هذين النظارتين. المصفاة هي العقل البشري. إنها تحدد الطريقة التي نجرب بها كل شيء وتفرض شكلاً على تلك التجربة. كل شيء ندركه يحدث في المكان والزمان، وكل تغيير له سبب. غير أنه بالنسبة كَانْط، لا يحدث ذلك بسبب الوضع الذي يوجد عليه الواقع في الأساس: إنه ناتج عن

تدخل عقولنا. لا ندرك العالم مباشرة كما هو. ولا يمكننا خلع النظارات لنرى العالم كما هو حقًا. نحن ملتصقين بهذه المصفاة وبدونها لن نستطيع إدراك أي شيء. كل ما نستطيع فعله هو الاعتراف بأنها موجودة وفهم الطريقة التي تؤثر بها على تجربتنا للواقع وتلونها.

كان عقل كَانْط منظمًا ومنطقيًّا جدًا. وكذلك كانت حياته. لم يتزوج أبدًا وفرض نظامًا صارمًا على حياته اليومية. حتى لا يضيع الوقت، كان يطلب من خادمه إيقاظه على الساعة الخامسة صباحًا. كان يتناول فطوره بعد ذلك، ثُمَّ يدخن ويشرع في العمل. كان غزير الإنتاج حيث كتب العديد من الكتب والمقالات. ثُمَّ يحاضر بالجامعة. بعد الظهر يقوم بالمشي على الساعة 4: 30 – في نفس الوقت كل يوم – صعودًا ونزولاً للشارع حيث يسكن ثماني مرات بالتحديد. في الحقيقة كان الناس الذين يسكنون في مدينة سكناه كونغسبرغ (كلينينغراد الآن) يضبطون ساعاتهم على توقيت قيامه بالمشي.

مثل معظم الفلاسفة أمضى وقته في محاولة فهم علاقتنا بالواقع. وهو موضوع الميتافيزيقا في جوهره وقد كان كَانْط أعظم الفلاسفة الميتافيزيقيين في التاريخ. كان اهتمامه الخاص مُنصبًا على حدود الفكر، حدود ما يمكن أن نعرفه ونفهمه. كان هذا هاجسًا بالنسبة له. في كتابه نقد العقل الخالص (1781) استكشف هذه الحدود، ذاهبًا في ذلك إلى أقصى حدود الفهم. هذا الكتاب ليس سهل القراءة: وصفه كَانْط نفسه ككتاب جاف وغامض – وقد

كان محقًا في ذلك. القليل من الناس من يدعي فهمه كما أن الكثير من التفكير معقد ومحمل بالمصطلحات الصعبة. تشعرك قراءته وكأنك تصارع عبر أدغال كثيفة من الكلمات التي لن تساعدك على تجنب التيه والخروج إلى نور الشمس. لكن الأفكار الأساسية واضحة بالقدر الكافي لفهمها.

كيف هو الواقع؟ اعتقد كَانْط بأنه لا يمكن أن تكون لدينا صورة تامة عن الكيفية التي توجد عليها الأشياء. لن نعرف أي شيء مباشرة عن ما يسميه عالم الأشياء في ذاتها، أي كل ما يوجد وراء المظاهر. على الرغم من أنه استعمل كلمة الشيء في ذاته في المفرد Noumenon وأحيانًا استعمل الجمع Noumena، لم يكن عليه فعل ذلك (كما أشار إلى ذلك هِيْغِل، الفصل 22): لا يمكننا أن نعرف إذا كان الواقع واحد أو متعددًا. بالمعنى الدقيق، لا يمكننا أن نعرف أي شيء حول العالم في حد ذاته؛ على الأقل لا يمكننا أن تكون لنا معلومات عنه بطريقة مباشرة. غير أنه يمكننا معرفة عالم الظواهر، العالم حولنا، العالم الذي نختبره بحواسنا. أنظر من النافذة، ما يمكنك رؤيته هو عالم الظواهر - العشب، السيارات، السماء، البنايات أو أي شيء آخر. لا يمكنك رؤية العالم في ذاته بل فقط عالم الظواهر الذي يوجد خلف تجربتنا كلها. إنه ما يوجد في مستوى أعمق.

تبعًا لذلك فبعض مظاهر الوجود تبقى دائمًا خارج مجال فهمنا. غير أنه باستعمالنا للتفكير الدقيق سنحصل على فهم أحسن من الفهم الذي نحصل عليه من مقاربة علمية خالصة.

كان السؤال الأساسي الذي حرص كَانْط على أن يجيب عليه في كتابه نقد العقل الخالص هو كالتالي: «كيف يمكن للفكر التركيبي المسبق أن يتكون؟». ربما قد لا يعني هذا السؤال أي شيء بالنسبة لك. يستوجب ذلك بعض الشرح. غير أن الفكرة الأساسية ليست بتلك الصعوبة التي تبدو عليها. أول كلمة يجب شرحها هي (تركيبي). تقابل كلمة (تركيبي) في لغة كَانْط الفلسفية كلمة (تحليلي). تعني كلمة (تحليلي) (صحيح بطريقة بديهية). فمثلاً (كل الرجال ذكور) هي صحيحة بطريقة بديهية. يعني هذا أنه يمكنك أن تعرف أن هذه الجملة صحيحة دون أن يستدعي ذلك التأكد بملاحظة رجال واقعيين. لست بحاجة للتأكد بأنهم فعلاً ذكور، ما دام أنه يستحيل أن يكونوا رجالاً لو لم يكونوا ذكورًا. لا تحتاج إلى بحث ميداني للوصول إلى هذه الخلاصة: يمكنك أن تجلس على الأريكة وتستنبط الحقيقة. إن كلمة (رجال) تحمل معنى الذكورية فيها. الشيء نفسه بالنسبة لهذه الجملة: (الثدييات ترضع صغارها). مرة أخرى لا تحتاج لفحص أي ثدييات للتأكد من أنها ترضع صغارها، لأن ذلك جزء من معنى (ثدييات). إذا وجدت شيئًا يبدو أنها ثديية ولكن لا ترضع صغارها، ستعرف أنه يستحيل أن تكون ثديية. كل المقولات التحليلية هي حول مفاهيم بديهية، ولهذا فهي لا تقدم لنا أي معرفة جديدة. إنها تقدم لنا ما فكرنا فيه عندما حددنا تعريفًا لكلمة ما.

في المقابل تتطلب المعرفة التركيبية التجربة والملاحظة، وتقدم لنا معلومات جديدة، شيئًا ليس مضمنا في معنى الكلمات أو الرموز التي نستعملها. نعرف مثلاً أن مذاق الليمون مر فقط بعد تذوقه (أو لان شخصًا آخر أخبرنا بمذاقه بعد أن تذوقه). ليس بديهيًا أن مذاق الليمون مر، إنه شيء نتعلمه بالتجربة. جملة تركيبية أخرى: (كل القطط لها ذيول). هذا شيء يجب أن تتأكد منه بالبحث عن ما إذا كان صحيحًا أم لا. لا يمكنك أن تحكم قبل أن تنظر وترى. في الواقع، هناك قطط ليست لها ذيول كقطط المانكس، وبعض القطط فقدت ذيولها لكنها بقيت قطط على الرغم من ذلك. مسألة كون القطط لها ذيول هي متعلقة بحقائق في الواقع وليست مسألة تعريف للقط. هذه الجملة مختلفة عن (كل القطط ثدييات)، والتي هي فقط تعريف بديهي، وبالتالي فهي جملة تحليلية.

إذن ما معنى المعرفة التركيبية المسبقة؟ المعرفة المسبقة، كما رأينا، هي معرفة مستقلة عن التجربة. نعرفها مسبقًا عن التجربة، أي قبل أن نختبرها بالتجربة. في القرن السابع عشر والثامن عشر، كان هناك نقاش حول ما إذا ما كنا نعرف أي شيء مسبقًا على الإطلاق. عمومًا كان التجريبيون مثل لُوك يعتقدون أنه لا يمكن. كان العقلانيون مثل دَيْكارْت يعتقدون في إمكانية المعرفة المسبقة. هذا يجعل الأمر يبدو وكأن (مسبق) تعني (تحليلي) (ويعنيان الشيء نفسه بالنسبة لبعض الفلاسفة). لكن بالنسبة كَانْط فهما يعنيان معاني مختلفة. كان يعتقد بأن المعرفة

التي تكشف حقيقة العالم ممكنة، على الرغم من أنها مستقلة عن التجربة. لهذا فقد استعمل تعبير المعرفة التركيبية المسبقة ليصف هذا النوع من المعرفة. مثال على المعرفة التركيبية المسبقة والذي استعمله كَانْط نفسه هو المعادلة الرياضية 7+5=12. على الرغم من أن العديد من الفلاسفة كانوا يعتقدون أن مثل هذه الحقائق هي تحليلية، كان كَانْط يعتقد أننا نستطيع أن نعرف مسبقًا أن 7+5 تساوي 12 (لا نحتاج للتأكد من صحة المعادلة بإجراء فحص للأشياء والقيام بالملاحظات في العالم). غير أنها تقدم لنا في نفس الوقت معرفة جديدة: إنه قول تركيبي.

إذا كان كَانْط محقًا، فهذا تقدم كبير في عالم المعرفة. تعامل قبله الفلاسفة الذين كانوا يبحثون في طبيعة الواقع مع الواقع كشيء يتجاوزنا ويُحدث تجربتنا. ثُمَّ كانت الصعوبة في الطريقة التي يكون الوصول بها إلى الواقع لنقول عنه أي شيء ذي معنى وليس مجرد تخمين. كانت فكرته المتبصرة هي أنه يمكننا، باستعمالنا لقدرة العقل، أن نكتشف خصائص عقولنا التي تلون كل تجربتنا. بجلوسنا على الأرض والتفكير باجتهاد، يمكننا أن نحقق اكتشافات عن الواقع التي يجب أن تكون صحيحة، على الرغم من أنها لم تكن صحيحة بطريقة بديهية: يمكنها أن تكون غنية بالمعلومات. كان يعتقد أنه أثبت بالتفكير المنطقي ما يعادل ما أثبته من أن العالم يبدو لنا بالضرورة وردي اللون. لم يثبت فقط أننا نرتدي نظارات بعدسات وردية، لكنه أيضًا اكتشف

ظلال اللون الوردي المختلفة التي تستعملها هذه النظارات لتحديد معنى تجربتنا.

بعد أن تناول بإسهاب المواضيع الأساسية في ما يتعلق بعلاقتنا بالواقع، حول كانظ اهتمامه إلى الفلسفة الأخلاقية.



الفصل العشرون



إيمانِويْل كَانْط (٢)

ماذا لو فعل الكل ذلك؟

هناك طَرْق على الباب. يقف أمامك شاب من الواضح أنه في حاجة إلى مساعدة. إنه مجروح وينزف. تُدخِله إلى البيت وتساعده، تجعله يحس بالراحة والأمن وتطلب له سيارة إسعاف بالهاتف. من الواضح أن هذا هو أحسن شيء يمكنك فعله. لكن إذا كنت ساعدته فقط لأنك شعرت بالأسى تجاهه، فإن هذا الفعل حسب كَانْط ليس فعلاً أخلاقيًّا على الإطلاق. لا علاقة لتعاطفك بالبعد الأخلاقي لتصرفك. هذا جزء من طبعك ولا علاقة له بالصحيح والخطأ. بالنسبة كَانْط، لا علاقة للأخلاق بما تفعل ولكن بالسبب الذي يدفعك إلى ذلك الفعل. الذين يفعلون

الشيء الصحيح لا يفعلون ذلك فقط بسبب إحساس يشعرون به: يجب أن يُؤَسس القرار على العقل، العقل الذي يبين لك واجبك، بغض النظر عن الشعور الذي قد تحس به.

كان كَانْط يعتقد بأنه يجب أن تبقى المشاعر بعيدة عن الأخلاق. الإحساس بالمشاعر من عدمه هو إلى حد كبير مسألة حظ. يحس بعض الناس بالشفقة والعطف، لكن آخرين لا يحسون بذلك. بعض الناس بخلاء ويجدون صعوبة في الإحساس بالرغبة في العطاء والجود؛ لكن آخرون يستمتعون بتقديم أموالهم وممتلكاتهم لمساعدة الآخرين. غير أن فعل الخير هو شيء ممكن التحقيق بالنسبة لكل إنسان عاقل عبر اتخاذ قرارات خاصة مناسبة. بالنسبة كَانْط إذا ساعدت الشاب لأنك أحسست بأنه من الواجب عليك مساعدته، فذلك فعل أخلاقي. إنه التصرف الصحيح لأنه التصرف الذي يجب على كل إنسان فعله إذا كان في نفس الوضعية.

قد يبدو هذا ربما غريبًا بالنسبة لك. ربما تعتقد بأن الشخص الذي أحس بالأسف تجاه الشاب وساعده قد تصرف بطريقة أخلاقية وربما كان إنسانا أحسن بإحساسه بذلك الشعور. هذا ما كان سيعتقده أَرِسْطو أيضًا (الفصل 2). غير أن كَانْط كان متأكدًا من موقفه. إذا فعلت شيئًا استجابة لمشاعرك فقط فذلك ليس بفعل الخير على الإطلاق. تخيل شخصًا أحس بالتقزز عندما رأى الشاب المجروح لكنه قام بمساعدته استجابة للواجب. سيكون تصرف هذا الشخص، في نظر كَانْط، بكل تأكيد أخلاقيًّا أكثر

من شخص تصرف عن إحساس بالشفقة. وهذا لأن الشخص المتقزز تصرف بكل وضوح انطلاقًا من إحساسه بالواجب، لأن مشاعره في تلك اللحظة كانت ستشجعه على عدم مساعدة الشاب المجروح.

فكر في قصة السامري الطيب. ساعد السامري الطيب رجلاً كان ممددًا على جانب الطريق وبحاجة إلى مساعدة. كل الناس الآخرون مروا ولم يبالوا به. ما الذي جعل السامري يفعل ذلك الفعل الطيب؟ إذا كان السامري ساعد ذلك الرجل لأنه كان يعتقد أن فعله ذاك سيدخله الجنة، فإن ذلك الفعل بالنسبة كَانْط ليس فعلاً أخلاقيًّا على الإطلاق. سيكون تعامل نفعي. كان السامري يقصد به قضاء غاية شخصية، وسيلة لتحقيق هدف ما. إذا كان ساعده شفقة به، فلن يكون فعله أحسن أخلاقيًّا في نظر كَانْط. غير أنه لو ساعده لأنه أحس أن ذلك هو الشيء الواجب الذي كان عليه فعله، وعلى كل من وجد نفسه في ذلك الوضع، فسيوافق كَانْط آنذاك على أن فعل السامري كان فعلاً أخلاقيًّا.

قد تكون نظرة كَانْط للنوايا مقبولة أكثر من نظرته للمشاعر. نحكم على بعضنا البعض من خلال ما نحاول فعله، عوض ما ننجح في فعله فقط. فَكّر في شعورك وأنت تتعرض للصدم من طرف أب كان يسرع لمنع ابنه من الوصول إلى الطريق. قارن هذا بشعورك لو أن شخصًا صدمك عن قصد للمتعة. لم يقصد الأب إيذاءك – لكن الشخص الذي كان يمزح فعل ذلك عن

قصد. لكن وكما سنبين في المثال التالي، ليست النوايا الحسنة كافية لجعل فعلك أخلاقيًّا.

هناك طرق آخر على الباب. تفتح الباب لتجد صديقك المفضل وهو يبدو شاحبًا، مفزوعًا ومقطوع النفَس. يخبرك بأن أحدًا يطارده، ويريد قتله، ويحمل سكينا. تدخله المنزل فيصعد إلى الطابق الأول ليختبئ هناك. بعد لحظات، هناك طرق آخر. كان هذه المرة القاتل المفترض والشر يشع من عينيه. كان يريد معرفة مكان صديقك. هل هو في المنزل؟ هل هو مختبئ في الخزانة؟ أين هو؟ في الحقيقة إنه يوجد بالطابق الأول. لكنك تكذب. تخبره بأنه ذهب إلى الحديقة العمومية. بالتأكيد فأنت قمت بالفعل الصحيح بإرسال القاتل المفترض للبحث عن صديقك في المكان الخطأ. ربما قد تكون أنقذت حياة صديقك. من الأكيد أن هذا فعل أخلاقي، أليس كذلك؟

ليس فعلاً أخلاقيًّا حسب كَانْط. كان كَانْط يعتقد أنه لا يجب عليك أن تكذب أبدًا مهما كانت الظروف، ولو كان ذلك مِنْ أَجْلِ إنقاذ صديقك من قاتل مفترض. فذلك دائمًا غير صحيح من الناحية الأخلاقية. ليست هناك استثناءات ولا أعذار. لأنه لا يمكنك أن تُقر مبدأ عامًا يسمح للكل بالكذب عندما يوافق ذلك مصالحهم. في هذه الحالة، تخيل أنك كذبت، لكن صديقك غادر المنزل فعلاً إلى الحديقة دون أن تعلم بذلك، فستكون مذنبًا لمساعدك المجرم. سيكون خطأك إذا ما تمكن القاتل فعلاً من قتل صديقك في الحديقة.

استعمل كَانْط المثال نفسه. يبين هذا المثال مدى تطرف كَانْط في هذا الموضوع. ليس هنا استثناء في قول الحقيقة أو أي واجب أخلاقي. كلنا ملزمون بطريقة مطلقة على قول الحقيقة أو كما عبر كَانْط عن ذلك، قول الحقيقة أمر إلزامي قطعًا. الإلزام هو أمر. تقابل الأوامر الإلزامية القطعية الأوامر الافتراضية. تأخذ الأوامر الإلزامية الافتراضية شكل: إذا أردت x افعل y. «إذا أردت تجنب السجن، لا تسرق» هو مثال على هذا النوع من الأوامر الافتراضية. الأوامر الإلزامية القطعية هي مختلفة من حيث أنها تأمرك. في هذه الحالة قد يكون الأمر الإلزامي القطعي بكل بساطة: (لا تسرق). إنه أمر يصف لك الواجب. كانت فكرة كَانْط هي أن الأخلاق هي نظام من الأوامر الإلزامية القطعية. واجبك الأخلاقي هو واجبك الأخلاقي مهما كانت الظروف.

كان كَانْط يعتقد بأن ما يجعلنا بشرًا، على خلاف الحيوان، هو قدرتنا على التفكير بطريقة نقدية في اختياراتنا. سنشبه آلات إذا لم نكن نفعل الأشياء عن قصد. سيكون الأمر ذو معنى لو أنك سألت إنسانا: (لماذا فعلت ذلك؟). لا نتصرف فقط بالغريزة، لكن اعتمادًا على العقل. عَبَّر عن ذلك بخلق قواعد تساعدنا على الفعل الأخلاقي. القاعدة هي ذلك المبدأ المضمن في الفعل، وهو الذي يجيب عن السؤال: (لماذا فعلت ذلك؟). كان كَانْط يعتقد بأن القاعدة التي تدعم فعلك هي ما يهم فعلاً. بين بأنه يجب أن تتصرف وفق قواعد قابلة أن يكون لها طابع عام. ليكون شيء ما عامًا، يجب أن ينطبق على الجميع. يعني

هذا فقط أنه يجب عليك فقط فعل الأشياء التي يكون لها معنى لأي شخص يوجد في نفس الوضع التي توجد أنت عليه. اسأل دائمًا هذا السؤال: «ماذا لو فعل الجميع ذلك؟»، لا تجعل نفسك حالة خاصة. كان كَانْط يعتقد أن ما كان يعنيه هذا في الواقع هو أنه لا يجب عليك استعمال الناس بل معاملتهم باحترام، والاعتراف باستقلالية الناس الآخرين وقدرتهم كأفراد على اتخاذ قرارات معقولة لأنفسهم. هذا الاحترام لكرامة وقيمة المخلوقات البشرية الفردية هو أصل النظرية الحديثة لحقوق الإنسان. إنها مساهمة كَانْط في الفلسفة الأخلاقية.

من الأسهل الفهم من خلال مثال. تخيل أنك تملك متجرًا وتبيع الفواكه. عندما يشتري الناس الفواكه فأنت دائمًا لطيف معهم وتسلمهم الصرف الصحيح. ربما تفعل ذلك لأنك تعتقد أن ذلك جيد للتجارة وسيجعل الناس يعودون لصرف أموالهم مرة ثانية في متجرك، لكنك في الواقع تستعملهم لقضاء مآربك. كان كَانْط يعتقد أنه لأنه لا يمكنك أن تفترض بطريقة عقلانية بأن الكل يعامِل الكل بنفس الطريقة، ففعلك ليس بأخلاقي. لكن إذا سلمتهم الصرف الصحيح لأنك تعتقد أن واجبك الأخلاقي يكمن في عدم خداع الآخرين، فسيكون ذلك فعل أخلاقي. لأن هذا التصرف مُؤسس على قاعدة أخلاقية وهي: (لا تخدع الآخرين)، وهي قاعدة يمكن تطبيقها على كل الحالات. خداع الناس هي طريقة لاستعمالهم للحصول على ما تريد. لا يمكن أن

يكون هذا مبدأ أخلاقي. إذا خدع كل الناس بعضهم البعض، فستنعدم الثقة. لن يُصدّق أحد أبدًا ما سيقوله أي شخص لآخر.

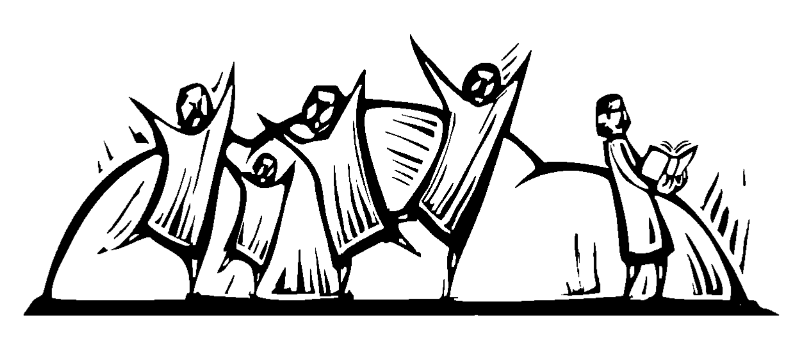
لنتأمل مثلاً آخر استعمله كَانْط: تخيل أنك مفلس تمامًا، ترفض البنوك أن تقرضك المال وليس لك شيء تبيعه، وإذا لم تؤد واجب الكراء، فستُطرد إلى الشارع. فكرتَ في حل. ذهبت إلى صديق وطلبت منه أن يقرضك بعض المال. وعدته بأنك سترجع له المال على الرغم من أنك تعرف أنك لست قادرًا على تأدية ذلك الدين. كان هذا هو ملجأك الأخير ولا تستطيع التفكير في أي حل آخر لأداء واجب الكراء. هل سيكون هذا الحل مقبولاً؟ يبين كَانْط بأن الاقتراض من صديق دون أن نية إرجاع الدين هو بالتأكيد تصرف غير أخلاقي. يمكن للعقل أن يبين لنا ذلك. سيكون الأمر عبثيًّا بالنسبة للجميع أن يقترضوا ويعدوا بإرجاع الدين على الرغم من أنهم يعرفون بأنهم ليسوا قادرين على الوفاء بالوعد. إذن فهذا مرة أخرى ليس بقاعدة عامة. اسأل هذا السؤال: «ماذا لو فعل الجميع ذلك؟»، إذا قدم كل الناس وعودًا كاذبة، فستصبح الوعود بلا قيمة على الإطلاق. إذا لم تكن صحيحة بالنسبة للجميع فلا يمكن أن تكون صحيحة بالنسبة إليك أيضًا. فيجب عليك إذن أن لا تفعل ذلك لأنه خطأ.

هذه الطريقة في التفكير حول الصحيح والخطأ والمؤسسة على التأمل الهادئ عوض المشاعر هي مختلفة عن طريقة أَرِسْطو (الفصل 2). بالنسبة لأَرِسْطو الشخص الفاضل حقًا يملك

دائمًا المشاعر المناسبة ويتصرف بطريقة صحيحة كنتيجة لذلك. بالنسبة كَانْط، تحجب المشاعر المشكل بكل بساطة، لأنها تجعل من الصعب معرفة ما إذا كان الشخص يفعل حقًا الشيء الصحيح أم أنه فقط يتظاهر بفعل ذلك. بتعبير أوضح، جعل كَانْط الأخلاق في متناول كل شخص عقلاني، سواء كانوا محظوظين بالقدر الكافي لتكون لهم مشاعر تحضهم على التصرف بطريقة صحيحة.

تتعارض الفلسفة الأخلاقية كَانْط بشدة مع فلسفة جِيرْمِي بنتهام، وهو موضوع الفصل التالي. حيث يبين كَانْط أن بعض الأفعال هي غير صحيحة مهما كانت النتائج التي تتبعها، يدعي بنتهام أن النتائج، والنتائج فقط، هي التي تهم.

الفصل الحادي والعشرون



جِيرْمِي بَنِثام

السعادة العملية

إذا زرت جامعة لندن، ستفاجأ برؤيتك جِيرْمِي بَنِثام (1748 – 1832) أو بالأحرى ما تبقى من جسده، موضوعًا في صندوق زجاجي. إنه جالس وينظر إليك، وعكازه المفضل الذي كان يسميه (دابل) موضوع على ركبتيه. رأسه مصنوع من الشمع في حين أن رأسه الحقيقي تم تحنيطه ووضعه في صندوق خشبي، غير أنه كان معروضًا لبعض الوقت. كان بَنِثام يعتقد أن جسده الحقيقي – والذي سماه أيقونة ذاتية – سيكون تذكارًا أحسن من تمثال. عندما مات سنة 1832، ترك تعليمات حول طريقة التعامل مع بقايا جسده. لم تصبح هذه الفكرة مشهورة على الرغم من أن جسد لينين حُنط وعُرض في مقبرة خاصة.

كانت بعض أفكاره الأخرى أكثر نفعًا. لنأخذ مثلاً تصميمه لسجن دائري الشكل، البانوبتيكون. وصفه «كآلة لتحويل المحتالين إلى نزهاء». يسمح برج مراقبة في الوسط لبعض الحراس من مراقبة عدد كبير من السجناء دون أن يكونوا على علم إذا ما كانوا مراقبين أم لا. يستعمل هذا التصميم في بعض السجُوْن الحديثة وحتى في عدد من المكتبات. كان هذا واحدًا من بين مشاريعه للإصلاح الاجتماعي.

غير أن نظرية بَنِثام عن الطريقة التي يجب أن نعيش بها هي أكثر أهمية وتأثيرًا. تُعرف هذه النظرية باسم النفعية أو مبدأ السعادة الأكثر أهمية، والتي تعني أن الشيء الصحيح الذي يجب عليك فعله هو أي شيء يجلب لك القدر الأكبر من السعادة. على الرغم من أنه لم يكن الشخص الأول الذي اقترح هذه المقاربة للأخلاق (قام فرانسيس هاتشون بذلك من قبل)، كان بَنِثام أول من قام بشرح الطريقة التي يمكن أن نمارس بها هذا المبدأ على أرض الواقع بالتفصيل. كان يريد إصلاح قوانين إنكلترا حتى تكون قابلة لتحقيق سعادة أكثر.

لكن ما هي السعادة؟ يبدو أن مختلف الناس يستعملون الكلمة بطرق مختلفة. كان لدى بَنِثام جوابًا مباشرًا عن هذا السؤال. يتعلق الأمر بالطريقة التي تشعر بها. السعادة هي المتعة وغياب الألم. إذا كانت المتعة أكثر من الألم من حيث الكمية، فذلك يعني سعادة أكثر. بالنسبة إليه كانت المخلوقات البشرية بسيطة جدًا. تعتبر المتعة والألم الدليلان الأكثر أهمية الذين منحتهما لنا

الطبيعة. نبحث عن التجارب الممتعة ونتجنب التجارب المؤلمة. المتعة هي الشيء الوحيد الجيد في حد ذاته، كل شيء آخر نرغب فيه لأننا نعتقد أنه يجلب لنا المتعة ويساعدنا على تجنب الألم. إذا كنت ترغب في المثلجات فهي ليست شيئًا جيدًا في حد ذاتها، لكن تناولها هو الذي قد يجلب لك بعض المتعة. وبالمثل فأنت تحاول تجنب إحراق نفسك لأن ذلك سيكون مؤلمًا.

كيف لنا أن نقيس السعادة؟ تذكر وقتًا كنت فيه سعيدًا جدًا. كيف كان إحساسك؟ هل يمكن إعطاء رقم كعلامة على مدى سعادتك؟ مثلاً، هل كانت تمثل سبعة أو ثمانية من عشرة؟ مازلت أتذكر رحلة في قارب وهو يغادر مدينة فينيس والتي أحسست أنها تمثل تسعة ونصف أو ربما عشرة عندما أسرع السائق بعيدًا والشمس تغرب فوق المنظر الجميل ورذاذ ماء البحيرة على وجهي وزوجتي وأبناء يضحكون من الإثارة. ليس الأمر سخيفًا أن نكون قادرين على إعطاء علامة تقدر مدى سعادتنا في مثل هذه التجارب. كان بَنِثام يعتقد أن المتعة يمكن أن تقاس كميًّا، وأنه يمكن مقارنة المتع على نفس المقياس وبنفس الوحدات.

كان (حساب فليسيفيك) هو الاسم الذي أعطاه لطريقته لقياس السعادة. أولاً احسب كمية المتعة التي يمكن لفعل ما أن ينتجها، خذ بعين الاعتبار المدة التي يمكن لهذه المتعة أن تدوم، وقوتها وإذا ما كان بإمكانها أن تخلق متع أخرى. ثُمَّ اخصم وحدات الألم التي يمكن لهذا الفعل أن يحدثه. ما سيبقى

لديك هو قيمة السعادة لهذا الفعل. كان بَنِثام يسمي هذه القيمة (نفعية) الفعل لأنه كلما جلب فعل ما سعادة أكثر كلما كان أكثر فائدة للمجتمع. ولهذا تعرف النظرية بالنفعية. قارن بين نفعية فعل ما ونتائج أفعال أخرى، واختر الفعل الذي يجلب سعادة أكثر. إنها عملية بسيطة.

لكن ما هي مصادر المتعة؟ من الأكيد أنه من الأحسن أن تحصل على المتعة من شيء يرفع من القيمة والمعنويات مثل قراءة الشعر عوض الحصول عليها من ممارسة لعبة أطفال أو تناول المثلجات، أليس كذلك؟ ليس الأمر كذلك بالنسبة بَنِثام. لا تهم الطريقة التي نحصل بها على المتعة على الإطلاق. بالنسبة إليه فحلم اليقظة لا يختلف عن مشاهدة مسرحية لشكسبير إذا كانوا يجعلونك سعيدًا بطريقة متعادلة. استعمل مثال لعبة الدبوس (بوشبن) – وهي لعبة شعبية بليدة في زمانه – والشعر. كل ما يهم هو كمية المتعة المحصل عليها. إذا كانت المتعة متكافئة فقيمة الفعلين هي نفسها متكافئة: من وجهة نظر نفعية فلعبة البوشبن هي مساوية أخلاقيًّا لقراءة الشعر.

بين إيمانِويْل كَانْط كما رأينا في الفصل 20 أنه لنا واجبات كـ (لا تكذب أبدًا) والتي تطبق في جميع الوضعيات. غير أن بَنِثام كان يعتقد أن صحة أو خطأ ما نفعل تحدده النتائج المحتملة لهذا الفعل. قد تختلف هذه الأحكام حسب الظروف. ليس الكذب دائمًا بفعل خاطئ. هناك أوقات يصبح فيها الكذب الشيء الصحيح الذي يجب عليك فعله، ويصبح في هذه الظروف

فعلاً أخلاقيًّا ويصبح الكذب مصدرًا لمتعة أكثر إذا استُعمِل في محله. إذا سألك صديق عن ما إذا كان سروال جين الجديد الذي يلبسه جذابًا أم لا، سيجيب شخص يتبنى منطق كَانْط بكل صدق حتى لو كان ما سيقول لن يعجب الصديق؛ أما الشخص النفعي فسيحاول أن يجد طريقة تجعل الصديق سعيدًا ولو باختلاق كذبة ما. إذا كانت الكذبة ستمنحه بعض السعادة فالكذبة هي رد الفعل المناسب.

كانت النفعية نظرية متطرفة بالنسبة لنهاية القرن الثامن عشر. أحد أسباب هذا التطرف هو أن سعادة كل الناس هي متساوية في قياس السعادة، وحسب تعبير بَنِثام: «الكل يحسب كواحد ولا أحد يحسب أكثر من واحد». لا يحصل أي أحد على تعامل خاص. لا تقدر سعادة الأرستقراطي بأكثر من سعادة العامل الفقير. لم يكن المجتمع منظمًا بهذه الطريقة في ذلك الزمان. كان للأرستقراطيين تأثير كبيرًا على الكيفية التي كانت تُستغل بها الأرض، وكان لبعضهم حق وراثي في مقعد بمجلس اللوردات وفي اتخاذ قرارات تتعلق بقوانين إنكلترا. لم يكن مفاجئًا أن يشعر بعضهم بالارتياح تجاه تركيز بَنِثام على المساواة. ربما كان اعتقاده بأن الحيوانات قادرة على الإحساس بالسعادة العنصر الأكثر تطرفًا في نظريته. لأن الحيوانات كانت قادرة على الإحساس بالسعادة والألم، كانت الحيوانات جزءًا من معادلة السعادة بالنسبة له. لا يهم إن كانت الحيوانات لا تفكر ولا تتكلم (على الرغم من أن كَانْط يعتقد العكس). لم يكن

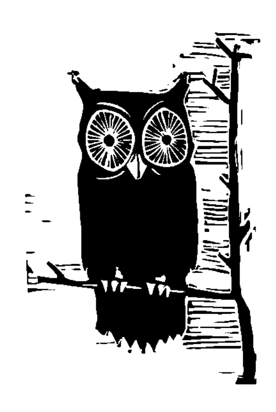
هذين العنصرين خاصيتين مناسبتين للتضمين الأخلاقي من منظور بَنِثام. ما يهم هو قدرتهم على الإحساس بالسعادة والألم. هذا هو أساس العديد من الحملات في الوقت الحاضر مِنْ أَجْلِ رفاهية الحيوان، مثل تلك التي قام بها پِيتَر سِنْغَر (الفصل 40).

لسوء حظ بَنِثام، كان هناك نقد مدمر لمقاربته العامة لتركيزها على كون كل الأسباب الممكنة للمتعة هي متساوية من حيث القيمة. اخترع روبرت نوزيك (1938 - 2002) هذه التجربة الذهنية. تخيل آلة للواقع الافتراضي توهمك بعيش حياتك دون ألم ولا معاناة. عندما تُشغِّل الآلة لبعض الوقت، ستنسى أنك لم تعد تعيش الواقع مباشرة وسيسيطر عليك الوهم تمامًا. ستنتج لك هذه الآلة مجموعة مختلفة من التجارب الممتعة. إنها مثل مولد للأحلام - يمكن لهذه الآلة أن تجعلك تتخيل مثلاً أنك تسجل هدف الفوز بكأس العالم، أو أنك تستمتع بعطلة أحلامك. كل شيء سيمنحك المتع الكبرى سيتم تحفيزه. والآن ما دامت هذه الآلة ستمنحك أقصى الحالات الذهنية للهناء، فيجب حسب تحليل بَنِثام تشغيلها مدى الحياة. ستكون أحسن وسيلة للزيادة في السعادة ولنقصان الألم إلى أقصى الدرجات. غير أن بعض الناس على الرغم من أنهم قد يستمتعون بتجريب هذه الآلة أحيانًا، سيرفضون تشغيلها مدى الحياة لأنهم يُقدّرون أشياء أخرى غير حالات ذهنية للسعادة. ما يبدو أن هذا المثال يبينه هو أن بَنِثام كان مخطئًا في تأكيده على أن كل الطرق التي تنتج كميات متساوية من السعادة هي متساوية القيمة، وأنه ليس

كل الناس مهتمين فقط بتحقيق أقصى قدر من السعادة وخفض الألم إلى أقصى درجة. كان هذا موضوع اهتم به تلميذه وناقده في ما بعد، جُوْن ستِيوَارْت مِيل.

كان بَنِثام منغمسًا في مشاكل عصره، متحمسًا لإيجاد حلول للمشاكل الاجتماعية التي كانت تحيط به. كان جُورْج فيلهلم فرِيدْرِيك هِيْغِل يدعي أنه قادر على الرجوع إلى الوراء والحصول على نظرة عامة للمسار الكامل للتاريخ البشري، تاريخ يتكشف حسب بنية يستطيع فهمها فقط المفكرون المثيرون للإعجاب.

الفصل الثاني والعشرون



جُورْج ف. ف. هِيْغِل

بومة مينرفا

« تطير بومة مينرفا فقط بعد الغروب ». كانت هذه نظرة جُورْج ف. ف. هِيْغِل. لكن ماذا تعني هذه القولة؟ في الواقع فهذا السؤال (ماذا تعني؟) هو السؤال الذي يطرحه قراء أعمال هِيْغِل على أنفسهم كثيرًا. كتابه صعبة جدًا لأنها جزئيًا، مثل كتابة كَانْط، تستعمل لغة في الأغلب تجريدية جدًا وغالبًا تستعمل كلمات اختلقها هو نفسه. لا أحد، وربما هِيْغِل نفسه، فهمها كلها. القولة حول البومة هي من أسهل الأجزاء التي يمكن تفسيرها. إنها طريقة لقول أن الحكمة والفهم في مسار التاريخ البشري سيتحققون فقط في عصر متأخر، عندما ننظر إلى الوراء

لنرى ما حدث في الماضي، كما نفعل عندما نفكر في أحداث يوم كامل قبل حلول الليل.

مينرفا هي الإله الروماني للحكمة، وكانت مرتبطة رمزيًا بالبومة الحكيمة. تبقى مسألة ما إذا كان هِيْغِل ذكيًا أم غبيًا مثيرة للنقاش، لكنه من الأكيد أنه كان مؤثرًا. كان رأيه بأن التاريخ يتكشف بطريقة معينة ملهمًا كَارْل مِارْكس (الفصل 27)، وبالتالي غَيّر بالتأكيد ما حدث في التاريخ، لأن أفكار مِارْكس حركت ثورات في أوروبا في بداية القرن العشرين. غير أن هِيْغِل أزعج العديد من الفلاسفة، حتى أن بعض الفلاسفة تعاملوا مع أعماله كمثال عن المخاطرة باستعمال كلمات بطريقة غير دقيقة. وصل الأمر بِرتْرَانْد رَاسِل (الفصل 31) إلى حد احتقار أعماله، كما أن أ. ج. آير (الفصل 32) صرح بأن أغلب جمل هِيْغِل لا تعني شيئًا على الإطلاق. بالنسبة لآير، فكتابة هِيْغِل لا تتعدى أن تكون نثرًا بدون معنى وبالتالي أقل جاذبية. غير أن آخرين مثل پِيتَر سِنْغَر (الفصل 40) وجدوا عمقًا كبيرًا في فكره وبينوا أن كتابته هي صعبة لأن الأفكار التي كان يتصارع معها هي أفكار أصلية وصعب استيعابها.

ولد هِيْغِل في ستوتغارت، في ما يسمى الآن ألمانيا، سنة 1770، ونشأ في عصر الثورة الفرنسية عندما تم القضاء على الملكية وإنشاء جمهورية جديدة. كان يسمي الثورة (فجر مجيد) وزرع مع زملائه الطلبة شجرة لتمجيد هذه الأحداث. أثر فيه زمن اللا استقرار السياسي والتحول الجذري في ما تبقى من حياته. كان

هناك إحساس حقيقي بأنه يمكن قلب الافتراضات الأساسية وأن ما كان يبدو ثابتًا كل الوقت لم يكن ضروريًا أن يكون كذلك. من بين النتائج الفكرية لهذا الإحساس هو أن الطريقة التي نكون بها الأفكار التي لدينا هي مرتبطة مباشرة مع الزمن التي نعيش فيه ولا يمكن استيعابها دون الرجوع إلى سياقها التاريخي. كان هِيْغِل يعتقد أنه تم الوصول إلى مرحلة أساسية في التاريخ خلال الزمان الذي كان يعيش فيه. على المستوى الشخصي فقد تحول من شخص مغمور إلى شخص مشهور. بدأ حياته العملية كمدرس خاص لعائلة غنية قبل أن يصبح مديرًا لمدرسة. عُيّن أخيرًا كأستاذ بجامعة برلين. كانت بعض كتبه في الأصل تدوينات لمحاضرات كتبها لمساعدة طلبته على فهم فلسفته. مع اقتراب وفاته، أصبح الفيلسوف الأكثر شهرة وشعبية في زمنه. هذا شيء مدهش فعلاً إذا ما قارنا ذلك بصعوبة كتاباته. غير أن مجموعة من طلبته المتحمسين كرسوا أنفسهم لفهم ومناقشته محاضراته وتبيان أبعادها السياسية والميتافيزيقية.

على الرغم من تأثره الكبير بفلسفة كَانْط (الفصل 19)، رفض هِيْغِل رأي كَانْط بأن عالم الأشياء في حد ذاتها يوجد وراء عالم الظواهر. عوض قبول فكرة أن الأشياء في حد ذاتها توجد خارج الإدراك الذي هو السبب المحدث لتجربتنا، خَلص إلى فكرة أن العقل الذي يشكل الواقع هو الواقع نفسه. لا يوجد شيء وراءه. غير أن هذا لم يكن يعني أن الواقع يبقى في وضعية ثابتة. بالنسبة هِيْغِل، كل شيء يوجد في عملية تحول، ويأخذ

ذلك التحول شكل زيادة تدريجية في الوعي بالذات، وتكون هذه الحالة من الوعي بالذات مثبتة بالفترة التاريخية التي نعيش فيها.

تخيل أن التاريخ كله هو عبارة عن قطعة كبيرة من الورق مطوية على نفسها. لا نستطيع فعلاً فهم ما يوجد بداخلها حتى تُفتح وينكشف لنا محتواها كله. ولا يمكننا أن نعرف أيضًا ما كُتب في الطرف الأخير من الوقت حتى تُفتح عن كاملها. هناك بنية مضمنة في الطريقة التي ينكشف بها محتوى الورقة. بالنسبة هِيْغِل، يسعى الواقع باستمرار نحو هدف فهم نفسه. ليس التاريخ بأي معنى من المعاني عشوائي. إنه يتجه نحو اتجاه ما. عندما ننظر إلى التاريخ فإننا نلاحظ أنه يتكشف بهذه الطريقة. عندما تسمع هذه الفكرة للمرة الأولى تبدو لك غريبة. أعتقد أن أغلب الناس الذين يقرأون هذا الكتاب لن يتقاسموا نفس الرأي مع هِيْغِل. بالنسبة لأغلب الناس التاريخ هو أقرب إلى وصف هنري فورد: « شيء ملعون يتبعه شيء ملعون آخر ». إنه مجموعة من الأشياء التي تحدث دون وجود أي مخطط شامل لها. يمكننا أن ندرس التاريخ ونكتشف الأسباب المحتملة للأحداث ونتوقع شيئًا مما سيقع في المستقبل. لكن ذلك لا يعني أن التاريخ له بنية حتمية بالطريقة التي تخيلها هِيْغِل. لا يعني ذلك أن التاريخ متوجه في اتجاه معين، ولا يعني بالتأكيد أن التاريخ يصبح تدريجيًا واع بذاته.

لم تكن دراسة التاريخ فرعًا مستقلاً عن باقي فلسفته، لقد كانت جزءًا منها. التاريخ والفلسفة مترابطان بالنسبة له. كل شيء

يتجه إلى شيء أحسن. لم تكن هذه فكرة أصيلة. تشير الأديان دائمًا إلى أن التاريخ يتجه نحو نهاية ما، مثل المجيء الثاني للمسيح. كان هِيْغِل مسيحيًّا لكن تفسيره لم يكن أرثوذوكسيًّا. بالنسبة له لم تكن النهاية هي المجيء الثاني للمسيح. كان للتاريخ في نظره هدف نهائي، نهاية لم يقدرها أحد من قبل. إنه المجيء التدريجي والحتمي للوعي الذاتي للروح عبر مسيرة العقل.

لكن ما هي الروح؟ وماذا يعني أن تكون الروح واعية بذاتها؟ الكلمة الألمانية المقابلة لروح هي Geist. يختلف الباحثون حول معناها الدقيق؛ يفضل بعضهم ترجمتها بالعقل. يبدو أن هِيْغِل يعني بها شيئًا مثل العقل الواحد للإنسانية. كان هِيْغِل مثاليًّا – كان يعتقد أن الروح أو العقل أساسي ويعبر عن ذاته في العالم المادي (في المقابل يعتقد الماديون بأن المادة هي الأساس). أعاد هِيْغِل حكي تاريخ العالم من خلال الزيادات التدريجية في الحرية الإنسانية. ننتقل من الحرية الفردية، بالنسبة للبعض وليس للكل، إلى عالم حيث كل الناس أحرار في دولة سياسية تسمح لهم بالمساهمة في ذلك المجتمع.

كانت الطريقة التي يمكن أن نتطور بها في اعتقاده هي الصدام بين فكرة ونقيضها. كان هِيْغِل يعتقد أنه بإمكاننا الاقتراب أكثر من الحقيقة بإتباع هذه المنهجية الجدلية. أولًا يقدم شخصًا ما فكرة – أطروحة. تُقابَل هذه الفكرة بضدها، أي فكرة تنازع الفكرة الأولى – أي نقيضها. من صدام هذين الموقفين يبرز موقف ثالث، والذي يأخذ يعين الاعتبار الموقفين معًا – تركيب

من الاثنين ثُمَّ بعد ذلك، تبدأ غالبًا العملية من جديد. يصبح التركيب أطروحة ويُقدم نقيض ضدها. تستمر هذه العملية حتى يحدث فهم تام للروح لذاتها.

يتضح أن الدافع الأساسي للتاريخ هو فهم الروح لحريتها الخاصة. تتبَّع هِيْغِل هذا التطور من هؤلاء الذين عاشوا تحت الحكم الاستبدادي في الصين والهند القديمتين، الذين لم يكونوا يعرفوا أنهم أحرار، إلى الزمن الذي كان يعيش فيه بالنسبة لهؤلاء المشرقيين فقط الحاكم القوي جدًا هو من يتمتع بالحرية من وجهة نظر هِيْغِل، لم يكن الناس العاديون واعين بالحرية على الإطلاق. أما الفرس القدامى فقد كانوا راقين شيئًا ما في تقديرهم للحرية. هُزِموا من طرف الرومان لكن ذلك جلب التقدم. كان الإغريق ثُمَّ بعدهم الرومان أكثر وعيا بالحرية من أولئك الذين سبقوهم. غير أنهم احتفظوا بالعبيد. يبين هذا بأنهم لم يكونوا يُقدِّرون تمامًا بأن الإنسانية كلها يجب أن تكون حرة، وليس فقط الغني والقوي. في مقطع مشهور من كتابه فينومينولوجيا الروح يناقش الصراع بين سيد وعبد. كان السيد يريد أن يُعترف به كفرد واع بذاته وكان يحتاج إلى العبد ليصل إلى ذلك لكن دون الاعتراف بحق العبد في الحصول على الاعتراف هو كذلك. تودي هذه العلاقة غير المتكافئة إلى الصراع الذي ينتهي بموت أحدهما. لكن هذا الأمر محبط. في الأخير توصل السيد والعبد إلى ضرورة الاعتراف ببعضهما البعض، وبضرورة احترام حرية بعضهما البعض.

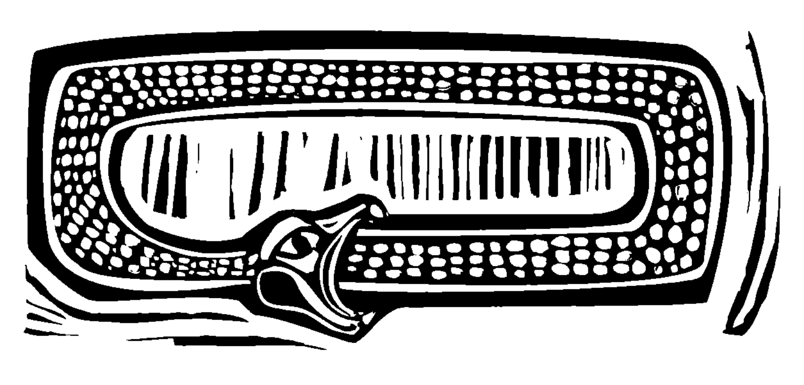
غير أن هِيْغِل يدعي أنه فقط مع المسيحية، التي شجعت على الوعي بالقيمة الروحية، أصبحت الحرية الحقيقية ممكنة. في زمنه حقق التاريخ هدفه. أصبحت الروح واعية بحريتها، والمجتمع منظم حسب مبادئ العقل. كان هذا مهما بالنسبة إليه: تظهر الحرية الحقيقية فقط في مجتمع منظم بطريقة صحيحة. ما يقلق العديد من قراء هِيْغِل هو ذلك النوع من المجتمع المثالي الذي تخيله هِيْغِل، حيث يُرغم هؤلاء الذي لا يندمجُوْن في رؤية المنظمين الأقوياء للمجتمع على قبول هذه الطريقة العقلانية للحياة باسم الحرية. سيرُغمون على أن يكونوا أحرارًا كما قال رُوسُو (الفصل 18).

اتضح أن النتيجة النهائية هي وصول هِيْغِل نفسه إلى وعي ببنية الواقع. يبدو أنه اعتقد أنه حقق ذلك في الصفحات الأخيرة من أحد كتبه. كانت هذه هي المرحلة التي فهمت فيها الروح نفسها لأول مرة. مثل أَفلَاطوْن (الفصل 1) أعطى هِيْغِل للفلاسفة وضعًا خاصًا. كان أَفلَاطوْن يعتقد، كما ستتذكرون، بأن الفلاسفة – الملوك هم من يجب أن يحكموا جمهوريته الفاضلة. في المقابل اعتقد هِيْغِل أنه يمكن للفلاسفة أن يحققوا نوعًا خاصًا من فهم الذات الذي هو في نفس الوقت فهما للواقع ولكل التاريخ، وهي طريقة أخرى لتفعيل الكلمات المكتوبة على معبد أبولو بدلفي: (اعرف نفسك). كان يعتقد أن الفلاسفة هو من توصلوا إلى إدراك الانكشاف التام لبنية الأحداث الإنسانية. إنهم يُقدِّرون الطريقة التي أنتج بها الديالكتيك نهضة تدريجية. فجأة

أصبح الكل واضحًا لهم وغاية كل التاريخ الإنساني أصبحت واضحة. دخلت الروح مرحلة جديدة من فهم الذات. إنها النظرية على كل حال.

كان هِيْغِل معجبين كثر، لكن أرثر شُوبِنهَاوَر لم يكن واحدًا منهم. كان يعتقد أن هِيْغِل لم يكن فيلسوفًا على الإطلاق لأنه كان يفتقد الجدية والنزاهة في الطريقة التي تناول بها الموضوع. في رأي شُوبِنهَاوَر كانت فلسفة هِيْغِل كلام فارغ. وصف هِيْغِل شُوبِنهَاوَر بدوره كـ (مقرف وجاهل).

الفصل الثالث والعشرون



آرْثَر شُوبِنهَاوَر

نظرات خاطفة للواقع

الحياة مؤلمة وقد كان من الأحسن أن لا نولد أصلاً. قليل من الناس من يتبنون هذه الرؤية التشاؤمية، لكن آرْثَر شُوبِنهَاوَر (1788 – 1860) كان يتبناها فعلاً. بالنسبة له، كلنا محاصرون في دائرة عبثية تبدأ برغبة أشياء معينة ثُمَّ الحصول عليها ثُمَّ الرغبة مجددًا في أشياء أخرى. لا تنتهي هذه الدائرة إلّا بالموت. كلما بدا لنا أننا حصلنا على شيء نرغب فيه، حتى تبدأ الرغبة مجددًا في شيء آخر. يمكن أن تظن أنك ستشعر بالقناعة إذا كنت مليونيرًا، لكن قناعتك لن تستمر طويلاً. سترغب في شيء لا تتوفر عليه. كل المخلوقات البشرية هي على هذه الحال. لا نحس أبدًا

بالرضا، ولن نتوقف أبدًا عن الرغبة في أشياء لا نملكها. كل هذه الأشياء هي محبطة فعلاً.

غير أن فلسفة شُوبِنهَاوَر ليست كلها بنفس السوداوية. كان يعتقد أنه إذا استطعنا فقط أن ندرك الطبيعة الحقيقية للواقع، فسوف نتصرف بطريقة مختلفة جدًا، ويمكننا أن نتجنب المظاهر الأكثر كآبة للوضعية الإنسانية. كانت رسالته قريبة من رسالة بوذا. كان بوذا يعلم الناس بأن الحياة تنطوي على المعاناة، لكن في مستوى أعمق لا يوجد شيء اسمه (الـذات): إذا أدركنا ذلك، فإمكاننا أن نصل إلى التنوير. لم يكن التشابه محض صدفة. خلافًا لمعظم الفلاسفة الغربيين، قرأ شُوبِنهَاوَر كثيرًا من الأعمال الفلسفية الشرقية. حتى أنه كان يحتفظ بتمثال لبوذا على مكتبه، بجانب تمثال لمفكر عظيم آخر وهو إيمانويْل كَانْط.

خلافًا لبوذا كَانْط، كان شُوبِنهَاوَر إنسانا كئيبًا، صعبًا وغير ناجح. عندما حصل على عمل كمحاضر بجامعة برلين، حرص على أن تكون محاضراته في نفس وقت محاضرات هِيْغِل. لم تكن فكرة جيدة لأن هِيْغِل كان يتمتع بشعبية كبيرة بين الطلبة. لم يحضر أي طالب تقريبًا لمحاضرات شُوبِنهَاوَر، في حين أن قاعة محاضرات هِيْغِل كانت مملوءة. غادر شُوبِنهَاوَر بعد ذلك الجامعة وعاش طيلة حياته بالمال الذي ورثه عن عائلته.

نشر أهم كتاب له، العالم كإرادة وتمثل، في سنة 1818، لكنه استمر في الاشتغال عليه لسنوات حتى أعاد نشره في نسخة ضخمة سنة 1844. كانت فكرة الكتاب الأساسية بسيطة جدًا.

للواقع مظهران. يوجد الواقع كإرادة وكتمثل معًا. الإرادة هي تلك القوة العمياء النشيطة التي توجد في جميع الأشياء الموجودة. إنها الطاقة التي تجعل النبات والحيوانات ينمو، وهي كذلك القوة التي تجعل المغناطيس يشير إلى الشمال، وهي التي تجعل الكريستال يتكون في مركبات كيميائية. إنها توجد في كل جزء من الطبيعة. أما المظهر الآخر فهو العالم كتمثل، وهو العالم كما نعيشه.

العالم كتمثل هو بناء الواقع في عقولنا. إنه ما كان يسميه كَانْط عالم الظواهر. أنظر حولك. ربما سترى أشجارًا أو سيارات أو أشخاصًا من نافذتك، أو هذا الكتاب أمامك؛ ربنا قد تسمع زقزقة عصافير أو صوت سيارات أو ضجيجًا من غرفة أخرى. ما تعيشه عبر حواسك هو العالم كتمثل. هذه طريقتك لمنح معنى لكل شيء، وتتطلب وعيك. ينظم عقلك تجربتك لتخلق معنى منها كلها. العالم كتمثل هو العالم الذي نعيش فيه. غير أنه، مثل كَانْط، كان يعتقد أن هناك واقعًا أعمق يوجد وراء تجاربك أيضًا، وراء عالم الظواهر. سمى كَانْط ذلك العالم بعالم الأشياء في حد ذاتها، وكان يعتقد بأنه لا يمكننا الوصول إليه. بالنسبة شُوبِنهَاوَر، يشبه العالم كإرادة شيئًا ما عالم الأشياء في ذاتها كَانْط، على الرغم من وجود بعض الاختلافات.

كتب كَانْط عن عوالم الأشياء في ذاتها Noumena الذي هو جمع Noumenon، عالم الأشياء في ذاته. كان يعتقد أن الواقع يمكن أن يكون أكثر من جزء واحد. ليس واضحًا كيف وصل

كَانْط إلى هذه الحقيقة ما دام لا يمكننا الوصول إلى عالم الأشياء في ذاتها. في المقابل أكد أنه لا يمكننا أن نفترض أن عالم الأشياء في ذاتها مقسم على الإطلاق، لأن ذلك النوع من التقسيم يتطلب الزمان والمكان الذين كان كَانْط يعتقد أن عقل الإنسان هو الذي يوفرها عوض أن يكونا موجودين في الواقع نفسه. عوضًا عن ذلك، وصف شُوبِنهَاوَر العالم كإرادة كقوة واحدة، موحدة وبدون وجهة معينة وراء كل شيء موجود. يمكننا أن نلقي نظرة خاطفة على العالم كإرادة من خلال أفعالنا ومن خلال تجربتنا للفن.

أوقف القراءة وضع يدك على رأسك. ماذا حدث؟ شخص ما يراك ترفع يدك وتضعها على رأسك. يمكنك رؤية ذلك أيضًا إذا نظرت إلى المرآة. هذا وصف لعالم المظاهر، العالم كتمثل. غير أنه بالنسبة شُوبِنهَاوَر هناك مظهر داخلي لتجربة تحريك جسدنا، شيء يمكن أن تشعر به بطريقة مختلفة عن تجربتنا لعالم المظاهر على العموم. لا نجرب العالم كإرادة مباشرة لكننا نقترب منه جدًا عندما نتصرف بطريقة متعمدة، عندما نريد (من الإرادة) أفعالاً جسدية، أي نحققها فعلاً. لهذا السبب اختار كلمة (إرادة) لوصف الواقع، على الرغم من أن هذه الطاقة لها علاقة بفعل شيء وفق إرادة فقط في الوضعية الإنسانية. لا ينمو النبات وفق إرادة معينة للنبات، ولا يحدث التفاعل الكيمياوي وفق إرادة ذاتية أيضًا. تبعًا لذلك من المهم فهم كلمة (إرادة) بطريقة مختلفة عن معانيها العادية.

عندما يريد (من الإرادة) الإنسان شيئًا فإنهم يفعل ذلك لتحقيق هدف ما: يحاول فعل شيء ما. لكن هذا مختلف عن ما يعنيه شُوبِنهَاوَر عندما يصف العالم كإرادة. ليس للإرادة أي هدف، أو حسب تعبيره، الإرادة (عمياء). ليست محاولة للوصول إلى نتيجة معينة. ليس لها أي هدف أو مغزى. إنها فقط ذلك اندفاع للطاقة يوجد في أي ظاهرة طبيعية وأيضًا في أفعالنا الواعية بالرغبة في تحقيق أشياء معينة. يرى شُوبِنهَاوَر أنه ليس هناك إله ليوجهها، وليست الإرادة إلها. الوضعية الإنسانية، كجميع مظاهر الواقع، هي جزء من هذه القوة التي لا معنى لها.

غير أن هناك بعض التجارب التي يمكن أن تجعل حياتنا محتملة. تأتي هذه التجارب غالبًا من الفن. يقدم الفن لحظة ثابتة تمكننا من الهروب ولو لوقت قصير من الدائرة الأبدية للسعي والرغبة. تعتبر الموسيقى أحسن شكل فني لهذا الهروب. لأنه حسب شُوبِنهَاوَر الموسيقى هي نسخة من الإرادة ذاتها. يفسر هذا حسب اعتقاده قدرة الموسيقى على تحريك مشاعرنا بعمق. إذا استمعت إلى سمفونية لبيتهوفن وأنت مرتاح، فإنها لن تنشطك عاطفيًا، ولكنها ستمكنك من إلقاء نظرة خاطفة على الواقع كما هو حقيقة.

لم يسبق لفيلسوف أن أعطى مكانة مركزية للفنون، ولهذا لن يفاجئنا أن يكون شُوبِنهَاوَر ذا شعبية لدى المبدعين في جميع الأصناف. يحبه الموسيقيون والملحنون لأنه كان يعتقد أن الموسيقى هي أحسن الفنون. كما كانت أفكاره تعجب الروائيين مثل ليو

تولستوي، مارسيل بروست وتُومَاس مان وتُومَاس هاردي. كتب تُومَاس ديلان قصيدة شعرية عنوانها: «القوة التي عبر الفتيل الأخضر دفعت الوردة» التي استُلهمت من وصف العالم كإرادة شُوبِنهَاوَر.

لم يصف شُوبِنهَاوَر الواقع وعلاقتنا به فقط. كانت له أيضًا آراء حول الطريقة التي يجب أن نعيش بها. حالما تدرك أننا جزء من قوة طاقية واحدة، وأن الأفراد يوجدون في مستوى عالم الظواهر، سيغير هذا حتمًا ما تفعل. بالنسبة شُوبِنهَاوَر، إيذاء الناس الآخرين هو نوع من جرح الذات. هذا هو أساس كل الأخلاق. إذا قتلتك، فإنني سأدمر جزءًا من قوة الحياة التي تربطنا جميعًا. عندما يؤذي شخص الناس الآخرين، فإن ذلك يشبه فعل الأفعى عندما تلدغ ذيلها دون أن تعلم أنها تنهش جسدها. إذن كانت الأخلاق التي سعى إلى تلقينها هي أخلاق الشفقة. إن من يفهم هذه الأخلاق بطريقة صحيحة، فلن يعتبر الآخرين منفصلين عنه. أهتم بما يحدث لك لأنك بطريقة ما جزء مما نحن جميعًا جزء منه: العالم كإرادة.

هذا هو موقف شُوبِنهَاوَر الأخلاقي الرسمي. لكنه يبقى موضع تساؤل لأننا لا نعرف إذا ما كان فعلاً حقق هو نفسه هذا المستوى من الأخلاق تجاه الناس الآخرين. ذات يوم، كانت امرأة تتحدث أمام باب منزله، الأمر الذي أغضبه وجعله يدفعها لتسقط من أعلى الدرج. تعرضت المرأة للجرح وحكمت المحكمة على شُوبِنهَاوَر بأداء تعويض لها مدى حياتها. عندما

ماتت سنوات بعد ذلك، لم يبد شُوبِنهَاوَر أي شفقة: كتب عبارته المضحكة: «ماتت العجوز وانزاح الحمل» على شهادة وفاتها.

هناك طريقة أخرى أكثر تطرفًا للتعامل مع دائرة الرغبة. لتجنب الوقوع في هذه الدائرة، فقط ابتعد عن العالم كليًّا وتحول إلى زاهد: عش حياة العفة الجنسية والفقر. ستكون هذه الطريقة الأمثل للتعامل مع الوجود. إنه الحل الذي اختارته الديانات الشرقية. غير أن شُوبِنهَاوَر لم يصبح أبدًا زاهدًا، على الرغم من أنه انسحب من الحياة الاجتماعية مع كبره في السن. استمتع معظم حياته بالرفقة وكانت له أعمال، وتناول الغذاء الجيد. إنه لمغري القول بأنه كان منافقًا. فعلاً، كان مزاجه المتشائم الذي يسم كتاباته عميق جدًا في بعض المقاطع لدرجة أن قراءه اعتقدوا أنه لو كان صادقًا في ما يقول، فسيكون قد قتل نفسه.

كان جُوْن ستِيوَارْت مِيل، الفيلسوف الفيكتوري الكبير، في المقابل، متفائلاً. كان يبين أن الفكر والمناقشة الصارمين يمكنهما الحث على التغيير الاجتماعي وخلق عالم أفضل، عالم حيث يستطيع ناس أكثر عيش حياة سعيدة وناجحة.

الفصل الرابع والعشرون



جُوْن ستِيوَارْت مِيل

فضاء للنمو

تخيل أنك أُبعدت عن الأطفال في معظم طفولتك. عوض أن تقضي وقتك في اللعب، فأنت كنت تتعلم اللغة الإغريقية أو الجبر على يد مدرس خاص، أو منشغلاً في محادثات مع ناس بالغين وأذكياء جدًا. كيف ستصبح في المستقبل؟

هذا ما وقع إلى حد ما ستِيوَارْت مِيل (1806 – 1873). كان تجربة تربوية. كان والده جِيْمس مِيل، وهو صديق جِيرْمِي بَنِثام، يشارك جُوْن لُوك رأيه بأن عقل الطفل فارغ مثل لوحة بيضاء. كان جِيْمس مِيل مقتنعًا بأنه إذا أنشأت الطفل بطريقة صحيحة، فهناك إمكانية كبيرة أن يتحول إلى عبقري. وعلى هذا

الأساس درّس جِيْمس ابنه جُوْن في المنزل مع الحرص على عدم السماح له بإضاعة وقته في اللعب مع أقرانه أو بتعلم عادات سيئة منهم. غير أن هذا التعليم لم يكن فقط حشو بالمعلومات أو حفظ قسري، أو أي شيء مشابه. علمه جِيْمس منهج سُقرَاط في طرح الأسئلة، مشجعًا إياه على استكشاف الأفكار التي كان يتعلمها عوض ترديدها فقط.

كانت النتيجة المذهلة هي أنه مع بلوغ ثلاث سنين كان جُوْن يدرس اللغة الإغريقية القديمة. مع بلوغه ست سنين كان قد كتب تاريخ روما، وفي سن السابعة كان يفهم حوارات أَفلَاطوْن في لغتها الأصلية. في سن الثامنة بدأ في تعلم اللاتينية. في سن الثانية عشرة، كان بإمكانه أن يستوعب بطريقة شاملة التاريخ والاقتصاد والسياسة، وأن يحل معادلات رياضية معقدة وكان له اهتمام متطور وعميق بالعلم. كان طفل عبقري. في العشرينيات من عمره كان قد أصبح أحد ألمع المفكرين في عصره، على الرغم من أنه لم يتخلص من أثار طفولته الغريبة وبقي وحيدًا ومبتعدًا عن الناس طوال حياته.

على الرغم من ذلك، تحول إلى إنسان عبقري. نجحت تجربة والده إذن، وأصبح يقوم بحملات ضد الظلم وكان من بين المؤيدين للحركة النسوية (تم توقيفه لتشجيعه لتحديد النسل)، كان سياسيًّا وصحفيًّا وفيلسوفًا عظيمًا، ربما أعظم فيلسوف في القرن التاسع عشر.

تمت تنشئة مِيل كإنسان نفعي وقد كان تأثير بَنِثام عليه كبيرًا. كانت عائلة مِيل تمكث في منزل بنثام في ريف سوري كل الصيف. لكن على الرغم من أن مِيل كان يتفق مع بَنِثام بأن الفعل الصحيح هو دائمًا ذلك الذي يجلب أكثر قدر من السعادة، كان يعتبر تفسير أستاذه للسعادة، على أنها متعة، بسيط جدًا. وتبعًا لذلك طور الشاب تصوره الخاص للنظرية، وهي نظرية فرقت بين المتع العليا والدنيا.

إذا كان الاختيار ممكنا، هل سيكون من الأحسن أن تكون خنزيرًا سعيدًا يتمرغ في إسطبل قذر ويأكل من معلف، أو مخلوق بشري حزين؟ كان مِيل يعتقد أنه من الواضح أننا سنختار أن نكون إنسانا حزينا عوض خنزير سعيد. لكن هذا يعارض رأي بَنِثام. يقول بَنِثام، وسوف تتذكرون ذلك، أن ما يهم هي التجارب الممتعة، كيفما كانت طريقة تحققها. لم يكن مِيل موافقًا على هذا الرأي. كان يعتقد بأن هناك عدة أنواع من المتع، وأن بعضها هي أحسن من أخرى، أحسن جدًا لدرجة أنه لا يمكن مساواة أي قدر من المتعة الدنيا بأقل قدر من المتعة العليا. لا يمكن للمتع الدنيا، كتلك التي يمكن أن يعيشها الحيوان، أن تنافس المتع الفكرية العليا كمتعة قراءة كتاب أو الاستماع إلى حفل موسيقي. واصل مِيل في تفسير مقارنته وقال أنه سيكون أحسن أن تكون سُقرَاطًا مستاء على أن تكون غبيًّا راض عن نفسه. وذلك لأن سُقرَاط الفيلسوف كان قادرًا على تحقيق متع من تفكيره أكثر رقيًّا من أي متعة يمكن لغبي أن يحققها.

لماذا نتق في مِيل؟ كان جوابه هو أن أي شخص جرب المتع العليا والدنيا معًا سيفضل المتع العليا. لا يستطيع الخنزير قراءة كتاب أو الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية، وتبعًا لذلك فرأيه حول هذا الموضوع غير ممكن. لو كان الخنزير يستطيع القراءة لفضل القراءة على التمرغ في الوحل.

هذا هو ما كان مِيل يعتقده. لكن بعض الناس أشاروا إلى أن مِيل كان يظن أن كل الناس يشبهونه في تفضيله للقراءة على التمرغ في الوحل. الأمر الأسوأ هو أنه حالما أدخل مِيل في هذه النظرية أنواعًا مختلفة للسعادة (أدنى وأعلى) وكميات مختلفة أصبح تحديد ما يمكننا فعله أصعب. من بين مزايا نظرية بَنِثام بساطتها لأنه يتم قياس كميات المتعة والألم بنفس العملة. لم يقدم مِيل أي سعر للصرف بين مختلف عملات المتع الأعلى والأدنى.

طبق مِيل التفكير النفعي على كل مظاهر الحياة. كان يعتبر المخلوقات البشرية إلى حد ما كأشجار. إذا لم تمنح الشجرة فضاء كافيا لتنمو، ستصبح مشوهة وضعيفة. لكن إذا وضعتها في فضاء مناسب، فسوف تحقق كل طاقتها وتصل علوا وسرعة كبيرين. وبالمثل وفي نفس الظروف، تزدهر المخلوقات البشرية وهذا يحقق نتائج جيدة ليس فقط بالنسبة للفرد المعني ولكن بالنسبة للمجتمع - ككل - ينتج أكبر قدر من السعادة. في سنة 1859، نشر كتاب مقتضبًا وملهمًا دافع فيه عن رأيه بأن منح كل فرد الفضاء الكافي ليتطور كما يراه مناسبًا هو أحسن طريقة لتنظيم

المجتمع. عنوان هذا الكتاب هو عن الحرية وهو ما زال يقرأ على نحو واسع حتى اليوم.

الأبوية، مشتقة من كلمة Pater اللاتينية وتعني الأب، هي إرغام شخص ما على فعل شيء في مصلحته الخاصة (على الرغم من انه كان بالإمكان كذلك استعمال كلمة أمومية maternalism من أم mater). إذا كنت تُرغم على أكل الخضراوات وأنت طفل، فستفهم هذا المفهوم جيدًا. لن ينفع أكل الخضراوات أي شخص آخر، لكن والديك يرغمانك على أكلها لأنها تنفعك أنت. كان مِيل يعتقد أن الأبوية جيدة إذا ما استعملت مع الأطفال: يجب حماية الأطفال من أنفسهم ومراقبة تصرفاتهم بطرق مختلفة. غير أن تطبيق الأبوية تجاه البالغين غير مقبولة في مجتمع متحضر. التبرير الوحيد لممارستها هو منع شخص من إيذاء الآخرين أو في حالة كون الشخص مختل عقليًا.

كانت رسالة مِيل بسيطة. يعرف هذا بمبدأ الضرر. يجب أن يكون كل فرد بالغ حرًا في أن يعيش بالطريقة التي يحب شريطة أن لا يؤذي ذلك الآخرين. كانت هذه فكرة شجاعة في إنكلترا الفيكتورية حيث كان العديد من الناس يفترضون أن جزءًا من دور الحكومة هو فرض القيم الأخلاقية الجيدة على الناس. لم يكن مِيل متفقًا مع هذا الافتراض. كان يعتقد أن الأفراد سيحصلون على سعادة أكثر إذا ما سمحنا لهم بأن يكونوا أحرارًا في تصرفاتهم. لم تكن فكرة كون الحكومة هي المسئولة عن توجيه الناس هي التي أزعجت مِيل. كان يكره ما يسميه

(طغيان الأغلبية)، وهي الطريقة التي تشتغل بها الضغوطات الاجتماعية لمنع الناس من فعل ما يريدون فعله أو أن يكونوه.

قد يظن آخرون أنهم يعرفون ما سيجعلك سعيدًا. لكنهم عادة ما يكونون مخطئين. أنت تعرف أحسن منهم بكثير ما تريد أن تفعل بحياتك. حتى لو لم تكن تعرف، يبين مِيل بأنه من الأحسن تركك ترتكب أخطاءك الخاصة بدل إرغامك على العيش وفق طريقة معينة للحياة. يتفق هذا مع النفعية كمذهب لأنه كان يعتقد أن الزيادة في الحرية الفردية ينتج سعادة أكثر مما ينتجه المنع.

بالنسبة مِيل فإن العباقرة (وقد كان واحدًا منهم) يحتاجُوْن الحرية أكثر من أي شخص آخر ليتطوروا. فهم نادرًا ما يتصرفون وفق التوقعات الاجتماعية حول الطريقة التي يجب عليهم التصرف بها، وغالبًا ما يبدون غريبي الأطوار. إذا أعَقْت تطورهم، فسنخسر جميعًا لأنهم ربما لن يقدموا أي مساهمات في تطور المجتمع كان بإمكانهم تقديمها. إذن إذا أردت أن تحقق أكبر قدر من السعادة، أترك الناس تعيش حياتها كما تريد دون أن تتدخل فيهم، إلّا إذا كانوا سيؤذون الآخرين بتصرفاتهم. إذا وجدت ما يفعلونه كريها، فهذا ليس سببًا وجيها لمنعهم من العيش بتلك الطريقة. كان مِيل واضحًا في هذه الفكرة: لا يجب خلط الكره بالأذى.

لمقاربة مِيل بعض النتائج المزعجة. تخيل إنسانا بدون عائلة قرر أن يشرب زجاجتين من الفودكا كل ليلة. من الواضح أن الشرب سيؤدي به إلى الموت. هل يجب على القانون التدخل لمنعه؟ لا، يقول مِيل، إلّا إذا كان سيؤذي الآخرين. يمكنك أن تناقشه، قل

له أنه يدمر نفسه. لكن لا أحد له الحق في إرغامه على تغيير طرق عيشه، ولا تستطيع الحكومة أيضًا منعه من الشرب حتى الموت. هذا اختياره الحر. لن يكون اختياره حرًا لو كان يشرف على رعاية طفل، لكنه ما دام يعيش وحيدًا فيحق له أن يفعل ما يشاء.

بالإضافة إلى الحرية في اختيار طريقة العيش، كان مِيل يعتقد أنه أمر حيوي أن يتمتع الجميع بالحرية في التفكير والتعبير. للحوار المفتوح فائدة كبيرة للمجتمع، لأنه، حسب اعتقاده، يشجع الناس على التفكير مليًّا في ما يعتقدون. إذا لم تكن هناك آراء أخرى تعارض أفكارك، فسينتهي بك الأمر أن تعتقد في أفكار متحجرة ميتة، أفكار مسبقة لا يمكنك الدفاع عنها. دافع عن حرية التفكير إلى حدود تحولها إلى حرية مثيرة للعنف. كان يعتقد أن الصحفي له الحق في كتابة افتتاحيات حيث يصرح بأن: «المتاجرين بالذرة يُجوّعون الفقراء حتى الموت»، لكنه إذا حمل لافتة تحمل نفس العبارة ووقف يلوح بها أما منزل تاجر الذرة أمام مجموعة من الفقراء الغاضبين، فهذا يعتبر تحريضًا على العنف ويجب منعه حسب مبدأ الأذى مِيل.

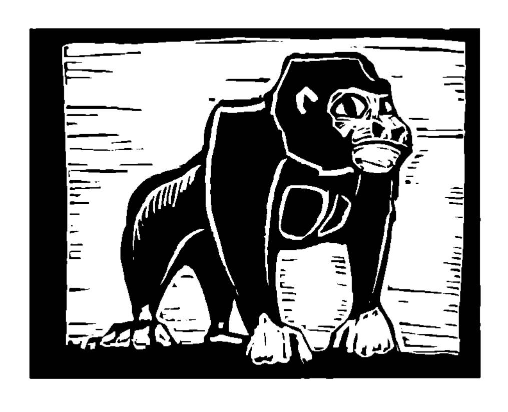
لم يتفق الكثير من الناس مع مِيل. اعتقد بعضهم أن مقاربته للحرية كانت مركزة جدًا على فكرة أن ما يهم هو الطريقة التي يرى بها الأفراد حياتهم (هي مقاربة أكثر فردانية من مقاربة رُوسُو، انظر الفصل 18). رأى آخرون أنه يفتح المجال لمجتمع إباحي سيدمر الأخلاق للأبد. كان جِيْمس فيتزجيمس ستيفن، أحد معاصريه، يرى أنه يجب إرغام الناس على الدخول في قناة

ضيقة وعدم منحهم اختيارات متعددة حول طريقة الحياة لأنه سينتهي الأمر بالكثير منهم إلى اتخاذ قرارات سيئة ومدمرة للذات إذا ما مُنحوا كامل الحرية في الاختيار.

من بين المجالات التي كان مِيل متطرفًا بالخصوص بشأنها في عصره هي تصوره للحركة النسوية. في إنكلترا القرن التاسع عشر لم يكن يسمح للمرأة بأن يكون لها أملاكها الخاصة. وكان لها القليل من الحماية القانونية ضد العنف والاغتصاب من طرف أزواجهم. في كتابه استعباد النساء (1869) دافع عن المساواة بين الجنسين أمام القانون والمجتمع على العموم. كان بعض المحيطين به يدّعون أن النساء أدني من الرجال بالطبيعة. كان يسألهم عن كيف يعرفون ذلك في الوقت الذي كانت تُحرَم فيه النساء من تحقيق مؤهلاتهم كاملة: كانوا ممنوعين من التعليم العالي ومن العديد من المهن. كان يريد أكثر من أي شيء مساواة أكثر بين الجنسين. بين أنه يجب أن يكون الزواج صداقة بين ناس متساوين. كان زواجه من الأرملة هارييت تايلر، والذي تم في سن متأخرة في حياتهما، يشبه هذا التصور للزواج، وحقق سعادة كبيرة لكليهما. كانوا أصدقاء حميمين (وربما عشاق) عندما كان زوجها ما زال حيًّا، لكن كان على مِيل أن يصبر حتى 1851 ليصبح زوجها الثاني. ساعدته في كتابة عن الحرية واستعباد النساء، غير أنها ماتت للأسف قبل نشرهما.

نشر عن الحرية لأول مرة سنة 1859. في نفس السنة، ظهر كتاب آخر أكثر أهمية وهو كتاب دَارْوِين أصل الأنواع.

الفصل الخامس والعشرون



شَارْلز دَارْوِين

تصميم غير ذكي

((هل لك علاقة بالقرود من جهة جدتك أو جدك؟)) كان هذا سؤال استهزائي لرئيس القساوسة صامويل ويلبرفورس في نقاش مشهور مع تُومَاس هنري هكسلي في متحف أكسفورد لتاريخ الطبيعة في 1860. كان هكسلي يدافع عن آراء شَارْلز دَارْوِين (1809 – 1882). كان هدف سؤال ويلبرفورس هو الشتم والتنكيت. لكن النتيجة كانت عكسية. قال هكسلي لنفسه بصوت منخفض: ((شكرًا يا إلهي لأنك سلمته لي))، وأجاب أنه يفضل أن تكون له علاقة بالقرود من أن يكون منحدرًا من مخلوق بشري يعطل نقاشًا بالاستهزاء من أفكار علمية. كان

بإمكانه أيضًا أن يشرح بأنه ينحدر من أجداد يشبهون القرود من الجانبين – ليس منذ وقت قريب، لكن منذ زمن بعيد جدًا في الماضي. هذا ما كان يدعيه دَارْوِين. كلنا نحتفظ بمكان لهم في شجرة العائلة.

تسببت هذه الرؤية في هيجان كبير تقريبًا منذ نشر كتاب أصل الأنـواع سنة 1859. بعد ذلك لم يعد ممكنا التفكير في المخلوقات البشرية كمخلوقات مختلفة تمامًا عن باقي مخلوقات مملكة الحيوان. لم تعد المخلوقات البشرية متميزة: أصبحوا جزءًا من الطبيعة كباقي الحيوانات. قد لا يفاجئك هذا الأمر لكنه كان مفاجئًا لأغلب الفيكتوريين.

قد تظن أن كل ما نحتاجه لإدراك قرابتنا للقرود هو قضاء بعض الدقائق في رفقة قرود الشمبانزي أو غوريلا، أو ربما النظر بتمعن في تركيبة وجوهنا في المرآة. غير أنه في عصر دَارْوِين كان كل الناس يفترضون إلى حد ما أن المخلوقات البشرية مختلفة تمامًا عن الحيوانات الأخرى وأننا نشترك معهم في أقارب في غابر الزمان هو أمر مضحك. كان هناك عدد من الناس يعتقدون أن أفكار دَارْوِين هي أفكار مجنونة وعمل من فعل الشيطان. تعلق بعض المسيحيين بقصة الخلق في سفر التكوين واعتبروها التفسير الصحيح والوحيد لكيفية خلق الإله للإنسان والحيوان والنبات في ستة أيام من العمل الدؤوب. خلق الإله العالم وكل شيء فيه، كل بوضعه الخاص للأبد. كان هؤلاء المسيحيون يعتقدون بأن كل أنواع الحيوان والنبات بقيت على حالها منذ الخلق. حتى اليوم

ما زال بعض الناس يرفضون الاعتقاد بان التطور هو العملية التي جعلتنا نكون ما نحن عليه.

كان دَارْوِين عالم الأحياء وعالم جيولوجي، وليس بفيلسوف. قد تتساءلون عن سبب وجود جزء خاص به في هذا الكتاب. السبب هو أن نظريته للتطور بالانتقاء الطبيعي ونسخها الحديثة كان لها الأثر العميق على الطريقة التي يفكر بها الفلاسفة - وكذلك العلماء - حول الإنسانية. إنها النظرية العلمية الأكثر تأثيرًا في كل الأزمان. سماها الفيلسوف المعاصر دانييل دينيت: « الفكرة الوحيدة الأحسن التي لم يسبق لأحد التفكير فيها ». تفسر النظرية كيف أن المخلوقات البشرية والحيوان والنبات أصبحوا على ما هم عليه اليوم وكيف أنهم ما زالوا في تغيير مستمر.

إحدى نتائج هذه النظرية هي أنه أصبح أسهل من ذي قبل الاعتقاد بأن الإله غير موجود. كتب عالم الجيولوجيا ريتشارد دوكينز: « لا أستطيع تخيل نفسي ملحدًا قبل 1859 عندما نشر كتاب دَارْوِين أصل الأنواع ». كان هناك ملحدون بالتأكيد قبل 1859، كان دَيڤيد هِيوْم، موضوع الفصل 17، ربما واحدًا منهم، غير أنه كان عدد أكثر منهم بعد ذلك. ليس ضروريًا أن تكون ملحدًا لتصدق نظرية التطور: العديد من المتدينين هم داروينيون. لكن لا يمكنهم أن يكونوا داروينيون والاعتقاد في نفس الوقت بأن الإله خلق كل الأنواع كما توجد عليه اليوم.

شارك دَارْوِين كشاب في رحلة على ظهر باخرة HMS Beagle دامت خمس سنوات. زاروا خلالها جنوب أمريكا،

إفريقيا واستراليا. كانت هذه مغامرة العمر – وهي كذلك لأي شخص. قبل ذلك لم يكن دَارْوِين طالبًا واعدًا بالخصوص، ولم يكن أحد يتوقعه أن يقدم مثل هذه المساهمات العظيمة للفكر الإنساني. لم يكن عبقريًّا في الدراسة. كان أبوه مقتنعًا أنه سيكون فاشلاً ووصمة عار لعائلته لأنه قضى الكثير من الوقت في صيد وقنص الجرذان. عندما كان شابًا، بدأ تكوينه كطبيب في ادنبرا، لكن عندما لم يحقق نتائج إيجابية، تحول إلى دراسة اللاهوت في جامعة كيمبردج ليصبح قسًا. في وقت فراغه كان متحمسًا لدراسته لعالم الطبيعة وكان يجمع النبات والحشرات، غير أنه لم تكن هناك أي إشارة إلى أنه سيكون أعظم عالم أحياء في التاريخ. كان يبدو ضائعًا من عدة أوجه. لم يكن يعرف ما سيفعله بالضبط. لكن سفره على ظهر بيغل غيّر حياته.

كان السفر رحلة علمية حول العالم، جزئيًّا مِنْ أَجْلِ وضع خارطة لسواحل الأماكن التي زارتها السفينة. على الرغم من عدم توفره على مؤهلات، لعب دَارْوِين دور عالم النبات الرسمي، ولكنه سجل ملاحظات حول الصخور والأحفوريات والحيوانات أينما حلوا. امتلأت السفينة الصغيرة بسرعة بالعينات التي جمعها. لحسن الحظ تمكن من إرسال ما جمعه إلى إنكلترا حيث تم تخزينها مِنْ أَجْلِ البحث.

كان أحسن جزء من هذه الرحلة هي زيارتهم لجزر كلاباغوس، وهي مجموعة من الجزر البركانية في المحيط الهادي تقريبًا 500 مِيل من جنوب أمريكا. وصلت سفينة بيغل جزر كلاباغوس

في 1835. كان هناك العديد من الحيوانات يمكن دراستها، بما فيهم سلاحف كبيرة والإيغوانا، زواحف محبة للبحر. على الرغم من انه لم يكن واضحًا بالنسبة له في ذلك الوقت، كان أهم شيء بالنسبة لنظرية التطور دَارْوِين هو مجموعة من طيور الحسون الداكنة اللون. قنص مجموعة منها وأرسلها إلى إنكلترا لمزيد من البحث. كشفت دراسة دقيقة أنه كان هناك ثلاثة عشر نوعًا مختلفًا. كان الاختلافات بينهم في أغلبها في مناقيرهم.

بعد رجوعه تخلى دَارْوِين عن خطته بأن يصبح قسيسًا. في الوقت الذي كان يرسل الأحفوريات، والنبات وجثث الحيوانات الميتة إلى إنكلترا، كسب شهرة في الوسط العلمي. أصبح عالمًا في الطبيعة وأمضى عدة سنوات يشتغل على نظريته في التطور بالإضافة إلى أنه أصبح خبيرًا في السلجات، وهي صدفيات صغيرة تلتصق بالصخور والبواخر. كلما فكر فيها أكثر كلما تأكد له أكثر بأن الأنواع تطورت عبر عملية طبيعية، وأنهم يتغيرون باستمرار عوض كونهم ثابتي الشكل. توصل في الأخير إلى فكرة أن الحيوانات والنبات الذين كانوا قد تكيفوا مع محيطهم، كانوا أكثر احتمالاً للبقاء على قيد الحياة لمدة أطول لتمرير بعض خاصياتهم لصغارهم. أنتج هذا النظام مع مرور فترات طويلة من الزمن نباتًا وحيوانات يبدو أنها خلقت لتعيش في المحيط الذي وجدت فيه. قدمت حزر كلاباغوس بعض أحسن الأدلة على التطور في اشتغاله. مثلاً، كان يعتقد أن طيور الحسون وجدت طريقها في فترة ما في التاريخ إلى هناك من البر الرئيسي،

نقلت هناك ربما بفعل الرياح. خلال آلاف الأجيال، تكيفت الطيور في كل جزيرة تدريجيًّا مع المحيط حيث كانوا يعيشون.

ليست كل الطيور من نفس النوع متجانسة. هناك عادة الكثير من التنوع. يمكن مثلاً أن يكون لطائر منقار مستدق أكثر من منقار طائر آخر. إذا كان امتلاك هذا النوع من المنقار ساعده على البقاء أكثر، سيكون من المحتمل أن يتكاثر. مثلاً إذا كان للطائر منقار يساعده على أكل البذور، سيستمر في العيش والتكاثر في جزيرة يوجد فيها الكثير من البذور، وليس في جزيرة حيث المصدر الأساسي للغذاء هو الجوز الذي يحتاج إلى التكسير. الطائر الذي يصعب عليه الحصول على أكل بسبب شكل منقاره سيصعب عليه الاستمرار في الحياة لوقت كافي يسمح له بالتزاوج والتكاثر. سيصبح انتقال هذا النوع من المناقير إلى أجيال لاحقة أقل احتمالاً. الطيور التي لها مناقير تناسب نوع الأكل المتوفر سيكون تمريرها لهذه الخاصية لصغارها أكثر احتمالاً. في جزيرة غنية بالبذور، تصبح الطيور التي لها مناقير لأكل البدور مهيمنة. مع مرور آلاف السنين، أدى هذا إلى تطور نوع جديد مختلف جدًا عن النوع الأصلي الذي قَدِم إلى الجزيرة. انقرضت الطيور التي لها مناقير غير مناسبة تدريجيًّا. في جزيرة بظروف مغايرة، سيتطور نوع مختلف قليلاً هناك. مع مرور فترات طويلة من الزمن، تكيفت مناقير الطيور أحسن فأحسن مع محيطها. كانت المحيطات المختلفة في الجزر المختلفة تعني أن الطيور التي عاشت هناك هي التي تكيفت أحسن مع ذلك المكان.

اعتقد آخرون قبل دَارْوِين بما فيم جد دَارْوِين، ايرسموس دَارْوِين، أن الحيوانات والنبات كانوا قد تطوروا. ما أضافه دَارْوِين هي نظرية التأقلم بالانتقاء الطبيعي، العملية التي تسمع لمن تأقلم مع محيطه أن يستمر في الوجود ويمرر خاصياته للأجيال اللاحقة.

يفسر الصراع مِنْ أَجْلِ البقاء كل شيء. ليس هو فقط صراع بين أعضاء من أنواع مختلفة؛ أعضاء من نفس النوع تتصارع مع بعضها البعض أيضًا. تدخل كلها في صراع لتمرير خاصياتها للجيل اللاحق. هذه هي الطريقة التي تكونت بها خاصيات الحيوانات والنبات والتي تبدو وكأنها خلقت من طرف عقل ذكي.

التطور هو عملية غير خاضعة لتدبير عقلي. لا يوجد وعي أو إله وراءها، أو على الأقل لا تحتاج أن يكون هناك شيء وراءها. إنها غير مشخصنة: إنها مثل آلة تستمر في الاشتغال بطريقة آلية. إنها عمياء بمعنى أنها لا تعرف وجهتها ولا تفكر في الحيوانات ولا النبات الذي تنتجه. ولا تهتم بهم أيضًا. عندما نرى نتائجها – النبات والحيوانات – يصعب أن لا نفكر فيهم كأنهم خلقوا بطريقة ذكية من طرف شخص ما. لكن ذلك سيكون خطأ. تقدم نظرية دَارْوِين تفسيرًا أكثر وضوحًا ورقيًا. تفسر كذلك سبب وجود أنواع مختلفة من الحياة، بأنواع مختلفة تُكيف ذاتها مع المحيط الذي تعيش فيه.

في سنة 1858، كان دَارْوِين لم يشرع بعد في نشر نتائج البحث. كان يشتغل على كتابه وكان يسعى إلى إتقانه. عالم طبيعي آخر،

أَلْفِرد رَاسِل والاس (1823 – 1913)، كتب إليه عن نظريته الخاصة والمشابهة للتطور. دفعت هذه المصادفة دَارْوِين إلى نشر أفكاره للعموم، أولاً بعرض قدمه لجمعية لينيان في لندن، وسنة بعد ذلك، 1859، بنشر كتابه حول أصل الأنواع. بعد أن كرس جزء كبير من حياته لصياغة نظريته، لم يكن يريد أن يصل والاس إلى هذه النتيجة قبله. جعله هذا الكتاب مشهورًا على الفور.

بعض الناس الذين قرأوه لم يقتنعوا به. كان قائد سفينة بيغل، روبرت فيتزروي، مثلاً، نفسه عالمًا ومخترع نظام للتوقعات الجوية، مؤمنا بقصة الخلق المذكورة في الكتاب المقدس. شعر بالخيبة للَعِبه دورًا في تقويض معتقد ديني وتمنى لو أنه لم يسمح أبدًا دَارْوِين بركوب السفينة. حتى اليوم ما زال المؤمنون بالخلق الذين يعتقدون أن القصة المذكورة في سفر التكوين هي صحيحة وهي وصف حرفي لأصل الحياة. لكن في أوساط العلماء، هناك ثقة ساحقة بأن نظرية دَارْوِين تفسر العملية الأساسية للتطور. وسبب هذا جزئيًا هو أنه منذ زمن دَارْوِين كان هناك عدد كبير من الملاحظات التي أيدت النظرية ونُسَخها اللاحقة. مثلاً قدم علم الوراثة تفسيرًا مفصلاً عن كيفية اشتغال الوراثة. نعرف عن الجينة والكروموسوم وعن العمليات الكيميائية المعنية بتمرير خاصيات معينة. الأدلة المستخلصة من الأحفوريات هي أيضًا أكثر إقناعًا اليوم مما كانت عليه في عصر دَارْوِين. لكل هذه الأسباب، فإن نظرية التطور بالانتقاء الطبيعي هي أكثر من افتراض: إنه افتراض يتوفر على قدر مهم من الأدلة الداعمة.

قد تكون الداروينية دمرت إلى حد ما دليل التصميم التقليدي وخلخلت الإيمان الديني للعديد من الناس. لكن يبدو أن دَارْوِين نفسه أبقى فكره منفتحًا على مسألة وجود الإله أو عدمه. في رسالة لزميل له، صرح بأننا لا يمكننا أن نصل إلى قرار نهائي في الموضوع: «الموضوع كله عميق جدًا بالنسبة للتفكير البشري»، قال موضحًا: «يمكن للكلب أيضًا أن يخمن حول عقل نيوتن».

مفكر كان مستعد للتأمل حول الإيمان الديني، وجعله أساسيًا في حياته، بخلاف دَارْوِين، هو سُورِين كِيْركُغورْد.

الفصل السادس والعشرون



سُورِين كِيْركُغورْد

تضحيات الحياة

تلقى إبراهيم رسالة من الإله. كانت رسالة مروعة حقًا: يجب عليه أن يضحي بابنه الوحيد، إسحاق. أحس إبراهيم بضيق نفسي. يحب ابنه لكنه رجل تقي ويعرف أن عليه أن يطيع الإله. في هذه القصة من سفر التكوين في العهد القديم، يحمل إبراهيم ابنه إلى قمة جبل، جبل مرويًا، قيده على مذبح صخري وكان على وشك ذبحه بسكين كما أمره الإله. في اللحظة الأخيرة أرسل الإله ملاكًا أوقف الذبح. عوضًا عن ابنه، ضحى إبراهيم بكبش قبض عليه من بين الأشجار القصيرة حوله. كافأ الإله إبراهيم على إخلاصه بأن سمح لابنه بالاستمرار في الحياة.

هذه قصة تحمل رسالة. يُعتقد عادة أن الدرس هو: «كن مؤمنا، افعل ما يأمرك الإله به، وكل شيء سيتحول إلى الأحسن». الهدف هو أن لا تشك في كلام الإله. لكن هذا الأمر ليس بتلك البساطة بالنسبة سُورِين كِيْركُغورْد (1813 – 1855). في كتابه الخوف والارتعاش (1842) حاول أن يتخيل ما فكر فيه إبراهيم، الأسئلة والخوف والكرب، خلال رحلة الثلاثة أيام من بيته إلى الجبل حيث كان يعتقد انه كان سيذبح ابنه إسحاق.

كان كِيْركُغورْد غريبًا إلى حد بعيد ولم يندمج بسهولة في مجتمع كوبنهاغن حيث كان يعيش. خلال يومه، كان هذا الرجل النحيف والقصير غالبًا ما يراه الناس يتمشى حول المدينة وهو مستغرق في حوار مع مرافقه وكان يحب أن يرى نفسه كسُقرَاط الدانمركي. كان يكتب في المساء – واقفًا أمام مكتبه ومحاطًا بالشموع. من نزواته أنه كان يحب أن يظهر للناس في الاستراحة البينية لفصول مسرحية حتى يعتقد الجميع أنه كان خارج المنزل يستمتع بوقته في حين أنه لم يشاهد المسرحية على الإطلاق وكان منشغلاً كل الوقت بالكتابة في منزله. اشتغل بجد ككاتب لكنه اتخذ قرارًا مؤلما بشأن حياته الشخصية.

أحب شابة اسمها ريجين أولسن وطلب منها الزواج. وافقت. لكنه كان منزعجًا لاعتقاده بأنه كئيب ومتدين جدًا ولا يصلح للزواج. ربما كان يحاول تحقيق معنى اسمه العائلي كيركغور الذي يعني مقبرة باللغة الدانمركية. كتب لريجين يخبرها بأنه لن يستطيع الزواج بها وأعاد إليها خاتم الخطوبة.

شعر بالانزعاج الشديد لقراره وأمضى ليال عدة يبكي في سريره بعد ذلك. تفهمت موقفه وأحست بالصدمة ورَجَتْه أن يتراجع عن قراره، لكن كِيْركُغورْد رفض. ليس صدفة أن يكون موضوع كتاباته بعد ذلك اختيار طريقة الحياة وصعوبة معرفة ما إذا كانت قراراتك صحيحة.

يظهر موضوع اتخاذ القرار في عنوان أهم كتاب له وهو: إما / أو. يعطي هذا الكتاب الاختيار للقراء إما بعيش حياة المتعة والبحث عن الجمال، أو بعيش حياة مؤسسة على القاعد الأخلاقية المتعارف عليها، وهو اختيار بين الجمال والأخلاق. لكن الموضوع الذي ظل يرجع إليه باستمرار هو موضوع الإيمان بالإله. كانت قصة إبراهيم في صلب هذا الموضوع. بالنسبة كِيْركُغورْد، ليس الإيمان بالإله بالقرار السهل، لكنه اختيار يتطلب منك القفز في الظلام، وهو اختيار يخص الإيمان الذي يمكنه حتى أن يعارض الأفكار التقليدية التي تخص طريقة تصرفك.

لو أن إبراهيم نفذ الأمر وذبح ابنه، سيكون قد ارتكب فعلاً غير أخلاقي. للأب واجب أساسي وهو رعاية ابنه، وبالتأكيد يجب عليه أن لا يقيد ابنه على المذبح وأن يذبحه في طقس ديني. ما طلبه الإله من إبراهيم هو أن يتجاهل الأخلاق وينفذ قفزة الإيمان. يُقَدّم إبراهيم في الكتاب المقدس كإنسان رائع لتجاهله الإحساس الأخلاقي بالصحيح والخطأ ولاستعداده للتضحية بإسحاق. لكن هل كان إبراهيم سيرتكب احتمالاً فعلاً شنيعًا؟ ماذا لو كانت الرسالة غير صادرة عن الإله؟ ربما كان ذلك مجرد

هلوسة؛ ربما كان إبراهيم مجنونا ويسمع أصواتًا. كيف كان له أن يتأكد يقينا من الرسالة؟ لو كان يعلم أن الإله سيوقف تنفيذ الأمر، سيكون آنذاك الأمر سهلاً بالنسبة لإبراهيم. غير أنه عندما رفع إبراهيم السكين ليسفك دم ابنه، كان يعتقد فعلاً أنه سيقتل ابنه. هذا هو القصد كما يصف الكتاب المقدس المشهد. كان إيمانه مذهلاً جدًا لأنه وضع ثقته في الإله عوض وضعها في اعتبارات أخلاقية تقليدية. وإلّا فلن يكون ذلك إيمانا. الإيمان يتطلب المخاطرة. غير أنه غير عقلاني: غير مؤسس على العقل.

كان كِيْركُغورْد يعتقد أن الواجبات الاجتماعية العادية كرعاية الأب لابنه ليس أحيانًا أعلى القيم التي يمكن أن توجد. يتفوق واجب طاعة الإله على واجب الأب في حماية الأبناء، وفعلاً على كل واجب آخر. من وجهة نظر إنسانية قد يبدو إبراهيم قاسي القلب وغير أخلاقي لتفكيره بالتضحية بابنه. غير أن هذا يوحي وكأن أمر الإله هو الورقة الرابحة التي تنهي اللعبة بالتفوق، أيما كان ذلك الأمر. ليست هناك أي ورقة عليا في لعبة الورق هذه، وبالتالي لم تعد الأخلاق الإنسانية مناسبة. غير أن الشخص الذي يتخلى عن الأخلاق لصالح الإيمان يتخذ قرارًا مؤلما، بمخاطرته بكل شيء، غير مدرك للفائدة التي يمكن أن يجنيها من فعله، أو ما سيحدث بعد ذلك. لا يعرف حقًا أن الرسالة هي من الإله. الذين يختارون هذه الطريق هم وحيدون تمامًا.

كان كِيْركُغورْد مسيحيًا، غير أنه كان يكره الكنيسة الدانمركية ولم يكن يقبل الطريقة التي يتصرف بها المسيحيون الراضون عن

أنفسهم حوله. كان الدين بالنسبة إليه اختيار موجع للقلب، وليس عذرًا مريحًا للاستماع إلى نشيد في الكنيسة. في رأيه شوهت الكنيسة الدنمركية المسيحية وليست مسيحية حقًا. ليس مفاجئًا أن يجعله هذا الرأي مشهورًا. كان مثل سُقرَاط يغيظ من كانوا حوله الذين لا يعجبهم نقده ويوجهون إليه ملاحظات.

لحد الآن في هذا الفصل كتبت بكل ثقة عن ما اعتقده كِيْركُغورْد. لكن تأويل ما كان يعنيه حقًا في أي من كتبه ليس بالأمر اليسير. ليس هذا شيئًا غير متوقع. إنه كاتب يدعوك إلى التفكير لنفسك. لم يكتب أبدًا باسمه الحقيقي، لكنه استعمل عوضًا عن ذلك أسماء مستعارة. مثلاً كتب الخوف والارتعاش باسم جُوْن أوف سيلانس (جُوْن الصمت). لم يكن هذا تنكرًا لمنع الناس من اكتشاف اسمه الحقيقي - كان الناس يخمنون من هو الكاتب بسهولة، وربما كان هذا هو قصده. الأسماء المختلقة لكتبه هي بالأحرى شخصيات لها طريقتها الخاصة لرؤية العالم. كانت هذه إحدى تقنيات كِيْركُغورْد ليجعلك تفهم المواقف التي يناقشها ويشجعك على المشاركة في التفكير خلال القراءة. ترى العالم من خلال أعين تلك الشخصية ويفسح لك المجال لتحدد قيمة مقارباتهم المختلفة للحياة.

تشبه قراءة أعمال كِيْركُغورْد قراء الرواية وغالبًا ما يستعمل الحكي التخيلي لتطوير أفكاره. في كتابه إما / أو، يصف المحرر المُتخَيّل للكتاب، فكتور إيرميتا، العثور على مخطوط في درج سري في مكتب مستعمل. المخطوط هو النص الأساسي للكتاب.

يفترض أنه كُتب من طرف شخصين مختلفين، يصفهم كـ (أ) و(ب). الأول باحث عن المتعة، تدور حياته حول تجنب الملل بالبحث عن إثارة جديدة. ويتحدث عن قصة إغراء فتاة شابة في شكل مذكرات والتي تُقرأ كقصة قصيرة وتعكس بطريقة ما علاقة كِيْركُغورْد بريجين. يهتم الباحث عن المتعة، بخلاف كِيْركغورْد، فقط بمشاعره الخاصة. يُقدَّم الفصل الثاني من الكتاب على أساس أنه مكتوب وكأنه من طرف قاضي يدافع عن طريقة أخلاقية للحياة. يعكس أسلوب الفصل الأول اهتمامات (أ)، إذ يتكون من مقاطع قصيرة حول الفن، الأوبرا والإغراء. وكأن الكاتب لا يستطيع التركيز على موضوع واحد لوقت طويل. كُتب الجزء الثاني بأسلوب رصين ومطنب يعكس رؤية القاضي للحياة.

في حالة ما إذا كنت تشعر بالأسف مِنْ أَجْلِ ريجين أولسن، فهي، على فكرة، تزوجت بعد علاقتها المترددة كِيْركُغورْد، موظفًا ويبدو أنها عاشت سعيدة بقية حياتها. لم يتزوج كِيْركُغورْد أبد، ولم يتخذ حتى أي صديقة بعد فسخ الخطوبة. كانت فعلاً حبه الحقيقي، وكانت علاقتهما الفاشلة مصدر كل شيء تقريبًا كتبه في حياته القصيرة والمعذبة.

مثل عدد من الفلاسفة، لم يكن كِيْركُغورْد مُقدَّرًا تمامًا خلال حياته القصيرة - توفي عن عمر يناهز 42 سنة فقط. غير انه في القرن العشرين أصبحت كتبه مشهورة بفضل الوجوديين مثل جَان بوْل سَارْتَر (الفصل 33) الذين أعجبوا بأفكاره عن

الكرب الذي يصيب الإنسان عند اختياره القيام بشيء ما في غياب أي قواعد موجودة مسبقًا.

بالنسبة كِيْركُغورْد، كانت وجهة النظر الشخصية وتجربة الفرد في اتخاذ قرارات كلها مهمة. كان كَارْل مِارْكس نظرة أوسع. كان له، مثل هِيْغِل، نظرة شاملة للطريقة التي يتكشف بها التاريخ والقوى التي كانت وراء تطوره. بخلاف كِيْركُغورْد، لم يرى مِارْكس أي أمل في الخلاص عن خلال الدين.



الفصل السابع والعشرون



كَارْل مِارْكس

يا عمال العالم اتحدوا

في القرن التاسع عشر كانت هناك الآلاف من مصانع القطن في شمال إنكلترا. كان الدخان الأسود يتدفق من مداخنها، ويلوث الشوارع وغطت كل شيء بالسُّخام. كان بداخلها نساء ورجال وأطفال يشتغلون لساعات طوال جدًا – 14 ساعة يوميًا – حتى تبقى آلات الغزل مشتغلة. لم يكونوا عبيدًا لكن أجورهم كانت متدنية جدًا وظروفهم صعبة وغالبًا خطيرة. إذا ما فقدوا التركيز، يمكن أن يقعوا في قبضة آلة ويفقدوا عضوا أو حتى يقتلوا. كان العلاج الطبي أساسي في هذه الظروف. كان لهم القليل من الاختيار مع كل ذلك: إذا لم يشتغلوا، يموتوا جوعًا، وإذا

غادروا العمل، فلن يجدوا شغلاً آخر. الناس الذين اشتغلوا في هذه الظروف لم يعيشوا طويلاً. وكانت هناك لحظات قليلة جدًا في حياتهم يمكنهم تسميتها لحظات خاصة بهم. وفي نفس الوقت، ازداد مالكي المصانع غنى. كان همهم الأساسي هو تحقيق الربح. كانوا يملكون رأس المال (المال الذين يستثمرونه لكسب المزيد من المال)؛ وكانوا يملكون البنايات والآلات؛ وإلى حد ما كانوا يملكون العمال. وكان العمال لا يملكون شيئًا. كل ما كان بإمكانهم فعله هو مساعدة مالكي المصانع أن يصبحوا أغنى. كانوا يضيفون بشغلهم قيمة إلى المواد الخام التي كان ملاك المصانع يشترونها. عندما تم جلب القطن إلى المصنع كانت قيمته أقل بكثير من قيمته عندما غادر المصنع. غير أن تلك القيمة المضافة تكون في الغالب من نصيب المالكين عندما يبيعون المنتوج من القطن. أما بالنسبة للعمال، فقد كان مالكي المصانع يؤدون لهم أجورًا تكفيهم فقط للبقاء على قيد الحياة. لم يكن للعمال أي تأمين عن الشغل. إذا انخفض الطلب على ما كانوا يصنعون، كان عدد منهم يُسرّح ويُترك ليواجه الموت إذا لم يجد عملاً آخر. عندما بدأ الفيلسوف الألماني كَارْل مِارْكس (1818 – 1883) الكتابة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانت هذه هي الظروف القائمة التي خلقتها الثورة الصناعية ليس فقط في إنكلترا بل في أوروبا كلها. أغضب هذا الوضع كَارْل مِارْكس.

كان مِارْكس يؤمن بالمساواة: كان يعتقد بأنه يجب أن تُعامل المخلوقات البشرية بالتساوي. لكن في النظام الرأسمالي، هؤلاء

الذين يملكون المال - من ثروة مصدرها الإرث - أصبحوا أغنى وأغنى. في نفس الوقت، هؤلاء الذين ليس لديهم شيء غير جهدهم لبيعه عاشوا حياة بائسة وتم استغلالهم. من وجهة نظر مِارْكس، يمكن تفسير التاريخ الإنساني بأكمله كصراع بين الطبقات: الصراع بين الطبقة الرأسمالية الغنية (البورجوازية) والطبقة العاملة أو البروليتاريا. أوقفت هذه العلاقة المخلوقات البشرية من تحقيق إمكاناتهم وحولت عملهم إلى شيء مؤلم عوض أن يكون موجها لإنجاز نوع من العمل.

مِارْكس، رجل ذو طاقة كبيرة وسمعة في خلق المشاكل، قضى معظم حياته في الفقر، متنقلاً من ألمانيا إلى باريس، ثُمَّ إلى بروكسيل فارًا من الاضطهاد. استقر أخيرًا في لندن. عاش هناك مع أبنائه السبعة وزوجته جيني، وخادمة، هيلين ديموث، التي كان له منها ابنا غير شرعي. ساعده صديقه فرِيدْرِيك إِنْجِلز على الحصول على شغل ككاتب مقالات للصحف، وحتى أنه تبنى ابنه غير الشرعي لينقذ ماء وجهه. لكن عائلة مِارْكس لم يكن لديها المال الكافي. كانوا غالبًا يعانون من المرض والجوع والبرد. النتيجة المأساوية كانت موت ثلاثة من أبناءه قبل سن البلوغ.

في حياته اللاحقة، كان مِارْكس معتادًا على الذهاب إلى قاعة القراءة بالمتحف البريطاني بلندن للدراسة والقراءة معظم أيام الأسبوع، أو كان يبقى في شقته المكتظة بسوهو ويملي نصوصه على زوجته لأن خط يده كان سيئًا لدرجة أنه أحيانًا لا يستطيع قراءته. أنتج في هذه الظروف الصعبة عددًا كبيرًا من المقالات

والكتب – يُكَوِّنون أكثر من خمسين مجلدًا ضخما. غيرت أفكاره حياة ملايين من الناس، بعضهم للأحسن وبعضهم الآخر للأسوأ بدون شك. غير أنه كان بالتأكيد يبدو في ذلك الوقت شخصًا غريبًا، ربما مجنون شيئًا ما. القليل من الناس هم من أدركوا أنه سيكون له شأن وتأثير.

تماهى مِارْكس مع العمال. كانت بنية المجتمع كلها تسحقهم سحقًا. لم يكن بإمكانهم العيش كمخلوقات بشرية تمامًا. في وقت قريب أدرك مالكي المصانع أنه باستطاعتهم إنتاج سلع أكثر إذا ما قسموا عملية الإنتاج إلى مهمات صغيرة. كان على كل عامل أن يتخصص في مهمة خاصة في سلسلة الإنتاج. لكن هذا جعل حياة العمال مملة لأنهم أصبحوا يؤدون عملاً روتينيًّا ومتكررًا. لم يكونوا يروا كل عملية الإنتاج وكانوا بالكاد يحصلون على مال كافي لتغذية أنفسهم. عوض أن يكونوا مبدعين، كان العمال يتعبون جدًا وتحولوا إلى أجزاء في آلية ضخمة كانت مهمتها جعل مالكي المصانع أغنى. كانوا وكأنهم ليسوا فعلاً مخلوقات بشرية – كانوا فقط بطون تحتاج للأكل مِنْ أَجْلِ ضمان استمرار عملية الإنتاج وتمكين الرأسماليين من تحقيق أرباح أكثر: ما كان مِارْكس يسميه قيمة الفائض التي يتم تحقيقها بجهد العمال.

كان أثر كل هذا على العمال هو ما سماه مِارْكس: الاغتراب. كان يعني الكثير بهذه الكلمة. أبعد العمال عن طبيعتهم الحقيقية كمخلوقات بشرية. كما أن الأشياء التي كانوا يصنعونها زادت

في اغترابهم. كانوا كلما اشتغلوا أكثر أنتجوا أكثر، وكلما ربح الرأسماليون أكثر. كان يبدو أن المنتوجات تنتقم من العمال.

غير أنه كان هناك بعض الأمل بالنسبة لهؤلاء الناس على الرغم من أن حياتهم كانت بئيسة وكانت محددة بظروفهم الاقتصادية. كان مِارْكس يعتقد أن الرأسمالية ستدمر نفسها في النهاية. كانت البروليتاريا مُعَدّة للسيطرة على وسائل الإنتاج بثورة عنيفة. وسيظهر في الأخير بعد كل هذا السفك للدماء عالم أحسن، عالم حيث لن يُستغل فيه الناس، بل سيبدعون فيه ويتعاونون مع بعضهم البعض. كل شخص سيساهم بما يستطيع تقديمه إلى المجتمع، وسيلبي المجتمع حاجياتهم في المقابل. كانت نظرة مِارْكس كالتالي: «من كل حسب قدرته، وإلى كل حسب حاجته». بالسيطرة على المصانع، سيتأكد العمال بأنه يوجد ما يكفي للجميع لتلبية حاجياتهم. لن يبقى أحد بدون أكل أو ملبس أو منزل. كان هذا المستقبل هو الشيوعية، عالم مؤسس على اقتسام نتائج التعاون.

كان مِارْكس يعتقد أن دراسته للطريقة التي يتطور بها المجتمع كشفت بأن هذا المستقبل حتمي. إنه جزء من بنية التاريخ. غير أنه يمكن التعجيل به، في البيان الشيوعي الذي كتبه مع إِنْجِلز سنة 1848، دعا عمال العالم ليتحدوا وليُسقطوا الرأسمالية. بترديدهم للسطور الافتتاحية للعقد الاجتماعي جَان جَاك رُوسُو، صرحوا بأن العمال ليس لديهم ما يخسرون غير قيودهم.

كانت أفكار مِارْكس حول التاريخ متأثرة بفكر هِيْغِل (الفصل 22) صرح هِيْغِل، كما رأينا، بأن هناك بنية مضمنة في كل شيء، وأننا نتقدم تدريجيًّا نحو عالم واع إلى حد ما بذاته. أخذ مِارْكس من هِيْغِل فكرة أن التقدم حتمي وأن التاريخ له بنية وليس فقط حدثًا بعد آخر. لكن في نسخة مِارْكس، يحدث التقدم بسبب القوى الاقتصادية التي تحركه.

بدل الصراع الطبقي، وعد مِارْكس وإِنْجِلز بعالم حيث لا أحد يملك الأرض وحيث لا يوجد توريث، حيث التعليم يُقدم مجانا، وحيث المصانع العامة تلبي حاجيات الناس. لن يكون المجتمع بحاجة إلى دين أو أخلاق. الدين حسب قولة مِارْكس المشهورة هو (أفيون الشعوب): إنه مثل مخدر يُبقي الناس دائما في وضعية تشبه النوم حتى لا يدركوا وضع القمع الذي يعيشون فيه. في العالم الجديد بعد الثورة، ستحقق المخلوقات البشرية إنسانيتها. سيكون لعملهم معنى وسيتعاونون ليستفيد الجميع. الثورة هي الطريقة لتحقيق ذلك - وهذا يعني اللجوء إلى العنف لأن الأغنياء لن يتنازلوا بسهولة عن ثرواتهم دون صراع.

كان مِارْكس يظن بأن فلاسفة الماضي وصفوا العالم، بينما كان يسعى هو إلى تغييره. كان هذا حكما شيئًا ما غير عادل تجاه هؤلاء الفلاسفة لأن العديد منهم كان سببًا في إصلاحات أخلاقية وسياسية. لكن أفكاره كان لها تأثير أكثر من أفكار أغلب الفلاسفة. كانت أفكارًا مُعْدية وملهمة لثورات عظيمة في روسيا سنة 1917 وفي أماكن أخرى. لسوء الحظ، تأكد أن الاتحاد السوفياتي - الدولة

الكبيرة التي ظهرت، وضمت روسيا ودولاً أخرى - بالإضافة إلى الدول الشيوعية الأخرى التي أحدثت في القرن العشرين وفق النموذج الشيوعي، كانت كلها قمعية، غير فعالة وفاسدة. كان تنظيم عمليات الإنتاج على المستوى الوطني أصعب بكثير مما يمكن تخيله. يدعي الماركسيون أن هذا لا يقضي على الأفكار الماركسية نفسها - ما زال بعضهم يعتقد أن رأي مِارْكس كان صائبًا في تحليله للمجتمع، ويكمن المشكل في هؤلاء الذين حكموا الدول الشيوعية من حيث أنهم لم يطبقوا المبادئ الشيوعية. يشير آخرون إلى أن الطبيعة البشرية تجعلنا أكثر تنافسًا وطمعًا مما تسمح به الشيوعية: ليست هناك إمكانية للتعاون التام، في رأيهم، بين المخلوقات البشرية في دولة شيوعية - نحن لسنا كذلك.

عندما مات بسبب مرض السل في سنة 1883، لم يكن أحد يتوقع هذا الأثر الكبير مِارْكس على التاريخ. كان يبدو أن أفكاره ستدفن معه في مقبرة هاي غيت. كانت عبارة انجلو التي كتبها على قبره: « سيبقى اسمه مذكورًا في كل العصور وكذلك أعماله »، تبدو مجرد تفكير بالتمني.

كان اهتمام مِارْكس الأساسي هو العلاقات الاقتصادية لأنها في نظره تشكل كل ما نحن عليه وما سنصبحه مستقبلاً. كان وِليَام جِيْمس، الفيلسوف البراغماتي، يعني شيئًا مختلفًا إلى حد ما عندما كتب عن (القيمة النقدية) للفكرة - بالنسبة إليه، كانت هذه القيمة هي الفعل الذي أدت إليه الفكرة، والفرق الذي أحدثته في العالم.

الفصل الثامن والعشرون



شَارْلز سَانْدِرز بِيرْس ووِليَام جِيْمس

وماذا بعد؟

سنجاب يتشبث بجدع شجرة كبيرة. من الجانب الآخر من الشجرة، يوجد صياد قريب جدًا من الجدع. كل مرة يتحرك الصياد إلى اليسار، يتحرك السنجاب بسرعة إلى يساره أيضًا، ويسرع أبعد حول الجدع، مستعملاً مخالبه للتشبث بالجدع. استمر الصياد في محاولة القبض على السنجاب لكن هذا الأخير ينجح دائما في الاختفاء. يستمر هذا لساعات، ولم يستطع الصياد إلقاء ولو نظرة خاطفة على السنجاب. هل سيكون صحيحًا أن نقول أن الصياد يدور حول السنجاب؟ فكر في الأمر. هل يدور الصياد فعلاً حول السنجاب؟

يمكن أن يكون جوابك: (لماذا تريد أن تعرف؟) التقى الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي وِليَام جِيْمس (1842 - 1910) مجموعة من الأصدقاء بالصدفة وهم يتناقشون حول نفس المثال. كان سيتعاطف مع جوابك. لم يتفق أصدقاؤه على الجواب لكنهم كانوا يناقشون السؤال وكأنه كان هناك حقيقة مطلقة للمسألة يمكنهم كشفها. قال بعضهم نعم، كان الصياد يدور حول السنجاب. قال آخرون لا، بالتأكيد لم يكن يدور حول السنجاب. اعتقدوا أنه يمكن جِيْمس أن يكون قادرًا على مساعدتهم على الجواب عن السؤال بطريقة أو بأخرى. كان جوابه مؤسسًا على الفلسفة البراغماتية.

هذا ما قاله لهم. إذا كنتم تعنون بـ (يدور حول) أن الرجل كان أولاً في شمال السنجاب، ثُمَّ بعد ذلك في الشرق، ثُمَّ الجنوب ثُمَّ الغرب، وهذا أحد معاني (دار حول)، فالجواب إذن هو أنه صحيح أن الرجل كان يدور حول السنجاب. إنه يدور حول السنجاب فعلاً بهذا المعنى. لكن إذا كنت تعني أن الصياد كان في الأول أمام السنجاب ثُمَّ بعد ذلك على يمينه، ثُمَّ خلفه ثُمَّ على شماله، وهو معنى آخر لـ (يدور حول)، فالجواب إذن لا. لأن بطن السنجاب هي دائما تواجه الصياد، والصياد لا يدور حول السنجاب بذلك المعنى. هم دائما وجها لوجه مع بعضهم البعض مع وجود الشجرة بينهم وهم يظهرون ويختفون عن بصر بعضهم البعض.

الهدف من هذا المثال هو أن نبين بأن المذهب النفعي يهتم بالنتائج العملية، (القيمة النقدية)، من النقد أي المال (Cash value) للفكر. إذا لم يكن يترتب شيء عن الجواب، فليس مهما ما تقرر. كل شيء يتعلق بسبب رغبتك في أن تعرف وبالفرق الذي سيحدثه ذلك فعلاً. هنا لا توجد حقيقة وراء الاهتمامات الإنسانية الخاصة بالسؤال، والطرق الدقيقة لاستعمال فعل (يدور حول) في السياقات المختلفة. إذا لم يكن هناك اختلاف عملي، فليس هناك حقيقة في المسألة. ليست الحقيقة شيئًا يوجد هناك ينتظرنا أن نعثر عليه. الحقيقة بالنسبة جِيْمس هي ما ينفع، ما له تأثير مفيد على حياتنا.

المذهب النفعي هو مقاربة فلسفية أصبحت شعبية في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر. بدأ مع الفيلسوف والعالم الأمريكي شَارْلز سَانْدِرز بِيْرس (1839 – 1914) الذي أراد أن يجعل الفلسفة أكثر علمية مما كانت عليه. كان بِيْرس يعتقد أنه لأن يكون تصريحًا ما صحيحًا يجب أن يكون هناك تجربة أو ملاحظة ممكنة لدعمه. إذا قلت أن (الزجاج هش)، ما يعنيه هذا هو أنه إذا ضربت الزجاج بمطرقة، فسوف يتكسر إلى شظايا صغيرة جدًا. هذا هو ما يجعل هذا التصريح، (الزجاج هش)، صحيحًا. ليست هناك خاصية ظاهرة للهشاشة التي تسم الزجاج غير حقيقة ما يحدث عندما تضربه. (الزجاج هش) هو تصريح صحيح بسبب هذه النتائج العملية. (الزجاج شفاف) هو صحيح أيضًا لأنه يمكننا الرؤية من خلاله، وليس بسبب

خاصية غامضة في الزجاج. كان بِيرْس يكره النظريات التجريدية التي لا تحدث فرقًا في الواقع. كان يعتبرها كلام فارغ. الحقيقة بالنسبة له هي ما ننتهي بالحصول عليه إذا كنا نقدر على تفعيل التجارب والبحوث التي نحب فعلها على المستوى المثالي. هذا قريب جدًا من الوضعية المنطقية لآير والذي هو موضوع الفصل 32.

لم تكن أعمال بِيرْس تُقرأ على نطاق واسع، لكن أعمال وِليَام جِيْمس كانت على العكس من ذلك. كان كاتبًا جيدًا – كأخيه المشهور الروائي وكاتب القصة القصيرة هنري جِيْمس أو أحسن منه. أمضى وِليَام العديد من الساعات في مناقشة المذهب النفعي مع بِيرْس عندما كانوا معًا أساتذة محاضرين بجامعة هارفرد. اشتغل جِيْمس على نسخته لهذه المناقشة ونشرها على شكل مقالات ومحاضرات. بالنسبة إليه يتلخص المذهب النفعي في ما يلي: الحقيقة هي ما ينفع. غير أنه بقي غامضًا شيئًا ما حول معنى (ما ينفع). على الرغم من أنه كان عالم نفس في البداية، فهو لم يكن مهتم فقط بالعلم، ولكن أيضًا بقضايا الصحيح والخطأ، والدين كذلك. في الحقيقة كانت كتابته حول الدين الأكثر إثارة للجدل من بين أعماله.

تختلف مقاربة جِيْمس للحقيقة عن المقاربات التقليدية. في هذا التقليد تتطابق الحقيقة مع الوقائع. ما يجعل جملة ما صحيحة في نظرية التطابق للحقيقة هو أنها تصف العالم كما هو بطريقة دقيقة. (القط فوق البساط) هي جملة صحيحة إذا كان القط فعلاً

جالسًا على البساط، وغير صحيحة إذا لم يكن جالسًا عليها، عندما يكون مثلاً خارجًا يبحث عن الفئران. حسب النظرية النفعية للحقيقة جِيْمس، ما يجعل جملة (القط فوق البساط) صحيحة هو اعتقادنا بأنها تُنتج نتائج عملية مفيدة بالنسبة لنا. أي تنفعنا. مثلاً الاعتقاد بأن القط فوق البساط يمنحنا نتيجة وهي أننا نعرف أنه لا يمكننا أن نلعب مع السنجاب فوق ذلك البساط حتى يذهب القط إلى مكان ما.

الآن عندما نستعمل مثال (القط فوق البساط)، فإن نتائج هذه النظرية النفعية للحقيقة لا تبدو مفيدة أو مهمة بالخصوص. لكن جربها مع الجملة (الإله موجود). ماذا تتوقع أن يقول جِيْمس بهذا الخصوص؟

هل الإله حقًا موجود؟ ما رأيك؟ الأجوبة الأساسية هي: «نعم صحيح أن الإله موجود»، (لا الإله غير موجود)، أو (لا أعرف). من المفترض أنك أجبت بأحد هذه الأجوبة إذا كنت قد فكرت في سؤالي قبل قراءة هذا الكتاب. لهذه المواقف أسماء: الإيمان بوجود إله، الإلحاد، اللا أدرية. هؤلاء الذين يقولون (نعم، الإله موجود) عادة ما يعنون أن هناك شخص أعلى في مكان ما وأن جملة (الإله موجود) ستكون صحيحة حتى لو لم يكن هناك مخلوقات بشرية أحياء، أو لم يوجدوا أصلاً. (الإله موجود) و(الإله غير موجود) كلاهما جملة إما صحيحة أو خاطئة. لكن ليس ما نعتقده هو الذي يجعلهم إما جمل صحيحة أو خاطئة. إنهما إما جمل صحيحة أو خاطئة بغض

النظر عن ما نعتقد بشأنهم. فقط نتمنى أن يكون جوابنا صحيحًا عندما نفكر فيهم.

قدم جِيْمس تحليلاً مختلفًا إلى حد ما لجملة (الإله موجود). كان يعتقد أن الجملة صحيحة. ما جعلها صحيحة هو أنه في رأيه اعتقاد مفيد للإنسان. بوصوله إلى هذه الخلاصة، ركز على فوائد الاعتقاد بأن الإله موجود. كان هذا موضوعًا مهما بالنسبة إليه وألف كتابه حوله عنوانه ضروب التجربة الدينية (1902) ناقش فيه مجموعة من الآثار التي يمكن أن يحدثها الاعتقاد الديني. بالنسبة جِيْمس، أن تقول أن (الإله موجود) هي جملة صحيحة فأنت تعني أنه أمر جيد بطريقة ما للمعتقِد أن يعتقده. هذا موقف مفاجئ إلى حد ما. إنه يشبه قليلاً فكرة بَاسْكَال التي اطلعنا عليه في الفصل 12: أن اللا أدريين لم يروا أي فائدة في الاعتقاد بأن الإله موجود. غير أن بَاسْكَال كان يعتقد بأن الوجود الواقعي للإله هو الذي يجعل (الإله موجود) جملة صحيحة وليس إحساس مخلوقات بشرية أنها أحسن عندما يؤمنون بالإله، أو أنهم أصبحوا أحسن بسبب إيمانهم بالإله. كان دليله فقط طريقة لإقناع اللا أدريين بما كان يعتبره صحيحًا. بالنسبة جِيْمس، إنها الحقيقة المفترضة بان الإيمان بالإله ينفعنا بطريقة مرضية هي التي تجعل (الإله موجود) صحيحة.

لنوضح هذه القضية أكثر، خذ مثلاً الجملة (سانتا كلوس موجود). هل هي صحيحة؟ هل ينزل إلى بيتك رجل بوجه عريض، أحمر ومبتسم عبر المدخنة كل ليلة عيد الميلاد محملاً

بكيس من الهدايا؟ لا تقرأ بقية هذه الفقرة إذا تعتقد أن هذا يحدث فعلاً. غير أني أخمن أنك لا تؤمن بأن سانتا كلوس موجود حتى لو أنك تعتقد أنه شيئًا ظريفًا لو كان موجودًا. سخر الفيلسوف البريطاني بِرتْرَانْد رَاسِل (الفصل 31) من النظرية النفعية للحقيقة جِيْمس بقوله أنه كان على جِيْمس أن يؤمن بأن (سانتا كلوس موجود) صحيحة. كان سبب قوله ذلك هو أن جِيْمس يعتقد أن كل ما يجعل جملة صحيحة هو أثرها على المعتقد لإيمانه بها. بالنسبة لأغلب الأطفال، على الرغم من ذلك، الإيمان بوجود سانتا كلوس هو شيء عظيم. إنه يجعل من عيد الميلاد مناسبة متميزة بالنسبة لهم. سيجعلهم يتصرفون جيدًا. وسيشغلهم في الأيام التي تسبق عيد الميلاد. إنه اعتقاد ينفعهم. لأن الاعتقاد في الشيء يجعله نافعًا بمعنى ما، يبدو أن هذا يجعله صحيحًا حسب نظرية جِيْمس. المشكل هو أن هناك فرق بين ما سيكون جميلاً لو أنه كان صحيحًا وما هو صحيح فعلاً. كان يمكن جِيْمس أن يشير إلى أنه إذا كان الاعتقاد في سانتا كلاوس ينفع الأطفال، فإنه لا يصلح للجميع. لو كان الآباء يعتقدون أن سانتا كلاوس سيقدم الهدايا في ليلة عيد الميلاد، لما خرجوا لشراء الهدايا. لن يتأخر اكتشاف أن الاعتقاد (سانتا كلاوس موجود) غير صحيح عن صباح يوم العيد. لكن هل هذا يعني أن وجود سانتا كلاوس صحيح بالنسبة للأطفال وخاطئ بالنسبة للكبار؟ ألَا يجعل ذلك الحقيقة ذاتية، مسألة لها علاقة بكيف نحس تجاه الأشياء عوض أن تكون الطريقة التي يوجد عليها العالم؟

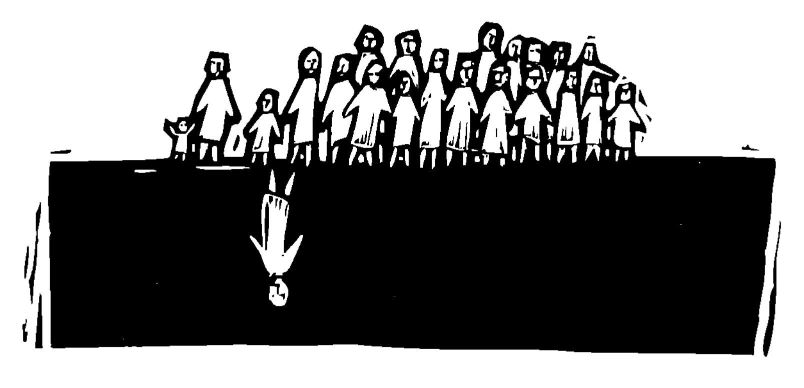
لنأخذ مثالاً آخر. كيف لي أن أعرف أن الناس الآخرين لهم عقول؟ أعرف من تجربتي الخاصة بأنني لست ميتًا حيًّا بدون حياة داخلية. دِيْ أفكاري الخاصة ونواياي وهكذا دواليك. لكن كيف لي أن أعرف أن الناس حولي لهم أفكار على الإطلاق؟ ربما ليسوا واعين. ألَا يمكن أن يكونوا أمواتًا أحياء يتصرفون بطريقة تلقائية دون أن تكون لهم عقول خاصة؟ هذا هو مشكل العقول الأخرى الذي أزعج الفلاسفة لوقت طويل. إنه لغز يصعب حله. كان جواب جِيْمس هو أنه صحيح بالتأكيد أن الناس الآخرين لهم عقول، وإلّا لن نقول قادرين على تحقيق رغبتنا في أن يُعترف بنا ويُعجب بنا الناس الآخرون. هذا نوع قديم من الحجاج يجعل مذهبه النفعي يبدو كتفكير بالتمني - أي الاعتقاد في ما تريده أن يكون صحيحًا سواء كان صحيحًا فعلاً أم لا. لكن لأنه فقط يمنحك شعورًا جيدًا أن تعتقد أنه عندما يمدحك شخصًا فهو شخص واع وليس بروبو، فهذا لا يجعل منه شخصًا واعيا. يمكن أن لا تكون له أي حياة داخلية.

في القرن العشرين، استمر الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي في هذا الأسلوب من التفكير البراغماتي. كان يعتبر الكلمات، مثل جِيْمس، كأدوات نستعملها لفعل أشياء عوض أن تكون رموزًا تعكس بطريقة ما العالم كما هو موجود. تسمح لنا الكلمات بالتعامل مع العالم وليس نَسْخه. صرح بأن الحقيقة هي ما يسمح لك به معاصروك أن تفلت به وأنه لا توجد فترة من التاريخ نكون فيها أقرب إلى الواقع من أخرى. يعتقد رورتي أنه عندما

يصف الناس العالم، فإنهم مثل النقاد الأدبيين وهم يقدمون تأويلاً لمسرحية لشكسبير: ليست هناك طريقة واحدة صحيحة لقراءته التي يمكن أن نتفق عليها. ناس مختلفون في أوقات مختلفة يؤولون النص بطرق مختلفة. رفض رورتي فقط فكرة أن رؤية ما تكون صحيحة في كل الأزمان. يعتقد رورتي احتمالاً أنه ليس هناك تأويل صحيح له، بنفس المعنى الذي فكر فيه جِيْمس حول عدم وجود جواب صحيح عن ما إذا كان الصياد يدور حول السنجاب الذي كان يحاول الاختفاء باستمرار.

معرفة ما إذا كان هناك تأويل صحيح لكتابات فرِيدْرِك نِيْتشَه هو أيضًا سؤال مهم.

الفصل التاسع والعشرون



فِرِيدْرِك نِيْتشَه

موت الإله

(مات الإله). كانت هذه أهم الكلمات التي كتبها الفيلسوف الألماني فِرِيدْرِك نِيْتشَه (1944 – 1900). لكن هل يمكن للإله أن يموت؟ من المفروض أن الإله لا يموت. الكائنات الخالدة لا تموت. إنهم يعيشون للأبد. بطريقة ما هذا هو الهدف على أية حال. لهذا يبدو موت الإله غريبًا جدًا: القصد هو أن يبدو كذلك. كان نِيْتشَه يلعب عن قصد على فكرة أن الإله لا يمكن أن يموت. لم يقل بطريقة مباشرة أن الإله كان حيًا في زمن ما والآن هو ليس كذلك؛ بالأحرى لم يعد الاعتقاد في الإله أمرًا معقولاً. في كتابه العلم المرح (1882)، وضع نِيْتشَه هذا السطر في فم

شخصية كان يحمل فانوسًا ويبحث عن الإله في كل مكان، لكنه لم يجده. اعتقد سكان القرية بأنه مجنون.

كان نِيْتشَه رجلاً متميزًا. عُين كأستاذ في جامعة بازل في سن 24 سنة، وكان يبدو مهيأ لمهنة أكاديمية متميزة. لكن هذا المفكر الغريب والأصيل لم يندمج ولم يخضع لمواضعات المجتمع وكان يبدو أنه يحب أن يجعل حياته صعبة بالنسبة إليه. في الأخير غادر الجامعة في سنة 1879، جزئيًّا بسبب صحته العليلة، وسافر إلى إيطاليا، فرنسا وسويسرا، وكان يكتب كتبًا لم يقرأها أي أحد إلّا نادرًا في ذلك الوقت، وهي كتب مشهورة الآن ككتب أدبية وفلسفية. تدهورت صحته النفسية وأمضى ما تبقى من حياته في مستشفى الأمراض العقلية.

في تعارض تام مع التقديم المُنَظّم للأفكار لإمانويل كَانْط، كانت أفكار نِيْتشَه تأتيك من كل الزوايا. كانت أغلب كتابته في شكل فقرات متشظية وقصيرة، وتعاليق قصيرة وقوية، بعضها ساخر وأخرى جدية، والكثير منها فيه كبرياء واستفزاز. أحيانًا تحس وكأن نِيْتشَه يصرخ في وجهك، وأحيانًا يهمس شيئًا عميقًا في أذنك. غالبًا ما يريد القارئ أن يتآمر معه وكأنه يقول له أنت وأنا نعرف كيف هي الأمور، لكن هؤلاء الناس الأغبياء هناك يعانون كلهم من الأوهام. من المواضيع التي يرجع إليها باستمرار هو مستقبل الأخلاق.

إذا مات الإله، ماذا سيأتي بعده؟ هذا هو السؤال الذي سأل نِيْتشَه نفسه. كان جوابه هو أنه غادرنا دون أن يترك أي

أساس للأخلاق. إن أفكارنا عن الصحيح والخطأ والخير والشر لا يكون لها معنى إلّا في عالم يُوَحِّد فيه الإله. ليس لهم أي معنى في عالم بدون إله. خذ الإله وستأخذ معه إمكانية وجود توجيهات واضحة حول الكيفية التي يجب أن نعيش بها، والأشياء التي سنعطيها قيمة. إنها رسالة قاسية ولا أحد من معاصريه كان يريد سماعها. وصف نفسه كإنسان لا يؤمن بالأخلاق، ليس شخصًا يفعل الشر عن قصد، بل شخص يعتقد أنه يجب أن نتجاوز كل الأخلاق: كان عنوان أحد كتبه، ما وراء الخير والشر.

بالنسبة نِيْتشَه، فتح موت الإله إمكانيات جديدة للإنسانية. إنها مرعبة ومنعشة معًا. كان الجانب السلبي هو عدم وجود أمان ولا قواعد تنظم العيش والوجود. حيث كان الدين يمنحنا المعنى وحدود الفعل الأخلاقي، جعل غياب الإله كل شيء ممكنا وأزال كل الحدود. كان هذا القلب على الأقل من وجهة نظر نِيْتشَه يعني أنه يمكن للأفراد أن يخلقوا قيمهم الخاصة. يمكنهم أن يحولوا حياتهم إلى معادل للأعمال الفنية وذلك بتطوير أسلوب للحياة خاص بهم.

كان نِيْتشَه يرى أنه حالما تقبل أن الإله غير موجود، لا يمكنك فقط أن تتشبث بالرؤية المسيحية للصحيح والخطأ. سيكون ذلك خداع للذات. القيم التي ورثتها هذه الثقافة مثل قيم الشفقة واللطف والتقدير تجاه الناس الآخرين يمكن وضعها موضع تساؤل. كانت طريقته في فعل ذلك هو البحث في أصول هذه القيم.

بالنسبة نِيْتشَه، كانت للقيم المسيحية المتعلقة بالعناية بالضعيف واليائس أصول مفاجئة. يمكن أن تعتقد أن الشفقة واللطف هي أخلاق جيدة بالتأكيد. ربما أُنشأت على مدح اللطف واحتقار الأنانية. ما كان يدعيه نِيْتشَه هو أن بنية الأفكار والمشاعر التي نملكها لها تاريخ. حالما تعرف تاريخ أو جينيالوجيا تَكَوُّن المفاهيم التي لدينا، سيصعب التفكير فيها كمفاهيم ثابتة في كل الأزمان وكحقائق موضوعية ترشدنا إلى السلوك الصحيح.

في كتابه جينيالوجيا الأخلاق وصف الوضع في اليونان القديمة حيث كان الأبطال الأرستقراطيون الأقوياء يقيمون حياتهم على أفكار مثل الشرف، العار والبطولة في الحروب عوض اللطف والكرم والشعور بالذنب تجاه الأخطاء. هذا هو العالم الذي وصفه هوميروس في الإلياذة والأوديسة. في عالم الأبطال هذا، كان هؤلاء الذين لا قوة لهم كالعبيد والضعفاء يغارون من الأقوياء. وجه العبيد حسدهم وحقدهم ضد الأقوياء. خلقوا مجموعة من القيم من هذه المشاعر السلبية. فقلبوا القيم البطولية للأرستقراطيين على رأسها. عوض الاحتفاء بالقوة والسلطة مثل الأرستقراطيين، جعل العبيد من الكرم والعناية بالضعيف فضائل. تعاملت أخلاق العبيد كما يسميها نِيْتشَه مع أفعال الأقوياء كشر ومع مشاعر زملائهم كخير.

كانت فكرة أن أخلاق اللطف كانت لها بدايات في مشاعر الغيرة صعبة على الاستيعاب. أظهر نِيْتشَه تفضيلاً لأخلاق الأرستقراطيين، الاحتفاء بأبطال الحروب الأقوياء، على الأخلاق

المسيحية للشفقة بالضعيف. تَعْتَبِر المسيحية والأخلاق المنبثقة عنها الأفراد كمتساوين في القيمة؛ كان نِيْتشَه يعتقد أن هذا خطأ جسيم. كان أبطاله الفنانون مثل شكسبير وبيتهوفن أعلى بكثير من القطيع. يبدو أن الرسالة هي أن الأخلاق المسيحية التي انبثقت عن الغيرة تُأَخِّر الإنسانية. يمكن أن يكون الثمن هو سحق الضعيف، لكنه ثمن يستحق الدفع مِنْ أَجْلِ المجد والإنجاز الذين فُسح هذا المجال لهما بالنسبة للأقوياء.

في كتاب هكذا تكلم زرادشت، كتب نِيْتشَه عن الإنسان الفائق. يصف هذا شخصًا متخيلاً في المستقبل الذي تعيقه القوانين الأخلاقية التقليدية ويتجاوزها ليخلق قيما جديدة. قد يكون نِيْتشَه تأثر بفهمه لنظرية التطور شَارْلز داوين، لذلك كان يرى أن الإنسان الفائق كمرحلة لاحقة في التطور الإنساني. إن هذا التصور مقلق شيئًا ما لأنه يبدو أنه يؤيد جزئيًّا هؤلاء الذين يرون أنفسهم أبطالاً ويريدون أن يشقوا طريقهم دون أي اعتبار لمصالح الناس الآخرين. أسوأ من ذلك، إنها فكرة أخذها النازيون من أعمال نِيْتشَه واستعملوها لدعم أرائهم المشوهة عن جنس أسمى، غير أن أغلب الباحثين أكدوا أن النازيين حرّفوا ما كتبه نِيْتشَه فعلاً.

كان نِيْتشَه سيئ الحظ من حيث أن أخته أليزابيث تحكمت في مصير كتبه بعد أن فقد عقله ولمدة ثلاث وثلاثون سنة بعد وفاته. كانت أليزابيث ألمانية ذات نزعة قومية متطرفة وكانت معادية للسامية. بحثت في مخطوطات نِيْتشَه واختارت المقاطع

التي تتفق معها وحذفت أي شيء ينتقد ألمانيا أو يتعارض مع آرائها العنصرية. حولت نسختها لأفكار نِيْتشَه التي تعرضت للتعديل ونُشرت ككتاب يحمل عنوان إرادة القوة كتابته إلى دعاية للنازية وأصبح نِيْتشَه كاتبًا مقبولاً في فترة الحكم النازي. من المحتمل جدًا أنه لو عاش نِيْتشَه أكثر لكان غير متفق مع ما نُشر. غير أنه من الأكيد أن هناك مقاطع في أعماله تدافع عن حق القوي في سحق الضعيف. يقول إنه ليس مفاجئًا أن تكره الحملانُ الصقور. لكن هذا لا يعني أنه يجب كره الصقور لخطفها الحملان والتهامها.

خلافًا لإيمانويل كَانْط الذي احتفى بالعقل، كان نِيْتشَه يؤكد دائما على الدور الذي تلعبه المشاعر والقوى اللا عقلانية في تشكيل القيم. أثرت آرائه إلى حد بعيد في سِيغمُونْد فروِيد الذي استكشفت أعماله طبيعة وقوة الرغبات اللا واعية.



الفصل الثلاثون



سِيغمُونْد فروِيد

أفكار متنكرة

هل يمكن أن تعرف نفسك حقًا؟ كان الفلاسفة القدماء يعتقدون أنه يمكننا معرفة ذواتنا. ماذا لو كانوا مخطئين؟ ماذا لو كانت هناك أجزاء من عقلنا لا يمكننا الوصول إليها مباشرة، مثل غرفة مقفلة باستمرار ولا يمكنك الدخول إليها أبدًا؟

يمكن أن تكون المظاهر خادعة. عندما تنظر إلى الشمس في الصباح الباكر، يبدو أنها تطلع من وراء الأفق خلال النهار تتحرك عبر السماء وتغرب. يغرينا هذا بأن نعتقد بأن الشمس تدور حول الأرض. كان الناس يعتقدون هذا لقرون عديدة. غير أن هذا غير صحيح. أدرك هذا نِيكُولَاس كوبرنيكوس في

القرن السادس عشر، غير أن هناك عددًا من علماء الفلك كانت لهم شكوك من قبل. كانت الثورة الكوبرنيكية، كون الأرض ليست مركز الكون، صادمة.

حمل منتصف القرن التاسع عشر مفاجأة أخرى كما رأينا (الفصل 25). حتى ذلك الوقت كان يبدو أن الناس يعتقدون أن المخلوقات البشرية هي مختلفة تمامًا عن الحيوانات وأن كل المخلوقات خلقها الإله. غير أن نظرية دَارْوِين للتطور عبر الانتقاء الطبيعي بينت أن المخلوقات البشرية لها أجداد مشتركين مع القرود، وأنه لم تكن هناك حاجة لافتراض أنهم خلقوا من طرف الإله. إنها عملية غير مشخصنة. بينت نظرية دَارْوِين كيف أننا انحدرنا من مخلوقات تشبه القرود وكيف أننا نشبههم. ما زالت آثار نظرية دَارْوِين حاضرة إلى اليوم.

حسب سِيغمُونْد فروِيد (1856 – 1939)، حصلت ثالث ثورة عظيمة في تاريخ الفكر البشري باكتشافه لللا وعي. أدرك أن الكثير من الأفعال التي نقوم بها هي موجهة من طرف رغبات مخفية عنا. لا يمكننا الوصول إليها مباشرة، لكن ذلك لا يمنعهم من التأثير في ما نفعل. هناك أشياء نريد فعلها ولا ندرك أننا نريد فعلها. لهذه الرغبات اللا إرادية تأثير عميق على حياتنا وعلى الطريقة التي ننظم بها المجتمع. إنها مصدر المظاهر الأسوأ والأحسن في الحضارة الإنسانية. كان فروِيد مسؤولاً عن هذا الاكتشاف على الرغم من أننا نجد فكرة مشابهة في بعض أعمال نِيْتشَه.

فروِيد الذي كان عالما نفسيًّا وبدأ حياته كطبيب للأمراض العصبية، عاش في فيينا عندما كانت النمسا جزءًا من الإمبراطورية النمساوية الهنغارية. كان ينتمي إلى عائلة من الطبقة الوسطى من أب يهودي، وكان نموذجًا للشباب المتعلم والناجح في هذه المدينة الكبيرة في نهاية القرن التاسع عشر. أثار اشتغاله مع بعض المرضى الشباب انتباهه على نحو متزايد إلى تلك الأجزاء من العقل التي تتحكم، حسب اعتقاده، في السلوك وتخلق مشاكل عبر آليات لا يدركونها. كان مهتما جدًا بمرض الهستريا والاضطرابات العصبية الأخرى. كان المرضى المصابون بالهستريا أغلبهم نساء وغالبًا ما كانوا يمشون خلال النوم ويهذيون ومنهن من أصبن حتى بالشلل. غير أنه لم يكن معروفًا ما كان يتسبب في كل ذلك. لم يستطع الأطباء العثور على سبب عضوي لكل هذه الأعراض. من خلال اهتمامه الدقيق بوصف المرضى لمشاكلهم ومعرفة تاريخ حياتهم الخاصة، اقترح فروِيد تفسيرًا بأن المصدر الحقيقي لمشاكل هؤلاء الناس هو نوع ما من ذكرى أو رغبة مزعجة. هذه الذكرى أو الرغبة كانت لا واعية ولم تكن لهم أي فكرة عن وجودها.

كان فروِيد يطلب من مرضاه الاستلقاء على أريكة والتحدث عن أي شيء يمكن أن يفكروا فيه، وغالبًا ما كان هذا يجعلهم يشعرون أحسن لأنه يسمح للأفكار بالإفلات. هذا التداعي الحر الذي يسمح للأفكار أن تتدفق أنتج نتائج مدهشة بتحويله ما كان لا واعيا من قبل إلى شيء مُدْرَك كما أنه طلب من مرضاه

أن يحكوا عن أحلامهم. حرر هذا العلاج بالكلام، بطريقة ما، أفكارهم المزعجة وأزال بعضًا من الأعراض وكأن فعل الكلام حررهم من الضغط الذي تسببت فيه الأفكار التي لم يكونوا قادرين على مواجهتها. كانت هذه ولادة التحليل النفسي.

لكن ليس فقط المرضى الذين يعانون من مرض الأعصاب والهستيريا من لهم رغبات وذكريات لا واعية. حسب فروِيد، كلنا لنا رغبات وذكريات لا واعية. هذا ما يجعل الحياة في المجتمع ممكنة. نخفي عن أنفسنا ما نشعر به فعلاً وما نريد أن نفعل. بعض هذه الأفكار عنيفة وكثير منها جنسي. لا يجب السماح لها بالخروج لأنها خطيرة. يكبتهم العقل ويحتفظ بهم في اللا وعي. كثير منها تكونت عندما كنا أطفالاً. يمكن لأحداث الطفولة أن تظهر في مرحلة البلوغ. مثلاً كان فروِيد يعتقد أن كل الرجال لديهم رغبة لا واعية بقتل آبائهم وممارسة الجنس مع أمهاتهم. هذه هي عقدة أوديب المشهورة، التي سُميت على اسم أوديب الذي حقق تنبؤا يقضي بأن يقتل أباه ويتزوج أمه (دون معرفته بأنه يفعل ذلك). بالنسبة لبعض الناس، تُشكّل هذه الرغبة المبكرة والغريبة حياتهم تمامًا دون أن يكونوا واعين بها. يمنع شيء ما في العقل هذه الأفكار الأكثر سوادًا من الخروج في أشكال معروفة. لكن أي كان هذا الذي يمنع هذه الأفكار ورغبات لا واعية أخرى من أن يصبحوا مُدْرَكين بالوعي، فهو ليس ناجحًا تمامًا. تتمكن الأفكار على الرغم من ذلك من الخروج لكن في شكل متنكر. إنها تظهر في الحلم مثلاً.

بالنسبة فروِيد، كانت الأحـلام هي (الطريق الملكي للا وعي)، من أحسن الطرق للكشف عن الأفكار المخفية. الأشياء التي نراها ونعيشها في الأحلام ليست كما تبدو. هناك المحتوى الظاهر، ما يبدو أنه يحدث. لكن المعنى الكامن هو المعنى الحقيقي للحلم. هذا ما يحاول المحلل النفسي فهمه. الأشياء التي نراها في الأحلام هي رموز. إنها تحيل على الرغبات التي تستتر في عقولنا الباطنية. مثلاً الحلم الذي تظهر فيه أفعى أو مظلة أو سيف هو عادة حلم جنسي مقنع. الأفعى والمظلة والسيف هي رموز كلاسيكية فروِيد - إنها تحيل على العضو الجنسي الذكوري. وبالمثل فإن كيس نقود أو كهف يحيل في الحلم على العضو الجنسي الأنثوي. إذا وجدت هذه الفكرة صادمة أو غير معقولة، سيقول لك فروِيد ربما بأنها تبدو كذلك لأن عقلك يحميك من إدراك الأفكار الجنسية بداخلك.

طريقة أخرى يمكن أن نتعرف بها على الرغبات اللا واعية هي زلات اللسان، ما يسمى بالزلات الفرويدية، حيث تتكشف بالصدفة الرغبات التي لا ندرك أننا نملكها. عدد من مقدمي الأخبار بالتلفاز يتلعثمون وينطقون كلمة خادشة بالصدفة. سيقول محلل نفسي فرويدي بأن هذا يحدث غالبًا بمحض الصدفة.

ليست كل الرغبات اللا واعية جنسية أو عنيفة. بعضها يكشف صراعًا أساسيًّا. على مستوى الوعي يمكن أن نرغب في شيء لا نرغب فيه على مستوى اللا وعي. تخيل أنك ستجتاز امتحانا مُهِمّا يجب أن تنجح فيه مِنْ أَجْلِ الدخول إلى الجامعة. على

مستوى الوعي فأنت تفعل كل شيء مِنْ أَجْلِ الإعداد له. تبحث في الامتحانات السابقة وتُعِدّ الأجوبة على شكل تلخيصات، وتُعد المنبه للاستيقاظ باكرًا لتصل في الوقت إلى قاعة الامتحان. كل شيء يبدو مُتحكَّمًا فيه. تستيقظ باكرًا، تتناول فطورك وتركب الأوتوبيس وتدرك أنك ستصل قبل بداية الامتحان. في هذا الوقت تغفو وأنت مرتاح في الأوتوبيس. لكن عندما تستيقظ، تجد نفسك، وأنت مصدوم، بأنك ركبت الأوتوبيس الخطأ وأنك توجد الآن في المكان الخطأ من المدينة، ولم يعد لك أي فرصة للوصول إلى قاعة الامتحان في الوقت. يبدو أن خوفك من نتائج النجاح في الامتحان تفوّق على مجهوداتك الواعية. في مستوى عميق لم تكن ترغب في النجاح. كان سيكون مرعبًا أن تعترف بذلك لنفسك، لكن عقلك الباطن كشف ذلك لك.

لم يطبق فروِيد نظريته على الأشخاص الذين كانوا يتصرفون بطريقة عصابية فقط، ولكن أيضًا على المعتقدات الثقافية. قدم بالخصوص تفسيرًا لانجذاب الناس للدين. يمكن أن تؤمن بالإله، وربما تحس بوجود الإله في حياتك. غير أن فروِيد تفسيرًا لأصل الإيمان بالإله. يمكن أن تظن بأنك تؤمن بالإله لأنك تعتقد بأن الإله موجود، لكن فروِيد كان يعتقد بأنك تؤمن بالإله لأنك تشعر بأنك محتاج إلى الحماية التي كنت تشعر بها كطفل. في رأي فروِيد أُسِّست كل الحضارات على هذا الوهم – الوهم بأن شخص الأب القوي يوجد هناك في مكان ما وسيلبي حاجاتك غير المحققة في الحماية. هذا تفكير بالتمني – الاعتقاد بأن مثل

هذا الإله موجود لأن لك رغبة كبيرة في أن يكون موجودًا. ينتج هذا عن الرغبة اللا واعية في الحماية والرعاية التي ظهرت في الطفولة. فكرة الإله مريحة للبالغين الذين ما زالوا يحتفظون بهذه المشاعر من الطفولة، على الرغم من أنهم عادة لا يدركون من أين جاءت هذه المشاعر ويكبتون فعليًّا فكرة أن الإيمان بالدين هو مستمد كليًّا من حاجة نفسية غير محققة وعميقة عوض أن يكون أساسها هو وجود الإله.

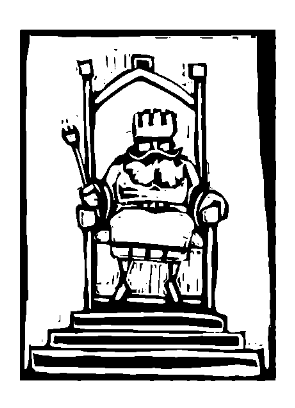
من وجهة نظر فلسفية، وَضَعت أعمال فروِيد العديد من الافتراضات موضع تساؤل، هذه الافتراضات التي فكر فيها رِينَيْ دَيْكارْت حول العقل. كان دَيْكارْت يعتقد أن العقل هو شفاف لنفسه. كان يعتقد أنه إذا كانت لك فكرة فستكون قادرًا على أن تدرك تلك الفكرة. بعد فروِيد، أصبح ضروريًّا الاعتراف بوجود نشاط عقلي لا واعي.

لكن أساس أفكار فروِيد لم يكن مقبولاً من طرف كل الفلاسفة، غير أن الكثير منهم يعترفون بأنه كان محقًا حول إمكانية وجود العقل الباطن. ادعى بعضهم أن نظريات فروِيد غير علمية. كان أشهرهم كَارْل پَوپِر (الفصل 36) الذي وصف أفكار التحليل النفسي غير قابلة للدحض. ليس هذا مدحًا بل انتقادًا. بالنسبة لپَوپِر، فإن أساس البحث العلمي هو كونه قابلاً للاختبار؛ يعني هذا أنه يمكن أن توجد ملاحظات تبين بأنه غير صحيح. لنأخذ المثل الذي قدمه پَوپِر، فإن فعل دفع طفل في النهر وفعل الغطس في النهر لإنقاذ طفل على وشك الغرق هما قابلان

للتأويل في النظرية الفرويدية. محاولة إغراق طفل أو إنقاذه هما معًا قابلان للتفسير في هذه النظرية. يمكن فروِيد أن يقول بأن الرجل الأول كان يكبت مظهرًا من الصراع الأوديبي، وهذا هو الذي أدى إلى فعله العنيف، بينما تسامى الرجل الثاني برغباته اللا واعية، أي أنه نجح في توجيهها وتحويلها إلى أفعال مقبولة اجتماعيًّا. إذا كانت كل ملاحظة ممكنة تُستعمل كدليل إضافي على صحة النظرية، كيفما كانت الملاحظة ولا يوجد أي دليل ممكن يبين بأنها خاطئة، يعتقد پَوپِر بأنه لا يمكن لهذه النظرية أن تكون علمية على الإطلاق. من جهة أخرى، يمكن فروِيد أن يجادل بأن لپَوپِر نوع ما من الرغبة المكبوتة التي تجعله عدوانيًّا تجاه التحليل النفسي.

يشترك بِرتْرَانْد رَاسِل، مفكر مختلف جدًّا عن فروِيد في أسلوبه، مع هذا الأخير في كرهه للدين، معتقدًا أن الدين هو المصدر الرئيسي لتعاسة الإنسان.

الفصل الحادي والثلاثون



بِرتْرَانْد رَاسِل

هل ملك فرنسا الحالي أصلع؟

كانت الاهتمامات الأساسية بِرتْرَانْد رَاسِل كمراهق هي الجنس، الدين والرياضيات، كلها في المستوى النظري. خلال حياته الطويلة (توفي سنة 1970 عن سن يناهز 97 سنة)، انتهى به الأمر أن يكون مثيرًا للجدل حول الأول ومهاجمًا للثاني ومقدمًا مساهمات مهمة في الثالث.

سببت له آراؤه في الجنس عدة مشاكل. في سنة 1929 نشر كتابه الزواج والأخلاق. في ذلك الكتاب، وضع الآراء المسيحية حول أهمية الإخلاص للشريك موضع تساؤل. لم يكن يعتقد بأنه يجب أن تكون مخلصًا. فاجأ رأيه عددًا من الناس.

لم يكن هذا ما أقلقه كثيرًا. كان قد قضى ستة أشهر في السجن في بريكستون لاحتجاجه ضد الحرب العالمية الأولى سنة 1916. في حياته اللاحقة، ساعد على تأسيس «الحملة مِنْ أَجْلِ نزع الأسلحة النووية»، التي هي حركة دولية معارضة لأسلحة الدمار الشامل. كان هذا الرجل العجوز والنشيط في مقدمة التجمعات العامة في ستينيات القرن العشرين، كان دائما معارضًا للحرب كما كان خمسون سنة من قبل. وكما عبر عن ذلك: «إما أن يلغي الإنسان الحرب أو أن تلغي الحرب الإنسان». لحد الآن لم يتحقق أي منهما.

كان صريحًا ومستفزًا بنفس القدر حول موضوع الدين. بالنسبة رَاسِل لم تكن هناك أي إمكانية للإله أن يتقدم وينقذ الإنسانية: تكمن إمكانيتنا الوحيدة في استعمال العقل. كان يعتقد أن الناس منجذبون للدين لأنهم كانوا خائفين من الموت. كان الدين يريحهم. كان الاعتقاد بأن إله موجود وسيعاقب الأشرار حتى لو أفلتوا من العقاب عن الجرائم في الأرض مطمئنا. لكن هذا ليس صحيحًا. الإله غير موجود. والدين أنتج تقريبًا دائما تعاسة أكثر من إنتاجه للسعادة. سمح للبوذية أن تكون دينا مختلفًا عن الديانات أخرى، غير أنه كان يعتقد أن على المسيحية والإسلام واليهودية والهندوسية أن يجيبوا عن عدد من الأسئلة. كانت هذه الديانات، عبر التاريخ، سببًا للحروب والمعاناة الفردية والكره. مات الملايين بسببهم.

يجب أن يكون واضحًا من كل هذا، على الرغم من أنه كان مسالمًا، أن رَاسِل كان مستعدًا للمواجهة والقتال (على الأقل بالأفكار) مِنْ أَجْلِ ما يعتقد أنه صحيح وعادل. حتى وهو مسالم، كان يؤمن على الرغم من ذلك أنه في حالات نادرة كالحرب العالمية الثانية، يمكن أن يكون القتال أحسن الاختيارات الممكنة.

كان بريطانيا أرستقراطيًّا بالولادة. ينحدر من عائلة مشهورة: كان لقبه الرسمي رَاسِل الإيرل الثالث. يمكن معرفة أنه أرستقراطي فقط من مظهره. كان يبدو متكبرًا بابتسامة شيطانية وعينين براقتين. يكشف صوته أنه من الطبقات العليا. يبدو في بعض التسجيلات وكأنه ينتمي إلى قرن آخر – وهو بالفعل كذلك لأنه ولد سنة 1872، كان فيكتوريا حقًا. كان جده من جهة أبيه، اللورد جُوْن رَاسِل، وزيرًا أولاً.

كان العُرّاب غير الديني لبِرتْرَانْد هو الفيلسوف جُوْن ستِيوَارْت مِيل (الفصل 24). للأسف لم يتعرف عليه أبدًا لأن مِيل مات عندما كان رَاسِل طفلاً صغيرًا. لكن كان له تأثير كبير على تطور رَاسِل. كانت قراءة سيرة حياة مِيل (1873) هي ما دفع رَاسِل إلى رفض الإله. كان يعتقد في السابق في دليل السبب الأول. هذا الدليل الذي استعمله تُومَاس الأكويني وآخرون، هو أنه يجب أن يكون لكل شيء سبب، وأن سبب كل شيء، أي السبب الأول في سلسلة الأسباب والنتائج هو بالتأكيد الإله. لكن مِيل طرح هذا السؤال: (من خلق الإله؟) وأدرك المشكل المنطقي لدليل السبب الأول. إذا كان هناك شيء

ليس له سبب، فليس صحيحًا أن كل شيء له سبب. كان أكثر عقلانية بالنسبة رَاسِل أن نعتقد بأنه حتى الإله له سبب عوض أن نسلم أن هناك شيء يمكن أن يوجد دون سبب.

عاش رَاسِل، مثل مِيل، طفولة غير عادية وغير سعيدة بالخصوص. مات والديه عندما كان صغيرًا جدًا، وكانت جدته التي كانت ترعاه صارمة وشيئًا ما غير ودودة معه. تلقى تعليمه بالمنزل على يد مدرسين خاصين، درس بكل حماس وأصبح عالما رياضيًّا وحاضر في جامعة كمبريدج. كان ما أعجبه فعلاً هو السبب الذي جعل الرياضيات صحيحة. لماذا 2+2=4 صحيحة؟ نعرف أنها صحيحة. لكن لماذا هي صحيحة؟ دفعه هذا بسرعة إلى الفلسفة.

كان حبه الحقيقي كفيلسوف هو المنطق: موضوع يقع على الحدود بين الفلسفة والرياضيات. يدرس المناطقة بنية التفكير، ويستعملون عادة الرموز للتعبير عن أفكارهم. أصبح معجبًا بفرع من الرياضيات والمنطق يسمى بنظرية المجموعات. كانت نظرية المجموعات تبدو أنها تَعِد بطريقة لتفسير بنية كل تفكيرنا، لكن رَاسِل فكر في مشكل كبير يتعلق بهذه الفكرة: إنها تؤدي إلى التناقض. كانت الطريقة التي بين بها هذا التناقض هي مفارقة مشهورة كانت تحمل اسمه.

هذا مثل لمفارقة رَاسِل. تخيل قرية يوجد فيها حلاق الذي تكون مهمته هي حلق كل (وفقط) الناس الذين لا يحلقون بأنفسهم. لو كنت أعيش هناك، من المحتمل أنني سأحلق

بنفسي - لأنني لا أعتقد أنني سأكون منظما بطريقة تمكنني من الذهاب إلى الحلاق يوميًا. لذا فإنني أستطيع أن أحلق بنفسي تمامًا. ويمكن أن يكلفني ذلك بعض المال. لكن إذا قررت أن لا أفعل، فسيكون الحلاق من سيتكلف بحلاقتي. ماذا سيقع للحلاق؟ يُسمح له بحلاقة الناس الذين لا يحلقون. حسب هذه القاعدة، فلن يستطيع حلاقة نفسه أبدًا لأنه يستطيع حلاقة الناس فقط التي لا تحلق بنفسها. سيصبح الأمر صعبًا بالنسبة إليه. إذا كان شخص ما في هذه القرية غير قادر على الحلاقة بنفسه، فالحلاق هو من سيفعل ذلك. لكن القاعدة لن تسمح للحلاق بأن يفعل ذلك لأن هذا سيحوله إلى شخص حلق بنفسه - لكن الحلاق يحلق فقط للذين لا يحلقون بأنفسهم.

يبدو أن هذه الوضعية ستؤدي إلى مفارقة مباشرة - أن تقول أن شيئًا هو صحيح وخطأ معًا. هذه هي المفارقة. إنها محيرة. ما اكتشفه رَاسِل هو انه عندما تحيل مجموعة على نفسها، يظهر هذا النوع من المفارقة. لنأخذ مثلاً مشهورًا من نفس النوع: (هذه الجملة خاطئة). هذه مفارقة أيضًا. إذا كانت الكلمات (هذه الجملة خاطئة) تعني ما تبدو أنها تعنيه (وهم صحاح) إذن فالجملة خاطئة، التي تعني حينها أن ما تصرح به هو صحيح. يبدو أن هذا يعني أن الجملة هي صحيحة وخاطئة في نفس الوقت. لكن الجملة لا يمكن أن تكون صحيحة وخاطئة في نفس الوقت. إذن فهناك مفارقة.

هذه ألغاز مهمة في حد ذاتها. ليس هناك حل سهل لهم، وهذا يبدو غريبًا. لكنهم كانوا ذا أهمية أكثر بكثير بالنسبة رَاسِل. ما فعلوه هو كشف أن بعض الافتراضات الأساسية التي فكر فيها المناطقة حول نظرية المجموعات غير صحيحة. إنهم يحتاجُوْن إلى البدء من جديد.

من بين الاهتمامات الأساسية الأخرى رَاسِل هي الطريقة التي يرتبط بها ما نقول بالعالم. كان يعتقد أنه إذا كان بإمكانه أن يفهم ما يجعل قولاً ما صحيحًا أو خاطئًا، ستكون مساهمة مهمة للفكر الإنساني. مرة أخرى كان مهتما بنفس الأسئلة التجريدية التي توجد وراء كل تفكيرنا. كان الكثير من أعماله مكرسة لفهم البنية المنطقية التي تشكل الأقوال التي ننتج. كان يحس بأن اللغة هي أقل دقة بكثير من المنطق. كانت لغتنا العادية تحتاج إلى تحليل – مستقل – للكشف عن الشكل المنطقي الذي ينظمها. كان مقتنعًا بأن الحل لتحقيق تقدم في كل مجالات الفلسفة هو هذا النوع من التحليل المنطقي للغة، والذي يتطلب ترجمتها إلى مصطلحات أكثر دقة.

لنأخذ مثلاً جملة مثل: (الجبل الذهبي غير موجود). من المحتمل أن الكل سيتفق بأن الجملة صحيحة، لأنه لا يوجد ذهب مكون من الذهب في أي مكان في العالم. يبدو أن الجملة تقول شيئًا عن شيء غير موجود. يبدو التعبير (الجبل الذهبي) أنه يحيل على شيء واقعي، لكننا نعرف أنه ليس كذلك. هذا لغز بالنسبة للمناطقة. كيف يمكننا أن نتكلم عن معنى شيء ليس

له وجود واقعي؟ لماذا ليست الجملة بلا معنى تمامًا؟ كان هناك جواب قدمه عالم المنطق النمساوي أليكسوس مينون يقول بأن كل شيء نفكر فيه أو نتكلم عنه على أساس أن له معنى فهو موجود. في رأيه، يجب أن يكون الجبل الذهبي موجودًا، لكن بطريقة خاصة سماها (البقاء في الوجود)، بنفس الطريقة التي يستمر بها وحيد القرن والرقم 27 في الوجود.

لم تَبْدُ طريقة تفكير مينون صحيحة بالنسبة رَاسِل. إنها تبدو فعلاً غريبة. فهي تعني أن العالم مليء بأشياء توجد بمعنى ما لكنها لا توجد بمعنى آخر. قدم رَاسِل طريقة أسهل لفهم كيف يمكن أن يرتبط ما نقول بالعالم. يُعرف هذا بنظرية الأوصاف. لنأخذ الجملة الغريبة التي استعملها رَاسِل نفسه: (ملك فرنسا الحالي أصلع). حتى في بداية القرن العشرين عندما كان رَاسِل يكتب لم يكن هناك ملك في فرنسا. تخلصت فرنسا من الملوك والملكات بعد الثورة الفرنسية. كيف يمكنه إذن أن يعطي معنى لهذه الجملة؟ كان جواب رَاسِل أن هذه الجملة مثل جمل اللغة العادية لا تعني ما تبدو أنها تعنيه.

هناك مشكل. إذا قلنا بأن جملة (ملك فرنسا الحالي أصلع) خاطئة، فهذا يبدو أنه يلزمنا بالقول بأن هناك ملك في فرنسا حاليًّا غير أصلع. لكن ليس ذلك ما نعنيه على الإطلاق. لا نعتقد أن هناك ملك في فرنسا حاليًّا. كان تحليل رَاسِل كالتالي: تعتبر جملة (ملك فرنسا الحالي أصلح) في الحقيقة نوع من الوصف الخفي.

عندما نتكلم عن ملك فرنسا الحالي، فالافتراضات المضمنة التي تشكل فكرتنا هي:

أ. يوجد شيء هو ملك فرنسا الحالي.

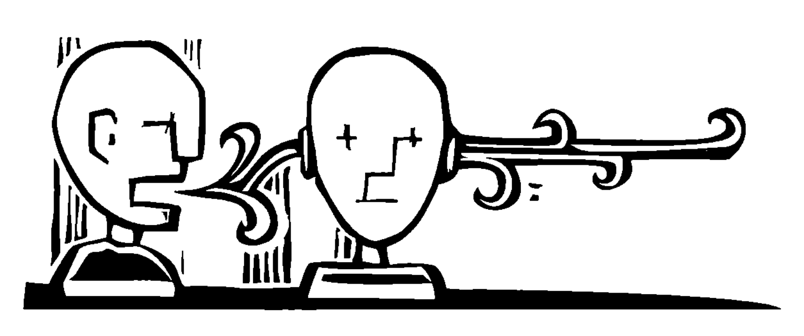
ب. هناك شيء واحد فقط الذي هو ملك فرنسا الحالي.

ج. كل شيء هو ملك فرنسا الحالي هو أصلع.

سمحت هذه الطريقة المعقدة لتفسير الأشياء رَاسِل أن يبين بأن (ملك فرنسا الحالي أصلع) يمكن أن تكون لها دلالة على الرغم من أنه لا يوجد ملك أصلع حالي في فرنسا. إن لهذه الجملة دلالة لكنها خاطئة. خلافًا لمينون، لم يكن رَاسِل بحاجة إلى أن يتخيل بأنه يجب أن يكون ملك فرنسا الحالي موجودًا (أو باقيا في الوجود). (ملك فرنسا الحالي أصلع) هي جملة خاطئة لأن ملك فرنسا الحالي غير موجود. الجملة توحي بأنه موجود؛ إذن فالجملة خاطئة عوض أن تكون صحيحة. الجملة: «ملك فرنسا الحالي غير أصلع» هي أيضًا خاطئة لنفس السبب.

بدأ رَاسِل ما يسمى أحيانًا بالتحول اللساني في الفلسفة، وهي حركة حيث بدأ الفلاسفة بالاشتغال بجد على اللغة والشكل المنطقي المضمن فيها. كان آير جزءًا من هذه الحركة.

الفصل الثاني والثلاثون



أَلْفِرد جُوْل آير

بو! هوري!

ألن يكون رائعًا لو كانت لديك طريقة لمعرفة متى يكون شخص ما يقول كلاما فارغا؟ لن يخدعك أحد مرة أخرى. سيكون بإمكانك تقسيم كل شيء تسمعه أو تقرأه إلى أقوال لها معنى وأخرى ليس لها أي معنى ولا تستحق أن تخصص أي وقت لها. اعتقد أ. ج. آير (1910 – 1989) أنه اكتشف طريقة، سماها مبدأ التحقق.

بعد قضاءه لعدة شهور في النمسا في بداية ثلاثينيات القرن العشرين كان يحضر فيها لاجتماعات مجموعة من الفلاسفة والعلماء الأذكياء الذين كانوا يُعرفون بدائرة فيينا، رجع آير لأكسفورد

حيث كان يعمل كمحاضر. في سن 24 المبكر نشر كتابًا صرح فيه أن معظم تاريخ الفلسفة كلام فارغ - أي كلام بدون معنى وإلى حد ما غير ذا قيمة. نشر ذلك الكتاب سنة 1936 وكان عنوانه: اللغة، الحقيقة والمنطق. كان جزءًا من حركة تسمى الوضعانية المنطقية، حركة كانت تحتفي بالعلم كأعظم الإنجازات البشرية.

الميتافيزيقا هي كلمة تصف دراسة أي واقع يوجد خارج نطاق حواسنا، ذلك الشيء بحث فيه كَانْط، شُوبِنهَاوَر هِيْغِل. غير أنه بالنسبة لآير، فإن الميتافيزيقا كلمة بذيئة. كان له موقف ضدها. كان آير مهتما فقط بما يمكن إدراكه بالمنطق أو الحواس. غير أن الميتافيزيقا تتجاوز الاثنين وتصف وقائع لا يمكن التحقق منها بطريقة علمية أو إدراكية. فيما يتعلق بآير، كان هذا يعني أنها بدون فائدة ويجب التخلص منها.

ليس مفاجئًا أن يُزعج كتاب اللغة، الحقيقة والمنطق الكثيرين. كَرِهه العديد من الفلاسفة القدامى في أكسفورد، الأمر الذي جعل حصوله على عمل هناك صعبًا. لكن إزعاج الآخرين هو شيء مارسه الفلاسفة لآلاف السنين، في تقليد معروف بدأ بسُقرَاط. غير أن نشر كتاب يهاجم صراحة أعمال فلاسفة الماضي الكبار هو عمل شجاع.

كانت طريقة آير في التفريق بين الأقوال الدالة وغير الدالة كالتالي: خذ أي جملة وأسأل سؤالين:

1- هل هي صحيحة بطريقة بديهية؟

2- هل يمكن التحقق من صحتها تجريبيًّا؟

إذا لم تكن تجيب عن الاثنين بالإيجاب، فهي لا معنى لها. كان هذا اختباره المزدوج لوجود المعنى. فقط الأقوال التي تكون إما صحيحة بطريقة بديهية أو قابلة للتحقق منها تجريبيًا هي التي تكون لها فائدة بالنسبة للفلاسفة. يحتاج هذا إلى مزيد من التوضيح. أمثلة الأقوال التي تكون صحيحة بطريقة بديهية هي (كل النعام طيور) و(كل الإخوة ذكور). إنها أقوال تحليلية حسب مصطلحات إيمانِويْل كَانْط (الفصل 19). لا تحتاج إلى العثور على نعامة للتأكد من أنها طائر - لأن هذا جزء من تعريف النعام. وبالمثل من المؤكد أن الأخ ليس أنثى، لا أحد يمكنه اكتشاف العكس، فهذا مؤكد. الأقوال الصحيحة بطريقة بديهية تعيد إنتاج ما هو مضمن في تعريفها.

في المقابل، يمكن للأقوال القابلة للتحقق منها تجريبيًا (أو التركيبية حسب كَانْط) أن تقدم لنا معرفة حقيقية. ليكون قول ما متحقق منه تجريبيًا، يجب أن يكون هناك اختبار، أو ملاحظة، يبين إذا ما كان صحيحًا أو خاطئًا. إذا قال أحد على سبيل المثال (كل الدولفينات تأكل السمك)، يمكن أن نحصل على دولفين ونعطيه بعض السمك ونرى إن كان سيأكله. إذا عثرنا على دولفين لم يأكل السمك أبدًا، سنعرف أن القول غير صحيح. على الرغم من ذلك يبقى هذا القول قابلاً للتحقق حسب آير لأنه استعمل كلمة (قابل للتحقق) ليحيل على (قابل للتحقق) و(قابل للدحض). الأقوال القابلة للتحقق كلها أقوال واقعية:

إنها تحيل على العالم كما هو موجود. يجب أن تكون هناك ملاحظة تؤيدهم أو تدحضهم. العلم هو أحسن طريقة للتحقق منهم.

إذا لم تكن الجملة صحيحة بطريقة بديهية أو تم التحقق من صحتها تجريبيًّا، فهي حسب آير بدون معنى. الأمر كله بهذه البساطة. أخذ آير هذا الجزء من فلسفته مباشرة من دَيْفيد هِيوْم. اقترح هِيوْم، بشكل غير جاد تمامًا، أن نحرق كل كتب الفلسفة التي لا تجتاز هذا الاختبار بنجاح لأنها تحتوي على لا شيء، مجرد سفسطة ووهم. أعاد آير الاشتغال على أفكار هِيوْم في القرن العشرين.

إذا قلنا مثلاً (كل الفلاسفة ملتحون)، فمن الواضح أن هذا القول غير صحيح بطريقة بديهية لأن هذا ليس جزءًا من تعريف فيلسوف. لكنه قول يمكن التحقق منه بان نسعى إلى العثور على دليل في شأنه. كل ما نحتاج فعله هو الإطلاع على مجموعة من الفلاسفة. إذا وجدنا أن بعضهم له لحية، كما هو محتمل، فإننا سنستنتج أن الجملة صحيحة. لكن إذا تفحصنا صور المئات من الفلاسفة، ولم نجد ولا واحدًا منهم له لحية، فسنحكم آنذاك بأن الجملة ربما خاطئة، على الرغم من أننا لم نتحقق من كل الفلاسفة. سواء كانت الجملة صحيحة أم خاطئة فإن لها معنى.

قارن الجملة السابقة بجملة: «غرفتي مملوءة بملائكة غير مرئية ولا تترك أثرًا». إنها غير صحيحة بطريقة بديهية أيضًا. لكن هل هي قابلة للإثبات تجريبيًّا؟ يبدو أن ذلك غير ممكن. ليست

هناك أي طريقة ممكنة للكشف عن هذه الملائكة غير المرئية إذا لم يكن لها آثارًا. لا يمكنك شمهم ولا لمسهم. لا يتركون آثار أقدام خلفهم، ولا يحدثون أصواتًا. إذن الجملة هي مجرد كلام بدون معنى حتى لو كانت تبدو وكأن لها ربما معنى. إنها جملة صحيحة من حيث التركيب اللغوي، لكنها كتصريح حول العالم فهي ليست صحيحة ولا خاطئة. إنها جملة بدون أي معنى.

يمكن أن يكون هذا صعب الاستيعاب. يبدو أن الجملة: «غرفتي مملوءة بملائكة غير مرئية ولا تترك أثرًا» تعني شيئًا ما. لكن رأي آير هو أنها لا تساهم بأي شيء كان في الفكر الإنساني، غير أنها يمكن أن تبدو شعرية أو يمكن أن تساهم في عمل تخييلي.

لم يهاجم آير الميتافيزيقا فقط: كانت الأخلاق والدين هدفين لهجومه أيضًا. مثلاً كانت من بين خلاصاته المستفزة أن الأحكام الأخلاقية هي كلام فارغ. كان هذا القول يبدو شيئًا فظيعًا. لكن هذه الخلاصة كانت هي نتيجة لتطبيق اختباره المزدوج على التصريحات الأخلاقية. إذا قلت (التعذيب خطأ)، كل ما تفعله، حسب أير، هو المقابل لقول (التعذيب، بو!). و(بو) تعني: صياح للاستهجان. أنت تكشف عن مشاعرك الشخصية حول الموضوع عوض أن تقدم تصريحًا يمكن أن يكون صحيحًا أو خاطئًا. لأن جملة (التعذيب خطأ) ليست صحيحة بطريقة بديهية وليست أيضًا شيء يمكن أن نثبت أو ننفي صحته كحقيقة. ليس هناك اختبار يمكن أن تقوم به، حسب آير، يُمَكِّنك من إصدار حكم في الموضوع – مسألة كان النفعيون مثل جيرمي

بَنِثام وجُوْن ستِيوَارْت سميث سيعارضونها لأنهم كانوا سيقيسون السعادة الناتجة عنها.

في تحليل آير، يكون قولك أن (التعذيب خطأ) إذن بدون أي معنى لأنه نوع الجمل التي لا يمكن أن تكون صحيحة أو خاطئة. عندما تقول (الشفقة أمر جيد)، إنه مثل قولك (الشفقة، هوري). و(هوري) تعني: صيحة استحسان. ليس مفاجئًا أن تسمى نظرية آير في الأخلاق، المعروفة بالانفعالية، نظرية بو وهوري. اعتقد بعض الناس أن آير كان يعني أن الأخلاق لاتهم، أي أنه يمكنك أن تختار أن تفعل ما تحب. لكن لم يكن ذلك هو قصده. كان يعني أنه لا يمكننا أن نقوم بنقاش له معنى لهذه المواضيع من خلال القيم، لكنه كان يعتقد أنه في أغلب النقاشات حول ما يجب أن نفعل، تُنَاقش الحقائق، وأن هذه الأخيرة هي قابلة تجريبيًّا للإثبات أو النفي.

في جزء آخر من كتابه اللغة، الحقيقة والمنطق، هاجم آير فكرة أنه يمكننا أن نتكلم بطريقة ذات معنى عن الدين. بين أن الجملة (الإله موجود) ليست صحيحة ولا خاطئة. مرة أخرى كان يعتقد بأنها بدون معنى تمامًا. وذلك لأنها ليست صحيحة بطريقة بديهية (على الرغم من أن بعض الناس، الذين استعملوا الدليل الأنطولوجي على منوال القديس أنسِلِم قالوا بأن الإله يجب أن يوجد بالضرورة). وكذلك لا يوجد اختبار يمكن أن نقوم به لإثبات وجود الإله أو عدم وجوده - لأنه رفض دليل التصميم. لذلك لم يكن آير مؤمنا بوجود إله أو ملحدًا. كان

يعتقد بالأحرى بأن جملة (الإله موجود) هي فقط جملة أخرى من تلك الجمل التي لا معنى لها. أعطى بعض الناس لهذا الموقف اسم Igtheism. تبعًا لذلك فإن آير كان Igtheist وهذا يعني تلك الفئة الخاصة التي تعتبر الحديث عن وجود الإله من عدمه هو كلام فارغ.

على الرغم من ذلك، تلقى آير صدمة في آخر حياته عندما مر بتجربة اقترب فيها من الموت إثر اختناقه بعظم سمك السلمون وفقدانه للوعي. توقف قلبه لأربع دقائق. خلال ذلك الوقت رأى بكل وضوح ضوءًا أحمر وسيدين للكون يتحدثون مع بعضهم البعض. لم تجعله هذه الرؤية يؤمن بالإله، لكنها جعلته يراجع يقينه حول ما إذا كان العقل يستمر في الحياة بعد الموت.

لسوء حظ نظرية الوضعانية المنطقية لآير، فقد قدمت وسائل تدمير ذاتها. لم يكن يبدو أن النظرية نجحت في الاختبار الخاص بها. أولًا، ليس واضحًا أن النظرية صحيحة بطريقة بديهية. ثانيًا ليست هناك أي ملاحظة تثبتها أو تنفيها. إذن فهي غير ذات معنى حسب معاييرها الخاصة.

بالنسبة لهؤلاء الذين التجئوا إلى الفلسفة لتساعدهم على الإجابة عن أسئلة تتعلق بطريقة الحياة، قدمت فلسفة آير القليل من الإفادة. كانت الوجودية واعدة أكثر من عدة أوجه، الحركة التي ظهرت في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية ومباشرة بعدها.

الفصل الثالث والثلاثون



جَان بوْل سَارْتَر، سِيْمُون دِيْ بَوڤوَار وأَلبرِثْ كَامُو

قلق الحرية

إذا كنت تستطيع أن تسافر في الزمن إلى الوراء، إلى 1945 وإلى مقهى في باريس تسمى (لي دو ماغو) (الرجلين الحكيمين)، ستجد نفسك جالسًا بالقرب من رجل صغير الحجم ذو عينين واسعتين. يدخن الغليون ويكتب في مذكرة. هذا الرجل هو جَان بوْل سَارْتَر (1905 – 1980) وهو أشهر فيلسوف وجودي. كان أيضًا كاتب وجودي، كاتب مسرحي وكاتب سيرة ذاتية. عاش معظم حياته في الفنادق، وكتب معظم مؤلفاته في المقاهي. لم يكن يبدو عليه أنه شخصية مشهورة لكنه خلال أعوام أصبح مشهورًا.

غالبًا ما كانت تلتحق سَارْتَر امرأة جميلة وذكية جدًا، سِيمُون دِيْ بَوڤوَار (1908 – 1986). تعرفوا على بعضهم البعض منذ أن التقوا بالجامعة. كانت صديقته لوقت طويل على الرغم من أنهم لم يتزوجوا أبدًا ولم يعيشوا معًا أبدًا. كان لهم عشاق آخرون أيضًا، لكن علاقتهم كانت طويلة ودائمة ووصفوها كأساسية ووصفوا العلاقات الأخرى كعرضية (بمعنى أنها غير ضرورية). مثل سَارْتَر، كانت فيلسوفة وروائية. كتبت كتابًا مهما له علاقة بالحركة النسوية اسمه الجنس الثاني (1949).

خلال الحرب العالمية الثانية التي كانت قد انتهت للتو، كانت باريس مستعمرة من طرف القوات النازية. كانت الحياة صعبة جدًا بالنسبة للفرنسيين. تمكن بعضهم من الالتحاق بالمقاومة ومحاربة الألمان. تعاون آخرون مع النازيين وخانوا أصدقاءهم مِنْ أَجْلِ إنقاذ أنفسهم. كان الأكل متوفر بكميات قليلة. كانت هناك مواجهات بالأسلحة في الشوارع. اختفى الناس ولم يظهروا ثانية. أُرسل يهود باريس إلى معسكرات الاعتقال حيث قُتل معظمهم.

الآن وقد هزم الحلفاء الألمان، حان الوقت للبداية من جديد. كان هناك ارتياح لأن الحرب انتهت وكان هناك أيضًا إحساس بأنه يجب نسيان الماضي. حان الوقت للتفكير في نوع المجتمع الذي يجب أن يكون. بعد التجارب الفظيعة التي مر منها الناس في الحرب، كان كل الناس على اختلاف وضعياتهم يسألون نفس الأسئلة التي كان يطرحها الفلاسفة مثل (ما الغاية

من الحياة؟))، ((هل يوجد إله؟)) و((هل يجب علي دائما فعل ما يتوقع مني الآخرون فعله؟)).

كان سَارْتَر قد ألف كتابًا صعبًا وطويلاً سماه الوجود والعدم (1943) نشره خلال الحرب. كان الموضوع الأساسي للكتاب هو الحرية. المخلوقات البشرية حرة. كان هذا خطابًا غريبًا في فرنسا المحتلة حين كان الفرنسيون يشعرون وكأنهم – أو كانوا فعلاً – مساجين في بلدهم. غير أن ما كان يعنيه هو أنه، بخلاف مثلاً سكين صغير، فإن المخلوق البشري ليس مُعَدّا لفعل أي شيء بالخصوص. لم يكن سَارْتَر يعتقد أن هناك إله خلقنا، لذلك رفض فكرة أن الإله حدد لنا هدفًا في الحياة. صُنِع السكين ليقطع. هذا هو جوهره، أي ما جعله على ما هو عليه. ما هو الشيء الذي أُعِدّ الإنسان لفعله؟ ليس للمخلوقات البشرية جوهر. كان يعتقد أننا لسنا موجودين مِنْ أَجْلِ هدف ما. ليست هناك طريقة خاصة نوجد بها لنكون بشرًا. يمكن للمخلوق البشري أن يختار ما سيفعل وما سيكونه في المستقبل. نحن كلنا أحرار. لا أحد غيرك يمكنه تقرير ما ستصبح عليه حياتك. إذا تركت الآخرين يقررون كيف ستعيش، فهذا مرة أخرى اختيار. سيكون اختيارًا أن تكون نوع الشخص الذي يريدوه الآخرون.

من الواضح أنه إذا اخترت أن تفعل شيئًا، فيمكن أن لا تنجح في فعله. وقد تكون أسباب فشلك خارجة عن نطاق تحكمك. لكنك مسئول عن رغبتك في فعل ذلك الشيء وعن محاولة فعله وعن فشلك في أن تكون قادرًا على فعله.

يصعب التعامل مع الحرية لذلك يهرب منها الكثير منا. من بين الطرق التي يمكن أن نخفي موقفنا هو أن نتظاهر بأننا لسنا أحرارًا على الإطلاق. إذا كان سَارْتَر محقًا، فليس لنا الحق في الأعذار: نحن مسئولون تمامًا عما نفعل وعما نشعر به تجاه ما نفعل. نحن مسئولون حتى عن المشاعر التي نحس بها. إذا كنت حزينا الآن فهذا اختيارك، حسب سَارْتَر. ليس ضروريًّا أن تكون حزينا. إذا كنت حزينا فأنت مسئول عن ذلك. هذا مرعب وبعض الناس يفضلون عدم مواجهته لأنه مؤلم جدًا. يتحدث سَارْتَر عن كوننا محكومون بأن نكون أحرارًا. مصيرنا هو الحرية سواء أردنا ذلك أو لم نرغب فيه.

وصف سَارْتَر نادلاً في مقهى. يتحرك هذا النادل بأسلوب خاص به وكأنه دمية. كل شيء حوله يوحي بأنه يتصور نفسه محددًا تمامًا بدور النادل الذي يقوم به، وكأن ليس لديه أي اختيار في أي شيء. الطريقة التي يحمل بها الصينية والطريقة التي يتحرك بها بين الطاولات كلها جزء من نوع من الرقص – رقص يمثله بجسده كنادل في مقهى، وليس كمخلوق بشري يقوم بعمله. يقول سَارْتَر بأن هذا الرجل يعاني من الإيمان السيئ. الإيمان السيئ هو الهروب من الحرية. إنه نوع من الكذب تقنع نفسك به: الكذب الذي يتمثل في كونك غير قادر على اختيار ما تقوم به في حياتك، حين تكون حرًا، حسب سَارْتَر، سواء أردت ذلك أن لم ترد.

في محاضرة ألقاها مباشرة بعد الحرب، (الوجودية نوع من الإنسية)، يصف سَارْتَر الحياة الإنسانية كحياة مليئة بالقلق. ينتج القلق عن فهمنا بأنه ليس لنا أعذار وأننا مسئولون عن أي شيء نفعله. لكن القلق يصبح أسوأ لأنه، حسب سَارْتَر، أي شيء أفعل هو نوع من النموذج بالنسبة لما يجب على الآخرين أن يفعلوه. إذا قررت أن أتزوج، فإنني أعني أنه يجب على الكل أن يتزوج. إذا قررت أن أكون كسولاً، فهذا ما يجب على كل شخص أن يفعل حسب نظرتي للوجود الإنساني. من خلال الاختيارات التي أقوم بها في حياتي، أرسم صورة لما يجب أن يكون عليه أي مخلوق بشري. إذا كنت أفعل ذلك بصدق، فهذه مسؤولية كبيرة.

يفسر سَارْتَر ما يعنيه بقلق الاختيار من خلال قصة حقيقية لطالب جاء إليه يطلب النصح خلال الحرب. كان على هذا الطالب أن يتخذ قرارًا مصيريًّا. كان بإمكانه إما البقاء في البيت لرعاية أمه، أو مغادرة البيت والالتحاق بالمقاومة الفرنسية لمحارب الألمان لإنفاذ بلاده. كان هذا أهم قرار سيتخذه في حياته، ولم يكن متأكدًا ممّا يجب عليه فعله. إذا ترك أمه وحيدة ستكون ضعيفة بدونه. يمكن أن لا يصل إلى قوات المقاومة لأنه يمكن أن يُقبض عليه من طرف الألمان قبل ذلك، وستكون محاولته القيام بفعل نبيل مضيعة للطاقة وللحياة. لكن إذا مكث في البيت مع أمه فسوف يترك الآخرين يحاربون في مكانه. ماذا يجب عليه أن يفعل؟ ماذا ستفعل؟ ما هي النصيحة التي ستعطيها له؟

كانت نصيحة سَارْتَر محبطة شيئًا ما. قال للطالب بأنه حر ويجب عليه أن يختار لنفسه. لو أن سَارْتَر قدم نصيحة عملية للطالب، لكان عليه أن يختار إما إتباعها أو تجاهلها. ليس هناك طريقة للهروب من ثقل المسؤولية التي هي على عاتق المخلوق البشري.

الوجودية هي الاسم الذي يعطيه الناس الآخرون لفلسفة سَارْتَر. يستمد الاسم معناه من فكرة أننا نجد أنفسنا أولاً موجودين في العالم، ثُمَّ نقرر بعد ذلك ما سنفعله بحياتنا. يمكن أن يكون العكس هو الصحيح: كان بإمكاننا أن نكون مثل موس صغير، خُلقنا لهدف معين. غير أن سَارْتَر يعتقد أننا لسنا كذلك. حسب تعبيره، وجودنا يسبق جوهرنا، بينما بالنسبة للأشياء المخلوقة فجوهرها يسبق وجودها.

في كتابها الجنس الثاني، تقدم سِيمُون دِيْ بَوڤوَار الوجودية بتصور مختلف وذلك بادعائها بأن النساء لم تخلق نساء. ما كانت تعنيه هو أن النساء تميل إلى قبول نظرة الرجل لما يجب أن تكون عليه المرأة. أن تقبل ما يريده الرجل منك أن تكون هي مسألة اختيار. لكن يمكن للنساء، بصفتهم أحرارًا، أن يقرروا ما يريدون أن يكونوا. ليس لهم أي جوهر، أي هوية تفرضها الطبيعة على وجودهم.

كان العبث موضوعًا آخر له أهميته في الوجودية. ليس للحياة أي معنى على الإطلاق حتى نعطيها نحن المعنى باختياراتنا، ثُمَّ بعد ذلك يأتي الموت ليزيل المعنى الذي أعطيناه للحياة. كانت نسخة

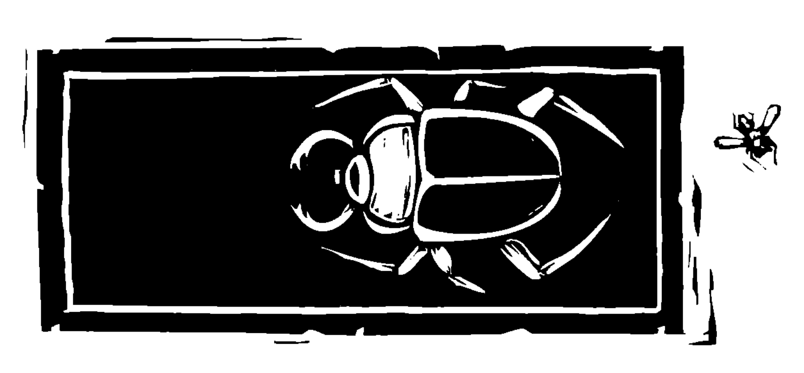
سَارْتَر لهذا الموضوع هي وصفه للمخلوق البشري كـ (شغف عديم الجدوى): ليس هناك مغزى لحياتنا على الإطلاق. هناك فقط المعنى الذي نخلقه باختياراتنا. استعمل وأَلبِرتْ كَامُو (1913 – 1960)، روائي وفيلسوف مرتبط بالوجودية، الأسطورة الإغريقية لسيزيف ليفسر العبث الإنساني. كان عقاب سيزيف لخداعه الآلهة هو دفع صخرة كبيرة إلى قمة الجبل. عندما يصل إلى القمة تتدحرج الصخرة ثانية إلى الأسفل، ويجب عليه أن يبدأ العملية من جديد. كان يجب على سيزيف أن يفعل نفس الشيء مرارًا وتكرارًا إلى الأبد. تشبه الحياة الإنسانية مهمة سيزيف من حيث أنها بدون معنى. ليس لها أي مغزى: لا توجد أجوبة عن كل شيء. إنها عبثية. لكن كَامُو لم يكن يعتقد أنه يجب علينا أن نفقد الأمل. لا يجب علينا أن ننتحر. عوضًا عن ذلك، يجب أن نعترف بأن سيزيف سعيد. لماذا هو سعيد؟ لأن هناك شيء ما في هذا الصراع العبثي المتمثل في دفع صخرة كبيرة إلى قمة الجبل ما يجعل حياته تستحق الحياة. إنه أحسن من الموت.

أصبحت الوجودية طريقة تفكير مشهورة. انْجَذب إليها الآلاف من الشباب وكانوا يقضون وقتهم في مناقشة عبثية الحياة حتى وقت متأخر من الليل. كانت مصدر إلهام لكتابة الروايات والمسرحيات وصناعة الأفلام. كانت فلسفة يعيش بها الناس ويطبقونها على قراراتهم. أصبح سَارْتَر نفسه مهتما بالسياسة وأصبح يساريًا في آخر حياته، وحاول الجمع بين أفكار الماركسية وأفكاره الأولى – مهمة صعبة. ركزت وجوديته

لسنوات الأربعينيات على الأفراد وهم يختارون لأنفسهم، غير انه في أعماله اللاحقة حاول أن يفسر كيف أننا جزء من مجموعة أكبر من الناس وكيف أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية تلعب دورًا في حياتنا. للأسف أصبحت كتاباته أكثر صعوبة على الفهم ربما جزئيًّا لأنه كان يكتب وهو تحت تأثير المنشطات.

كان سَارْتَر ربما أشهر فيلسوف في القرن العشرين. لكن إذا سألت الفلاسفة عن أشهر فيلسوف في القرن الماضي، فسيجيبونك بأنه كان لُودْفِيغ ڤِتْغِنشتَاين.

الفصل الرابع والثلاثون



لُودْڤِيغ ڤِتْغِنشتَاين

فُتِن باللغة

إذا وجدت نفسك في إحدى الندوات التي كان ينظمها لُودْڤِيغ ڤِتْغِنشتَاين (1889 – 1951) في كمبردج سنة 1940، ستدرك بسرعة بأنك في حضور رجل غير عادي. معظم الناس الذين التقوا به يعتقدون بأنه عبقري. وصفه بِرتْرَانْد رَاسِل كعاطفي، عميق، قوي ومهيمن. هذا الرجل الصغير من فيينا بعينين زرقاوين ولامعين وبجدية عميقة، يسرع ويبطئ في الكلام، يسأل الطلبة أسئلة أو يتوقف مرة منشغلاً بفكرة ما لدقائق. لا أحد يجرؤ على مقاطعته. لم يكن يحاضر انطلاقًا من شيء أعده مسبقًا بل كان يفكر في المواضيع أمام الحضور،

مستعملاً مجموعة من الأمثلة لفهم النتائج. كان يقول لطلبته أن لا يضيعوا وقتهم في قراءة كتب الفلسفة. إذا تعاملوا بجدية مع هذه الكتب، فسوف يرمونهم في الغرفة ويشرعوا في التفكير في حل الألغاز التي طرحتها.

كان كتابه الأول مصنف منطقي فلسفي (1922) مكتوبًا على شكل أجزاء قصيرة مرقمة، كان الكثير منها تشبه الشعر أكثر من الفلسفة. كانت الرسالة الأساسية هي أن أهم الأسئلة عن الدين والأخلاق توجد خارج حدود فهمنا، وإذا لم نستطع أن نتكلم عنها بطريقة ذات معنى، فمن الأحسن أن نبقى صامتين.

موضوع أساسي في هذا العمل هو الافتتان باللغة. كان يعتقد أن اللغة تقود الفلاسفة إلى كل أنواع الارتباك. يسيطر عليهم سحرها. كان ڤِتْغِنشتَاين يرى نفسه كمعالج سيجعل الكثير من هذا الارتباك يختفي. كانت الفكرة هي أن تتبع أمثلته المختلفة المختارة بدقة، وأنه بتتبعك هذا ستختفي كل مشاكلك الفلسفية. ما كان يبدو مهما جدًا لن يشكل أي مشكلة بعد ذلك.

بين بأن أحد أسباب الارتباك الفلسفي هو الافتراض بأن كل اللغة تشتغل بنفس الطريقة - فكرة أن الكلمات تسمي الأشياء فقط. أراد أن يبين لقرائه بأن هناك عدة (ألعاب لغوية)، أنشطة مختلفة نقوم بها مستعملين الكلمات. ليس هناك جوهر للغة، ليست هناك خاصية مشتركة واحدة تفسر كل مجموع استعمالاتها.

إذا رأيت مجموعة من الناس مرتبطين ببعضهم البعض، مثلاً في حفل زواج، يمكنك أن تتعرف على أفراد العائلة من

خلال تشابهاتهم الجسدية. هذا ما كان يعنيه فِتْغِنشتَاين بـ (تشابه عائلي). يمكن أن تشبه أمك من بعض الجوانب - ربما لك نفس لون شعرها وعينيها - وجدك شيئًا ما من حيث أنكما معًا تتميزان بالطول والنحافة. يمكن كذلك أن يكون لك نفس لون شعر أختك وشكل عينيها، لكنه يمكن أن يكون لعينيها لون مغاير عن لون عينيك وعيني أمك. ليست هناك خاصية وحيدة مشتركة بين جميع أفراد العائلة تجعل انتماءهم لنفس العائلة المرتبطة جينيًّا واضحًا بطريقة مباشرة. هناك بالأحرى بنية من التشابهات المتداخلة، حيث يشترك البعض في بعض الخاصيات وبعض آخر يشترك في خاصيات مختلفة أخرى. كانت هذه البنية من التشابهات المتداخلة هي التي جذبت اهتمام فِتْغِنشتَاين. استعمل استعارة التشابه العائلي ليبين شيئًا مهما حول الطريقة التي تشتغل بها اللغة.

فكر في كلمة (لعبة). هناك عدة أشياء مختلفة نسميها ألعاب: ألعاب الطاولة كالشطرنج، ألعاب الورق كالبريدج، والرياضات ككرة القدم، وهلم جرًا. هناك أيضًا أشياء أخرى نسميها ألعاب كألعاب الأطفال وألعاب الخداع. يَفترِض معظم الناس أنه لأننا نستعمل نفس الكلمة، (لعبة)، لوصف كل هذه الأشياء، فمن الأكيد أنها تشترك في خاصية ما، وهو جوهر مفهوم (اللعبة). لكن عوض الافتراض بأن هناك مِثلُ هذا القاسم المشترك، يدعو فِتْغِنشتَاين قُراءه إلى الحكم بأنفسهم. يمكن أن تظن أنه في كل الألعاب يوجد رابح وخاسر، لكن

ماذا عن الألعاب الفردية، أو رمي كرة على الحائط والإمساك بها؟ كِلا هذان النوعان ألعاب، لكن من الواضح أنه لا يوجد خاسر. لكن ماذا عن فكرة أنهما يشتركان معًا في كونهما يتوفران على مجموعة من القوانين؟ لكن هناك بعض ألعاب الخداع ليس لها قوانين. يقدم ڤِتْغِنشتَاين في كل مرة يقدم فيها اقتراح لقاسم مشترك بين كل الألعاب مثالاً مضادًا، أي لعبة لا تشترك مع الألعاب الأخرى في الجوهر المقترح. عوض أن نفترض أن كل الألعاب تشترك في خاصية واحدة، يعتقد أنه يجب أن ننظر إلى هذه الكلمات (اللعبة) و(التشابه العائلي).

عندما وصف ڤِتْغِنشتَاين اللغة كمجموعة من الألعاب اللغوية، كان يثير الانتباه إلى حقيقة أنه يوجد عدد من الأشياء التي نستعمل اللغة للتعبير عنها، وأن الأمر اختلط على الفلاسفة لأنهم يعتقدون أن كل اللغة تستعمل لنفس النوع من الأشياء. في إحدى أشهر الأوصاف لهدفه كفيلسوف، قال بأنه يريد أن يشرح للذبابة كيف تخرج من الزجاجة. يشبه الفيلسوف المثالي تلك الذبابة العالقة في زجاجة وتحاول الخروج لكنها تصطدم بجوانب الزجاجة. الطريقة لحل مشكل فلسفي هي إزالة الفلين والسماح للذبابة بالخروج. ما كان يعنيه هذا هو أنه أراد أن يبين للفيلسوف أنه كان يطرح الأسئلة الخاطئة أو أن اللغة ضللته.

لنأخذ مثلاً وصف أَوْغَسْطِين للطريقة التي تعلم بها الكلام. في اعترافاته، قال بأن الناس الأكبر سنا كانوا يشيرون إلى الأشياء ثُمَّ يسمونها. يرى تفاحة، يشير إليها ثُمَّ يقول (تفاحة). فهم

أوْغَسْطِين تدريجيًّا ما تعنيه الكلمات ثُمَّ أصبح قادرًا على استعمالهم ليقول للآخرين ما يريد. اعتبر ڤِتْغِنشتَاين أن هذا التفسير هو حالة شخص يعتقد أن كل اللغة لها جوهر واحد وتؤدي وظيفة واحدة وهي تسمية الأشياء. بالنسبة لأوْغَسْطِين، لكل كلمة معنى ما تعنيه. عوض هذه الصورة عن اللغة، يشجعنا ڤِتْغِنشتَاين على اعتبار استعمال اللغة كمجموعة من الأفعال التي هي مرتبطة بالحياة العملية للمتكلمين. يجب أن نفكر في اللغة أكثر ككيس من الأدوات يشتمل على أنواع مختلفة من الأدوات، عوض أن تكون مثلاً أدوات تقوم دائما بالمهمة التي يقوم بها مفك براغ.

يبدو واضحًا أنه عندما تشعر بالألم وتتحدث عنه فإنك تستعمل كلمات تسمي الإحساس الذي تشعر به. غير أن ڤِتْغِنشتَاين يريد أن يعطل هذه الرؤية للغة الإحساس، ليس لأننا لا نملك أحاسيس، ولكن لأنه من الناحية المنطقية لا يمكن أن تكون كلماتك أسماء للأحاسيس. إذا كان لكل الناس صندوق فيه خنفساء لم يطلع عليها أحد، فلن يهم ما يوجد في الصندوق عندما يتحدثون مع بعضهم البعض عن الخنفساء. اللغة علنية في طبيعتها، وتتطلب طرق متوفرة علنا للتأكد بأننا ننتج معنى ما. عندما يتعلم طفل كيف يصف ألمه، فما يحدث، يقول ڤِتْغِنشتَاين، هو أن الأب يشجع الطفل على فعل مختلف الأشياء كأن يقول مثلاً (إنه يؤلمني) – وهي المقابل من عدة أوجه للتعبير الطبيعي جدًا (آي!). تعني رسالته في جزء منها أنه لا يجب أن نعتبر الكلمات (إنه يؤلمني) كطريقة لتسمية إحساس خاص. إذا كان

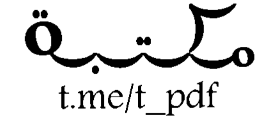
الألم والإحساسات الأخرى خاصة، فإننا نحتاج إلى لغة خاصة لوصفها. لكن ڤِتْغِنشتَاين كان يعتقد أن تلك الفكرة لا تعني شيئًا. يمكن أن يساعدنا مثال آخر من أمثلته على فهم ما يعنيه.

قرر رجل أن يحتفظ بسجل لكل مرة أحس إحساسًا خاصًا ليس له اسم – ربما نوع ما من الإحساس الخفيف بالوخز، تنميل مثلاً. يكتب حرف (س) في مذكرته كل مرة أحس بذلك الإحساس. (س) هي كلمة في لغته الخاصة – لا أحد يعرف ما يعنيه بتلك الكلمة. يبدو هذا وكأنه ممكن. ليس صعبًا تخيل إنسان وهو يعمل بالضبط هذا الشيء. لكن فكر في الأمر مليًا. كيف له أن يعرف عندما يشعر بوخز أن هذا هو مثال إضافي لنوع (س) الذي سجله من قبل وليس نوعًا آخر؟ لا يمكنه أن يرجع إلى الوراء ليتأكد منه غير مستعمل لأي شيء آخر غير تذكره بأنه أحس نفس الإحساس (س) سابقًا. غير أن هذا ليس بجيد لأنه يمكن أن يخطئ في تحديد طبيعة الإحساس. ليست هذه طريقة موثوق بها أن تقول بأنك تستعمل الكلمة بنفس الطريقة.

كانت الفكرة التي يحاول تفسيرها من خلال مثال المذكرة هي أن الطريقة التي تُستعمل بها الكلمات للتعبير عن إحساسات خاصة لا يمكنها أن تعتمد على ربط خاص للتجربة بالكلمة. يجب أن يكون هناك شيء عام في الأمر. لا يمكن أن تكون لنا لغة خاصة بنا. وإذا كان ذلك صحيحًا، فإن فكرة أن العقل يشبه مسرحًا مغلقًا لا يدخله أحد هي مُضَللة. بالنسبة ڤِتْغِنشتَاين، فإن فكرة لغة خاصة للأحاسيس ليس لها معنى على الإطلاق.

هذا مهم – وصعب الاستيعاب أيضًا – لأن عددًا من الفلاسفة قبله اعتقدوا أن العقل الفردي هو خاص تمامًا.

على الرغم من أنه مسيحي الديانة، اعتبرت عائلة ڤِتْغِنشتَاين يهودية حسب القوانين النازية. قضى لُودْفِيغ جزءًا من الحرب العالمية الثانية كممرض في مستشفى لندن، لكن عائلته الكبيرة كانت محظوظة بتمكنها من الفرار من فيينا. لو لم يفعلوا لكان أدولف أيكمان أشرف على نقلهم لمعسكرات الموت. كان تورط أيكمان في المحرقة ومحاكمته اللاحقة لجرائمه ضد الإنسانية بؤرة تفكير حَنَّا آرِنْت في طبيعة الشر.



الفصل الخامس والثلاثون



حَنَّا آرِنْت

الرجل الذي لم يطرح أسئلة

كان النازي أدولف أيكمان رجل إدارة يعمل بجد. كان مكلفًا بنقل يهود أوروبا إلى معسكرات الاعتقال في بولندا، بما فيها أوزويتش منذ 1942. كان هذا جزء من الحل النهائي لهتلر: خطته قتل كل اليهود الذين يعيشون على أراضي تحتلها القوات الألمانية. لم يكن أيكمان مسؤولاً عن سياسة القتل الممنهج - لم تكن فكرته. لكنه كان مشاركًا في تنظيم نظام السكة الحديدية التي جعلته ممكنا.

منذ ثلاثينيات القرن العشرين مرر النازيون قوانين سلبت اليهود حقوقهم. كان هتلر يُحمِّل مسؤولية ما وقع لألمانيا لليهود وكانت له رغبة مجنونة في الانتقام منهم. منعت هذه القوانين

اليهود من الالتحاق بمدارس الدولة، وأرغمتهم على أن يسلموا أموالهم وممتلكاتهم وأن يحملوا نجمة صفراء على ملابسهم. جمعوا اليهود وأرغموهم على العيش في أحياء خاصة تسمى الغيتو، وهي أحياء مكتظة في المدن التي أصبحت سجنا لهم. كان الأكل نادرًا والحياة صعبة. لكن الحل النهائي قدم مستوى جديد من الشر. كان قرار هتلر قتل الملايين من اليهود بسبب انتمائهم العرقي يعني أن النازيين احتاجوا إلى طريقة لإخراج اليهود من المدن إلى أماكن حيث يمكن قتلهم بأعداد كبيرة. تم تحويل معسكرات الاعتقال الموجودة إلى مصانع لخنق وحرق المئات من اليهود يوميًا. بما أن العديد من هذه المعسكرات كانت في بولندا، كان يجب أن يتكلف شخص ما بالقطارات التي كانت تنقل اليهود إلى الموت.

في الوقت الذي أيكمان يجلس بمكتبه وينظم بعض الأوراق ويجري بعض المكالمات، مات الملايين بسبب ما كان يفعل. مات بعضهم بسبب حمى التفوئيد أو الجوع، أُرغم آخرون على العمل حتى الموت، لكن أغلبهم قُتلوا خنقًا بالغاز. كانت القطارات تحترم الوقت في ألمانيا النازية – كان ايكمان وآخرون مثله يسهرون على ذلك. حرصت فعاليتهم على ملأ عربات الشحن المخصصة أصلاً للبقر. كان بداخلها رجال ونساء وأطفال، كلهم في رحلة طويلة ومؤلمة إلى حتفهم، عادة بدون أكل أو ماء، وأحيانًا في حرارة وأو برد مفرطين. مات الكثير منهم خلال الرحلة، وخصوصًا المسنين والمرضى.

كان من بقي على قيد الحياة يصل ضعيفًا ومرعوبًا ليُرغَم على الدخول إلى غرف تبدو وكأنها حمامات حيث كانوا يُرغمون على نزع ملابسهم. كان هذا هو المكان الذي كان يَقتل فيه النازيون اليهود بغاز زيكلون. كانت أجسادهم تُحرق وممتلكاتهم تُنهب. لو لم يتم اختيارهم ليموتوا مباشرة بهذه الطريقة، لتم إرغام الأقوياء منهم على العمل دون طعام كافي. كان النازيون سيضربونهم أو يقتلوهم رميا بالرصاص مِنْ أَجْلِ المتعة.

لعب أيكمان دورًا كبيرًا في هذه الجرائم. غير أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تمكن من الإفلات من قبضة الحلفاء ووصل أخير إلى الأرجنتين حيث عاش متخفيا لبضع سنين. سنة 1960، تبعه أعضاء من المخابرات الإسرائيلية الموساد إلى بوينوس أيروس وقبضوا عليه. خدروه ونقلوه عبر الطائرة إلى إسرائيل لمحاكمته.

هل كان أيكيمان وحشًا شريرًا، رجلًا ساديًّا يستمع بتعذيب الآخرين؟ كان هذا ما اعتقده معظم الناس قبل الشروع في محاكمته. هل هناك وصف آخر لمشاركته في الهولوكوست؟ لعدة سنوات كانت مهمته هي توفير الوسائل الفعالة لنقل الناس إلى الموت. من الأكيد أنه لن يستطيع شخص النوم بعد هذا النوع من العمل إلّا إذا كان وحشًا.

كتبت الفيلسوفة الألمانية حَنَّا آرِنْت (1906 – 1975)، وهي يهودية ألمانية هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تقريرًا حول محاكمة أيكمان لفائدة مجلة نيويوركر. كان همها

هو أن تواجه صنيعة دولة استبدادية نازية، مجتمع لم يكن فيه التفكير لنفسك مسموحًا به إلّا على نحو قليل جدًا. أرادت أن تفهم هذا الرجل وتفهم طبيعته وكيف كان بإمكانه ارتكاب تلك الأفعال الفظيعة.

لم يكن أيكمان أول نازي التقت به آرِنْت. هربت آرِنْت من النازيين، وغادرت ألمانيا وتوجهت إلى فرنسا. وأصبحت في آخر المطاف مواطنة أمريكية. كانت كشابة طالبة بجامعة ماربورغ وكان هيدغر الفيلسوف الألماني أحد أساتذتها. كانا عشاقًا لبعض الوقت على الرغم من أن سنها لم يكن يتجاوز 18 سنة وعلى الرغم من أنه كان متزوجًا. كان هيدغر منشغلاً آنداك بكتابة الوجود والزمن، وهو كتاب صعب جدًا ويعتقد بعض الناس أنه مساهمة مهمة في الفلسفة في حين أن آخرون يرون أنه غامض جدًا. أصبح بعد ذلك عضوا ملتزمًا في الحزب النازي ودعم سياساته المضادة للسامية. حتى أنه حذف اسم صديقه السابق الفيلسوف ادموند هوسرل من صفحة الإهداء لكتابه الوجود والزمن لأنه كان يهوديًا.

لكن الآن في القدس، كان على آرِنْت أن تلتقي بنوع آخر من النازيين. كان رجلاً عاديًا إلى حد ما، اختار أن لا يفكر كثيرًا حول ما كان يفعل. كان لفشله في التفكير نتائج كارثية. لكنه لم يكن ذلك الرجل الشرير والسادي كما كانت ربما تتوقعه. كان عاديًا جدًا لكنه كان خطيرًا بنفس القدر: رجل لا يفكر. في ألمانيا حيث تحولت أسوء أشكال العنصرية إلى قوانين، كان

من السهل عليه أن يُقنِع نفسه بأن ما كان يفعله هو الصحيح. قدمت له الظروف فرصة للحصول على منصب جيد، لم يتردد في اقتناصها. كان الحل النهائي لهتلر فرصة لأيكمان لأن يشتغل بجد وليبين بأنه قادر على فعل عمل جيد. يصعب تخيل هذا الأمر، وكان عدد من منتقدي آرِنْت لا يعتقدون أنها على حق، لكنها أحست أنه كان صادقًا عندما ادعى أنه كان يقوم بواجبه.

خلافًا لبعض النازيين، لم يكن أيكمان يحس بكره شديد ضد اليهود. لم يكن لديه شيء من سم هتلر. كان هناك العديد من النازيين يحسون بالسعادة لضربهم يهودي حتى الموت لأنه لم يقدم التحية لهتلر (هيل هتلر)، لكنه لم يكن واحدًا منهم. غير أنه قَبل والتزم بالسياسة النازية الرسمية، لكنه فعل أسوأ من ذلك من حيث أنه ساعد على إرسال الملايين من اليهود إلى الموت. حتى وهو يستمع إلى الأدلة التي قدمت ضده، كان يبدو أنه لم يكن يرى أنه أخطأ في ما فعل. بالنسبة له، لأنه لم يخالف أي قوانين، ولم يقتل أي أحد بطريقة مباشرة أو طلب من أي أحد تنفيذ القتل نيابة عنه، فإنه تصرف بطريقة معقولة. أُنشِأ على احترام القانون وتم تكوينه على إتباع الأوامر وكان كل الناس حوله يفعلون الشيء نفسه. بإتباعه للأوامر الصادرة عن ناس آخرين، كان يتجنب تحمل المسؤولية عن نتائج عمله اليومي.

لم يكن أيكمان بحاجة لأن يرى الناس مكدسين في العربات ويُرسلون إلى الموت، لذلك لم يقم بذلك بنفسه. قال هذا الرجل للمحكمة بأنه لم يكن بإمكانه أن يصبح طبيبًا لأنه يكره رؤية

الدم. لكن الدم كان ما زال يلوث يديه. إنه نتاج لنظام منعه من التفكير بطريقة نقدية حول أفعاله وحول النتائج التي تُحدثها في حياة ناس حقيقيين. كان وكأنه لم يكن يقدر على تخيل شعور الناس الآخرين على الإطلاق. استمر في ادعاء البراءة المُتوَهمة طوال المحاكمة. إما أنه كان كذلك أو أنه قرر بأن أحسن شيء يدافع به عن نفسه هو القول بأنه كان ينفذ الأوامر. إذا كان الاحتمال الأخير صحيحًا، فقد أوْقع آرِنْت في شباكه.

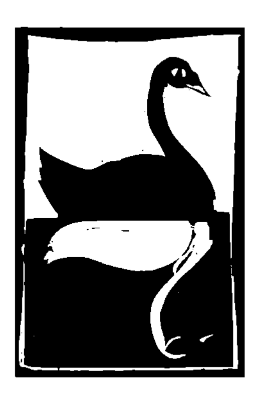
استعملت آرِنْت عبارة (ابتذال الشر) لتصف ما كانت تراه في أيكمان. إذا كان شيء ما مبتذل، فهذا يعني أنه عادي، ممل وغير أصيل. أكدت أن شر أيكمان كان مبتذلاً لأنه كان شر صادر عن بِيْروقراطي، عن مدير مكتب، وليس عن الشيطان. كان أيكمان هذا النوع العادي من الرجال الذي سمح للآراء النازية بالتأثير على كل ما كان يفعل.

كانت فلسفة آرِنْت تستلهم مادتها من الأحداث التي كانت تدور حولها. لم تكن ذلك النوع من الفلاسفة الذين يقضون حياتهم جالسين فوق أريكة يفكرون في أفكار تجريدية خالصة أو مناقشة المعنى الدقيق لكلمة ما. كانت فلسفتها مرتبطة بالتاريخ الحديث والتجربة المعاشة. ما كتبته في كتابها أيكمان في القدس كان يعتمد على ملاحظاتها للرجل وأنوع اللغة المستعملة والتبريرات التي قدمها. طورت من خلال ما شاهدته شروحًا أكثر تعميمًا عن الشر في الدول الاستبدادية وآثارها على أولئك الذين لم يقاوموا بنياتها الفكرية.

فشل أيكمان، مثل العديد من النازيين في عصره، في رؤية الأشياء من منظور شخص آخر. لم يكن شجاعًا بالقدر الكافي لمساءلة القوانين التي أُمر بتطبيقها: بحث فقط عن أحسن الطرق لإتباعها. كان ينقصه الخيال. وصفته آرِنْت كسطحي وبليد – غير أنه يمكن أن يكون فعلاً كذلك. لو كان وحشًا لكان فظيعًا. لكن الوحوش نادرون ويسهل تحديد مكانهم. ربما ما كان أكثر رعبًا هو كونه يبدو هادئًا. كان رجلاً عاديًّا شارك في بعض من أسوأ أفعال الشر التي عرفتها البشرية وذلك لأنه فشل في مساءلة ما كان يفعل. لو لم يكن قد عاش في ألمانيا النازية لكان من غير المحتمل أن يكون شريرًا. كانت الظروف ضده. لكن ذلك لا يزيل الذنب الذي اقترفه. كان مطيعًا لأوامر غير أخلاقية، وطاعة الأوامر النازية هي، حسب آرِنْت، مساوية لدعم الحل النهائي. بفشله في مساءلة ما أُمِر بفعله وبتنفيذه لتلك الأوامر، يكون قد شارك في قتل جماعي على الرغم من انه من وجهة نظره لم يكن يفعل شيئًا غير إعداد مواعيد وصول وذهاب القطارات. في وقت ما في محاكمته، ادعى أنه كان يتصرف حسب نظرية إيمانِويْل كَانْط للواجب الأخلاقي – وكأنه فعل الفعل الصحيح بإتباعه للأوامر. فشل تمامًا في فهم أن كَانْط كان يعتقد بأن معاملة المخلوقات البشرية باحترامهم والحفاظ على كرامتهم هو أساسي في الأخلاق.

كان كَارْل پَوپِر، مفكر من فيينا، محظوظًا لهروبه من الهولوكوست ومن قطارات أيكمان.

الفصل السادس والثلاثون



كَارْل پَوپِر وتُومَاس كُوهِن

التعلم من الأخطاء

في سنة 1666، كان عالم شاب جالسًا في حديقة عندما سقطت تفاحة. جعله هذا يفكر في سبب سقوط التفاح مباشرة عوض السقوط جانبًا أو الصعود إلى أعلى. كان هذا العالم هو إسحاق نيوتن، وألهمه هذا الحادث إلى اختراع نظرية الجاذبية، وهي نظرية تفسر حركة الكواكب والتفاح أيضًا. لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ هل تعتقد أن نيوتن جمع الأدلة على صحة نظريته؟ لم يفعل حسب كَارْل پَوپِر (1902 - 1994).

يتعلم العلماء، كباقي الناس، من أخطائهم. يتقدم العلم عندما ندرك بأن طريقة خاصة في التفكير هي خاطئة. كانت هذه

نظرة كَارْل بَوبِر، في جملتين، للكيفية التي تأمل بها الإنسانية الحصول على معرفة أحسن للعالم. قبل أن يطور أفكاره كان الناس يعتقدون أن العلماء يبدؤون بشعور حول العالم، ثُمَّ يجمعون الأدلة ليبينوا أن شعورهم صحيح.

ما يفعله العلماء حسب بَوبِر هو إثبات أن نظرياتهم خاطئة. يعني اختبار نظرية هي أن نرى إن كان ممكنا دحضها (أن نبين أنها خاطئة). يبدأ العالم النموذجي بتخمين أو ظن جريء يحاول أن يقوضه بمجموعة من التجارب أو الملاحظات. العلم هو مشروع إبداعي ومثير – لكنه لا يثبت أن شيئًا ما هو صحيح – كل ما يفعله هو التخلص من الرؤى الخاطئة على أمل التقدم شيئًا فشيئًا نحو الحقيقة خلال العملية.

ولد بَوبِر في فيينا سنة 1902. على الرغم من أن عائلته اعتنقت المسيحية، فقد كان منحدرًا من أصل يهودي وعندما وصل هتلر للسلطة في الثلاثينيات، تصرف بَوبِر بحكمة وغادر ألمانيا، وتوجه في الأول إلى نيوزيلندا وبعد ذلك إلى إنكلترا حيث استقر، وحصل على منصب في مدرسة لندن للاقتصاد. كان له كشاب مجموعة كبيرة من الاهتمامات شملت العلم، وعلم النفس والسياسة والموسيقى، لكن الفلسفة كانت حبه الحقيقي. مع نهاية حياته كان قد قدم مساهمات مهمة في فلسفة العلم والفلسفة السياسية.

كان العديد من العلماء والفلاسفة يعتقدون أن طريقة الاشتغال بالعلم هي البحث عن أدلة لدعم افتراضك حتى

بدأ پَوپِر الكتابة عن المنهج العلمي. إذا أردت أن تثبت بأن كل البجع أبيض، ستقوم بملاحظات عديدة للبجع الأبيض. إذا كان كل البجع الذي رأيته أبيض، فسيكون منطقيًّا أن تعتقد أن افتراضك (كل البجع أبيض) صحيح. هذا الأسلوب من التفكير يبدأ من «كل البجع الذي رأيته أبيض» إلى الخلاصة (كل البجع أبيض). لكن من الواضح أن بجعة لم ترها يمكن أن تكون سوداء. مثلاً هناك بجع أسود في استراليا، وفي عدة حدائق للحيوانات في العالم. إذن فالجملة (كل البجع أبيض) لا تصح منطقيًّا من الأدلة. حتى لو رأيت آلاف البجع وكلهم بيض، فستبقى الجملة خاطئة. الطريقة الوحيدة القاطعة التي تثبت بها أن كل البجع بيض هي أن تنظر إلى كل بجع موجود. إذا وجدت بجعة سوداء واحدة، فسيكون استنتاجك بأن (كل البجع أبيض) قد تم دحضه.

هذه نسخة من مشكل الاستقراء، مشكل كتب عنه دَيڤيد هِيوْم في القرن الثامن عشر. الاستقراء مختلف جدًا عن الاستنتاج. هذا هو أصل المشكل. الاستنتاج هو نوع من الحجاج المنطقي حيث إذا كانت المقدمات صحيحة، فيجب أن تكون النتائج صحيحة. لنأخذ المثل المشهور، (كل الرجال سيموتون) و(سُقرَاط رجل) هي مقدمات تؤدي حتما إلى نتيجة أن (سُقرَاط سيموت). ستناقض نفسك إذا وافقت أن (كل الرجال سيموتون) وأن (سُقرَاط رجل) ثُمَّ تنفي أن (سُقرَاط سيموت). يشبه هذا قولك بأن سُقرَاط سيموت وأيضًا أنه لن يموت. طريقة للتفكير في

هذا الأمر هو أنه مع الاستنتاج تعتبر حقيقة الخلاصة مضمنة في المقدمات وما يفعله المنطق هو توضيحها. لنقدم مثالاً آخر عن الاستنتاج:

المقدمة الأولى: كل السمك له خياشيم.
المقدمة الثانية: جُوْن سمكة
الخلاصة: إذن جُوْن له خياشيم.



سيكون من غير المعقول أن نقول بأن المقدمة الأولى والمقولة الثانية صحيحتان وأن الخلاصة غير صحيحة. سيكون ذلك غير منطقي تماماً.

يختلف الاستقراء عن هذا النوع من المنطق. عادة يقتضي الاستقراء الحجاج انطلاقاً من ملاحظات مختارة إلى خلاصة عامة. إذا لاحظت أنها أمطرت كل ثلاثاء لأربعة أسابيع متتالية، يمكن أن تصدر حكما عاما من هذه الملاحظة بأن السماء تمطر كل يوم ثلاثاء. هذه حالة من الاستقراء. سيتطلب الأمر يوم ثلاثاء بدون مطر لدحض الإدعاء بأنها تمطر كل ثلاثاء. أربعة أيام ثلاثاء متتالية ماطرة هي عينة صغيرة لكل أيام الثلاثاء الممكنة. حتى لو قمت بالعديد من الملاحظات كما هو الحال في مثال البجع، فسوف توقفك حالة واحدة مخالفة لخلاصتك: ثلاثاء غير ممطر أو بجعة غير بيضاء، مثلاً. وهذا هو مشكل الاستقراء، مشكل التبرير اعتماداً على منهج الاستقراء عندما يبدو هذا الأخير غير جدير بالثقة. كيف تعرف أن كاس الماء الذي ستشربه لا يحتوي

على سم؟ الجواب: كل كؤوس الماء التي شربتها من قبل لم يكن فيها سم. إذن فأنت تفترض أن هذا الكأس لا يحتوي على سم. نستعمل هذا النوع من التفكير كل الوقت. لكن يبدو أننا لسنا على حق بوضعنا كل الثقة فيه. نحن نفترض بنيات في الطبيعة يمكن، كما لا يمكن، أن تكون موجودة.

إذا كنت تعتقد بأن العلم يتقدم بالاستقراء، كما فعل ذلك الكثير من الفلاسفة، فعليك بمواجهة مشكل الاستقراء. كيف يمكن أن يكون العلم مؤسسًا على مثل هذا الأسلوب في التفكير غير الجدير بالثقة؟ إن رؤية پَوپِر للطريقة التي يتطور بها العلم تتجنب تمامًا هذا المشكل؟ والسبب حسب پَوپِر هو أن العلم لا يعتمد على الاستقراء. يبدأ العلماء بافتراض، تخمين مُطّلِع حول طبيعة الواقع. لنأخذ مثلاً، «كل الغازات تتمدد عند التسخين». هذه فرضية بسيطة، لكن علوم الحياة الحقيقية تقتضي الكثير من الإبداع والخيال في هذه المرحلة. يجد العلماء أفكارهم في عدة أماكن. رأى عالم الكيمياء أوغست كيكولي، وهو مثال مشهور، في حلم حية تلدغ ذيلها، هذا الحلم أرشده إلى فكرة استعملها كفرضية بأن بنية جزيئات البنزين هي دائرة سداسية الأضلاع - هذه الفرضية صمدت في وجه كل محاولات العلماء لدحضها.

وجد العلماء طرقًا لاختبار هذه الفرضية - في هذه الحالة العثور على مختلف أنواع الغازات وتسخينها. لكن الاختبار لا يعني إيجاد دليل على صحة الفرضية؛ لكنه يعني محاولة إثبات

أن الفرضية يمكنها الصمود أمام محاولات نسفها. من وجهة نظر مثالية، سيبحث العلماء على غاز لا يتطابق مع الفرضية. تذكر أنه في حالة البجع لم يتطلب الأمر سوى بجعة واحدة لتقويض التعميم بأن كل البجع أبيض. وبالمثل، سيتطلب تقويض فرضية أن كل الغازات تتمدد عند التسخين العثور على غاز واحد لا يتمدد حين تسخينه.

إذا دحض عالم فرضية - أي أثبت أنها خاطئة، ينتج عن هذا جزء جديد من المعرفة: معرفة أن الفرضية خاطئة. تتقدم الإنسانية عندما تتعلم شيئًا ما. ملاحظة العديد من الغازات وهي تتمدد بفعل الحرارة لن يمنحنا أية معرفة بل سيعطيننا ثقة أكثر بفرضيتنا فقط. غير أن مثالاً مضادًا يعلمنا حقًا شيئًا ما. بالنسبة لپَوپِر، خاصية أساسية لكل فرضية هي أن تكون قابلة للدحض. استعمل هذه الفكرة ليبين الفرق بين العلم وشبه العلم. الفرضية العلمية هي التي يمكن إثبات أنها خاطئة: تقدم تنبؤات يمكن إثبات أنها خاطئة. إذا قلت: «هناك جِنِّيات غير ظاهرات ولا يمكن الكشف عنهم يجعلونني أكتب هذه الجملة»، فليس هناك أي ملاحظة يمكنك أن تقوم بها لتثبت بأن هذه الجملة خاطئة. إذا كانت الجنيات غير ظاهرة ولا تترك أثر، فليس هناك طريقة نثبت بها بأن هذا الإدعاء خاطئ. إنها تصريح غير قابل للدحض وبالتالي فهو غير علمي على الإطلاق.

كان پَوپِر يعتقد أن العديد من التصريحات حول التحليل النفسي (الفصل 30) هي غير قابلة للدحض بهذه الطريقة.

كان يعتقد أنها غير قابلة للاختبار. على سبيل المثال، إذا قال شخص ما أن كل الناس محَفَّزون برغبات لا واعية، ليس هناك اختبار يمكنه إثبات ذلك. كل دليل، بما فيه نكران الناس أنهم محفزون برغبات لا واعية، يعتبر حسب پَوپِر كدليل إضافي على أن التحليل النفسي منطقي. سيقول المحلل النفسي: «إن نكرانك للا وعي يبين أن لديك رغبة لا واعية قوية لمنازعة أبيك». غير أنه لا يمكن اختبار هذا القول لأنه ليس هناك أي دليل ممكن يمكنه أن يبين بأنه خاطئ. يؤكد پَوپِر أنه نتيجة لذلك، فالتحليل النفسي ليس بعلم. لا يستطيع التحليل النفسي أن يعطينا معرفة بنفس الطريقة التي يستطيع العلم أن يمنحنا إياها. هاجم پَوپِر التفاسير الماركسية للتاريخ بنفس الطريقة مبينا أن كل نتيجة ممكنة ستدعم الرأي القائل بأن تاريخ البشرية هو تاريخ صراع طبقي. مرة أخرى، كانت هذه التفاسير مؤسسة على فرضيات غير قابلة للدحض.

بالمقابل، كانت نظرية اينشتاين بأنه سيتم جذب الضوء من طرف الشمس نظرية قابلة للدحض. هذا ما جعلها نظرية علمية. في سنة 1919، فشلت ملاحظات الموقع الواضح للنجوم خلال كسوف للشمس في دحض هذه النظرية. لكن كان بإمكان هذه الملاحظات أن تدحض النظرية. لم يكن الضوء من النجوم ظاهرًا بطريقة عادية، غير أنه في الظروف النادرة للكسوف، تمكن العلماء من رؤية مكان المواقع الظاهرة للنجوم حيث توقعه أينشتاين أن يكون. لو أنه بدا أنها توجد في مكان آخر،

لتم تقويض نظرية اينشتاين القائلة بأن الضوء ينجذب للأجسام الكبيرة جدًا. لم يكن أينشتاين يعتقد أن هذه الملاحظات أثبتت أن نظرية أينشتاين صحيحة. لكن قابليتها للاختبار وعدم قدرة العلماء على دحضها أضافت إلى قيمتها العلمية. قدم اينشتاين توقعات كان يمكن أن تكون خاطئة لكنها لم تكن كذلك.

أعجب الكثير من العلماء والفلاسفة جدًا بوصف پَوپِر للنظرية العلمية. قال پِيتَر ميداوار الفائز بجائزة نوبل في الطب، على سبيل المثال: «أعتقد أن كَارْل پَوپِر ليس له مثيل كأعظم فيلسوف للعلوم في التاريخ». أحب العلماء بالخصوص وصف عملهم كعمل إبداعي وخيالي؛ كما أنهم أحسوا بأن پَوپِر فهم طريقة عملهم. كما أن العلماء شعروا بالفرح تجاه الطريقة التي عالج بها پَوپِر مشكل الاستقراء. في سنة 1962، نشر المؤرخ الأمريكي للعلوم وعالم الفيزياء تُومَاس كوهين كتابًا كان عنوانه بنية الثورات العلمية، الذي قدم قصة مختلفة عن كيفية تطور العلوم، وهي قصة أوحت بأن پَوپِر كان مخطئًا. كان كوهين يعتقد أن پَوپِر لم يفحص بدقة كافية تاريخ العلم. لو انه فعل ذلك، لكان بإمكانه رؤية بنية كامنة فيه.

استمر ما يسميه (العلم العادي) في التواجد معظم الوقت. يشتغل العلماء داخل إطار أو نموذج يشترك فيه كل علماء عصر معين. على سبيل المثال، قبل أن يدرك الناس أن الأرض تدور حول الشمس، كان النموذج هو أن الشمس تدور حول الأرض. كان علماء الفلك ينجزون بحوثهم داخل هذا الإطار وكان يقدمون

تفاسير لأي دليل يتعارض مع هذا النموذج. كان الاعتقاد بأن كوبرنيكوس الذي كان يشتغل داخل هذا الإطار والذي اكتشف أن الأرض تدور حول الشمس هو أن هذا العالم ارتكب خطأ في حساباته. حسب كوهين، لا توجد هناك حقائق تنتظر من يكتشفها، يثبت الإطار أو النموذج، إلى حد ما، ما يمكنك أن تفكر فيه.

تصبح الأشياء أكثر أهمية عندما يحدث ما يسميه كوهين (تحول في النموذج). يحدث هذا التحول عندما تتغير كل طريقة الفهم جذريًّا. يحدث هذا عندما يكتشف العلماء أشياء لا تتماشى مع النموذج القائم – مثلاً ملاحظات ليس لها معنى داخل نموذج الشمس تدور حول الأرض. لكن حتى في هذه الحالة يتطلب تخلي الناس عن الطرق القديمة للتفكير وقتًا طويلاً. عادة لا يرحب العلماء الذين قضوا حياتهم في الاشتغال في إطار نموذج ما طريقة مختلفة في التفكير في العالم. عندما يتحولون فعلاً إلى النموذج الجديد، تبدأ مرحلة جديدة من العلم العادي من جديد، ليشتغلوا هذه المرة في إطار النموذج الجديد. وهكذا يستمر العلم في التطور. هذا ما حدث عندما تم قلب الرؤية القائلة بأن الأرض هي مركز الكون. حالما بدأ الناس في التفكير في النظام الشمسي بهذه الطريقة، كان هناك علم عادي أكثر بإمكانهم تطويره لفهم مدارات الكواكب حول الشمس.

ليس مفاجئًا أن لا يتفق پَوپِر مع هذا التفسير لتاريخ العلم، على الرغم من أنه وافق على أن مفهوم العلم العادي نافع. سواء

كان نفسه عالما بمفاهيم قديمة، أو أنه اقترب من الحقيقة حول الواقع أكثر من كوهين، هي مسألة محيرة.

يستعمل العلماء تجارب حقيقية، لكن الفلاسفة من جهة أخرى يميلون إلى خلق تجارب فكرية ليجعلوا أفكارهم مقبولة. طور الفيلسوفان فِيلِيبَا فُوْت جُوْدِيث جَارْفِيس تُومْسِن عددًا من التجارب الفكرية الدقيقة التي تكشف عن خاصيات مهمة لفكرنا الأخلاقي.



الفصل السابع والثلاثون



فِلِيبَا فُوْت وجُوْدِيث جَارْفِيس تُومْسِن

القطار المنفلت وعازف الكمان غير المرغوب فيه

أنت الآن تتمشى خارج المنزل وترى قطارًا منفلتًا يتوجه بسرعة جنونية نحو خمسة عمال. فقد السائق وعيه، ربما نتيجة لأزمة قلبية. إذا لم يُفعل أي شيء سيموت الجميع. سيسحقهم القطار جميعًا. إنه يسرع بدرجة كبيرة لا تسمح لهم بالهروب. غير أن هناك أمل واحد. هناك مفترق في السكة الحديدية مباشرة قبل الرجال الخمسة، وفي الخط الآخر يوجد عامل واحد. أنت قريب بقدر كاف يُمكِّنك من التدخل وتشغيل المُحَوِّل وتجعل القطار يغير وجهته بعيدًا عن العمال الخمسة ويقتل العامل الوحيد. هل قَتْل هذا الإنسان البريء هو الفعل الصحيح الواجب فعله؟ من

حيث العدد فهو صحيح بالتأكيد لأنك تنقذ خمسة أشخاص وتقتل فقط شخصًا واحدًا. سيزيد هذا من مقدار السعادة إلى أقصى حد. بالنسبة لأغلب الناس يبدو هذا هو الفعل الصحيح. في الحياة الواقعية سيكون صعبًا جدًا تشغيل ذلك المحول ورؤية شخص يموت نتيجة لذلك، لكن سيكون أسوأ إن لم تفعل شيئًا واكتفيت برؤية خمسة أشخاص يموتون.

هذه نسخة من تجربة فكرية اختلقتها الفيلسوفة البريطانية فِلِيبَا فُوْت (1920 – 2010). كانت مهتمة بمعرفة السبب الذي يجعل القول بأن إنقاذ خمسة أشخاص على السكة أمر مقبول ولكن في بعض الحالات تكون التضحية بواحد لإنقاذ خمسة غير مقبول. تخيل شخصًا يتمتع بصحة جيدة يدخل جناحًا في مستشفى. يوجد في هذا الجناح خمسة أشخاص يحتاجُوْن خمسة أعضاء بشكل مستعجل. إذا لم يحصل أحدهم على زرع قلب، فسيموت. آخر يحتاج للكبد وآخر لكلية، وهلم جرًا. هل سيكون مقبولاً أن نقتل الرجل الذي يتمتع بصحة جيدة ونقطع جسده لنقدم أعضاءه إلى المرضى؟ بالكاد. لا أحد يعتقد أنه سيكون مقبولاً قتل الرجل المتمتع بصحة جيدة، ونزع قلبه ورئتيه وكبده وكليته وزرعهم في المرضى الخمسة. غير أن هذه حالة قتل شخص واحد لإنقاذ خمسة أشخاص. ما هو الفرق بين هذه الحالة وحالة القطار الهارب؟

التجربة الفكرية هي وضعية خيالية صُممت لتُحَفز أحاسيسنا أو ما يسميه الفلاسفة حدسنا حول موضوع معين. يستعملهم

الفلاسفة كثيرًا. تسمح لنا التجارب الفكرية بالتركيز أكثر على ما هو في خطر. سؤال الفلاسفة هنا هو: «متى يكون مقبولاً التضحية بشخص واحد لإنقاذ أشخاص أكثر؟» تسمح لنا قصة القطار المنفلت بالتفكير في هذا الموضوع. إنها تعزل العوامل الأساسية وتبين لنا إذا ما كنا نحس بأن مثل هذا الفعل هو خطأ أم لا.

يقول بعض الناس بأنه لا يجب أن نُشِغِّل المحول في هذا المثال لأنك سنلعب بذلك دور الإله: نقرر من سيعيش ومن سيموت. غير أن أغلب الناس يعتقدون أنه واجب.

تخيل حالة لها علاقة بما سبق. قدم الفيلسوف الأمريكي جُوْدِيث جَارْفِيس تومسون نسخته للمشكل الأصلي. القطار المنفلت يتحرك هذه المرة على سكة مستقيمة نحو الأشخاص الخمسة غير المحظوظين الذين سيموتون حتما إذا لم تفعل شيئًا. أنت واقف فوق قنطرة، وبجانبك رجل ضخم. إذا دفعته من فوق القنطرة، فإنه ضخم بقدر كافي لتقليص سرعة القطار وإيقافه قبل أن يصدم العمال الخمسة. لنفترض أن لك القوة لدفع الرجل الضخم أمام القطار، هل يجب عليك فعل ذلك؟

الكثير من الناس يعتقدون أن هذه حالة أصعب ويميلون أكثر لقول (لا) على الرغم من أنه في كلتا الحالتين، هذه الحالة وحالة السكة بمفترق وبإمكانية تشغيل المحول، نتيجة الفعل هي واحدة وهي قتل رجل واحد عوض خمسة أشخاص. في الحقيقة، يبدو دفع الشخص من أعلى القنطرة شبيها أكثر بجريمة قتل. إذا كانت النتائج متشابهة في الحالتين، فيجب أن لا يكون

هناك مشكل. إذا كان صحيحًا تشغيل المحول في الحالة الأولى، فسيكون صحيحًا كذلك دفع الرجل من أعلى القنطرة. هذا محير.

إذا كانت الوضعية الخيالية لدفع الرجل من أعلى القنطرة توحي ببعض الصعوبات من حيث القوة الجسدية، أو أنك لم تستطع فعل ذلك بسبب وحشية مصارعة الرجل حتى الموت، يمكن مراجعة الحالة بإضافة باب في أرضية القنطرة. باستعمالك لذراع التشغيل كما هو الأمر في الحالة الأولى مع المحول، يمكنك إسقاط الرجل في طريق القطار بأقل مجهود. كل ما عليك فعله هو تحريك ذراع التشغيل. يرى الكثير من الناس أن هذا مختلف من الناحية الأخلاقية عن الحالة الأولى حيث يتم تشغيل المحول في المفترق. لماذا هذا الاختلاف؟

يفسر لنا ما يسمى قانون الأثر المزدوج لماذا نعتقد أن حالة المفترق مختلفة عن حالة الرجل في القنطرة. هذا هو الاعتقاد بأنه، مثلاً، مقبول من الناحية الأخلاقية أن تضرب شخصًا ما بقوة وتقتله لكن فقط عندما تكون نيتك الدفاع عن نفسك وتكون الضربة الخفيفة غير مجدية ولن تحميك. يمكن أن تكون الآثار الجانبية المتوقعة لفعل ما بنية حسنة (في هذه الحالة إنقاذ حياتك) مقبولة، لكن الأذى المتعمد غير مقبول. ليس صحيحًا أن تذهب إلى شخص يخطط لقتلك وتسممه. في الحالة الأولى هي حالة تكون لك فيها نية مقبولة، غير أن متابعة تنفيذ هذه النية يؤدي إلى موت شخص ما. في الحالة الثانية فإنك تنوي

قتل الشخص وهذا غير مقبول. بالنسبة لبعض الناس هذا يحل المشكل. يعتقد آخرون أن مبدأ الأثر المزدوج خطأ.

تبدو هذه الحالات غريبة وبعيدة عن الحياة اليومية. هذا صحيح إلى حد ما. ليس القصد منها أن تكون حالات حقيقية. إنها فقط تجارب فكرية صُممت لتوضيح بعض المعتقدات. لكن من حين لآخر تظهر حالات واقعية تستوجب اتخاذ قرارات مشابهة. على سبيل المثال، خلال الحرب العالمية الثانية كان النازيون يقذفون بعض أحياء لندن بالصواريخ. أصبح جاسوس ألماني عميل مزدوج. أرسل البريطانيون من خلاله معلومات مُضللة إلى الألمان، تخبرهم بأن الصواريخ تسقط بعيدًا نحو الشمال عن الأهداف المقصودة. دفع ذلك الألمان إلى تغيير هدفهم، وعوض أن تسقط الصواريخ على مناطق مأهولة بالسكان، أصبحت تسقط على الناس في مناطق في الجنوب في كانت وسوري. بتعبير آخر، كانت هناك إمكانية لتقديم معلومات تسبب قتل ناس أقل. في هذه الحالة قرر البريطانيون عدم لعب دور الإله.

في حالة أخرى واقعية، قرر المشاركون التصرف. في كارثة زيربروغ لعام 1987 عندما غرقت باخرة حاملة للسيارات وكان عشرات من المسافرين يكافحون مِنْ أَجْلِ إنقاذ أنفسهم من البحر البارد جدًا، تجمد رجل يحاول تسلق سلم من حبال في مكانه بسبب الخوف ولم يستطع التحرك. بقي في تلك الوضعية على الأقل لعشر دقائق، مانعًا أي شخص آخر من الصعود من البحر. لو لم يسرعوا في الصعود، لكان الموت أو الغرق من نصيبهم.

في الأخير دفعه هؤلاء الذين كانوا يحاولون الصعود إلى البحر وتمكنوا من النجاة. سقط الشاب في البحر وغرق. كان قرار دفع الشاب إلى البحر قرارًا مؤسفًا بالتأكيد، لكن في مثل هذه الظروف القصوى، كما هو الشأن بالنسبة للقطار المنفلت، كانت التضحية بشخص واحد لإنقاذ الكثير من الأشخاص ربما قرارًا صائبًا.

ما زال الفلاسفة يناقشون مشكل القطار والطريقة التي يجب أن يُحل بها. كما أنهم يناقشون تجربة فكرية أخرى قدمها جوديث جَارْفِيس تُومْسِن (ولدت سنة 1929). كان الهدف هو أن تبين أن المرأة التي استعملت موانع الحمل ثُمَّ حملت على الرغم من ذلك، ليست ملزمة أخلاقيًّا بالحفاظ على هذا الحمل. يمكنها أن تتخلص من الجنين دون أن تكون قد ارتكبت فعلاً غير أخلاقي. سيكون الاحتفاظ بالجنين في مثل هذه الظروف عملاً خيريًّا وليس واجبًا أخلاقيًّا. عادة ما كانت النقاشات حول أخلاقيات الإجهاض تركز على وجهة نظر الجنين. كان رأيها مهما لأنه أعطى الكثير من القيمة لوجهة نظر المرأة. لنعطي مثالاً.

كان عازف كمان مشهور يعاني من مشكل في الكلي. كانت فرصته الوحيدة في البقاء على قيد الحياة هي أن يوصَل جسده بجسد شخص له نفس فصيلة الدم النادرة. لنتخيل أنك من هذه الفصيلة الدموية. ذات صباح استيقظت لتجد أن الأطباء أوصلوا جسده بكليتك وأنت نائم. يبين تُومْسِن أنه في مثل هذه الحالة ليس واجبًا عليك إبقاء جسده موصلاً بكليتيك على الرغم من أنك تعرف أنه سيموت إذا فصلته عن جسدك. وبالمثل، تعتقد

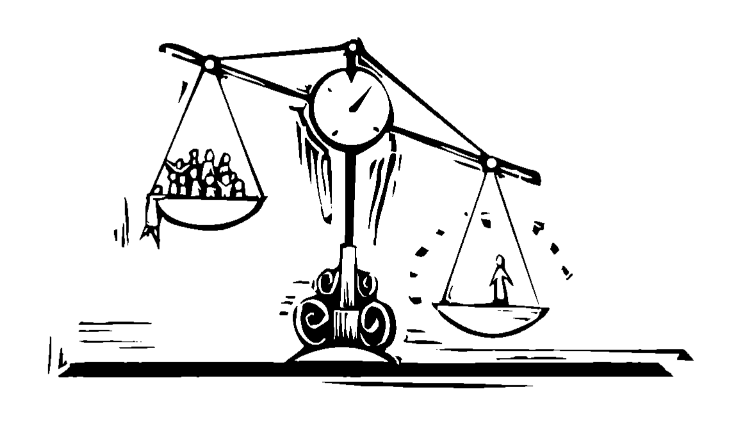
أنه إذا أصبحت المرأة حاملاً على الرغم من تناول موانع الحمل، فإن الجنين في رحمها ليس له حق تلقائي في استعمال جسدها. الجنين يشبه عازف الكمان.

قبل تقديم تُومْسِن لهذا المثال، اعتقد الكثير من الناس أن السؤال الحاسم هو (هل الجنين شخصًا؟) كانوا يعتقدون أنهم إذا استطاعوا أن يبينوا أن الجنين هو شخص، فبالتالي يصبح الإجهاض غير أخلاقي بالتأكيد في كل الحالات. كانت تجربة تُومْسِن الفكرية توحي بأنه ولو كان الجنين شخصًا فهذا لن يقدم حلاً للمشكلة.

لا يتفق الجميع بالطبع مع هذا الجواب. ما زال بعض الناس يعتقدون أنه لا يجب أن تلعب دور الإله حتى لو استيقظت ووجدت عازف الكمان موصلاً بكليتيك. ستكون حياتك صعبة إلّا إذا كنت تحب حقًا موسيقى عزف الكمان. لكنه سيكون من الخطأ قتل عازف الكمان على الرغم من أنك لم تختر مساعدته. وبالمثل، يعتقد الكثير من الناس أنه يجب عليك أن لا تُنْهي حياة جنين في صحة جيدة على الرغم من أنه لم يكن لديك نية الحمل واتخذت الاحتياطات لتفادي الحمل. غير أن ما تسعى إليه هذه التجارب الفكرية المصممة بطريقة ذكية هو الكشف عن المبادئ المضمنة في هذه الاختلافات.

استعمل الفيلسوف السياسي جُوْن رُوْلز أيضًا تجربة الفكرية ليبحث، في حالته، في طبيعة العدالة وأحسن المبادئ لتنظيم المجتمع.

الفصل الثامن والثلاثون



جُوْن رُوْلز

العدل من خلال الجهل

ربما أنت غني، ربما غني جدًا. لكن معظمنا ليسوا بأغنياء، وبعض الناس فقراء جدًا، لدرجة أنهم يقضون معظم حياتهم القصيرة يعانون من الجوع والمرض. لا يبدو هذا عادلاً أو صحيحًا – وبالتأكيد هو ليس كذلك. لو كانت هناك عدالة حقيقية في هذا العالم، فلن يموت أطفال جوعًا في حين أن آخرين يتوفرون على أموال كثيرة جدًا لدرجة أنهم لا يجدون ما يفعلون بها. كل شخص مريض له الحق في الحصول العلاج الطبي. لن يكون فقراء إفريقيا أسوأ من فقراء الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. ولن يكون أغنياء الغرب أغنى آلاف المرات

من هؤلاء الذين ولدوا فقراء دون أن يكون لهم يد في ذلك. العدل هو معاملة الناس بإنصاف. هناك ناس حولنا حياتهم مليئة بالأشياء الجميلة، في حين أن آخرين، على الرغم من أن وضعهم ليس بسبب خطأ ارتكبوه، يتوفرون على اختيارات قليلة جدًا بشأن طريقة حياتهم: لا يستطيعون اختيار المهن التي يشتغلون بها ولا المدن التي يسكنون بها. بعض الناس الذين يفكرون حول هذا التفاوت سيقولون فقط: (الحياة غير عادلة)، ويهزون أكتافهم. هؤلاء هم عادة من كانوا محظوظين بالخصوص؛ يمضي آخرون وقتهم في التفكير حول الطريقة التي يمكن أن يكون بها المجتمع أكثر تنظيمًا، وربما يحاولون تغييره ليكون أكثر عدلاً.

كتب جُوْن رُوْلز (1921 – 2002)، أكاديمي هادئ ومتواضع من هارفد، كتابًا غَيّر الطريقة التي يفكر بها الناس حول هذه الأشياء. كان ذلك الكتاب نظرية للعدل (1971) وهو خلاصة تفكير جاد لمدة عشرين سنة تقريبًا. إنه كتاب أستاذ جامعي كتب لأساتذة آخرين بأسلوب أكاديمي جاف إلى حد ما. خلافًا لمعظم الكتب من هذا النوع، فهو لم يبق مهملاً على رفوف المكتبات، بل خلافًا لذلك أصبح الكتاب الأكثر مبيعًا. من المدهش، من بعض الأوجه، أن يقرأه عدد كبير من الناس. لكن أفكاره الأساسية كانت مهمة جدًا لدرجة أنه تم اعتباره بسرعة واحدًا من أهم الكتب تأثيرًا في القرن العشرين، وقُرأ

من طرف الفلاسفة والمحامين والسياسيين وآخرون كثر - شيء لم يحلم رُوْلز أبدًا بأنه ممكن.

حارب رُوْلز في الحرب العالمية الثانية وكان في المحيط الهادي يوم 6 غشت 1945 عندما أُسقطت القنبلة النووية على المدينة اليابانية هيروشيما. كان متأثرًا جدًا بتجاربه في الحرب وكان يعتقد أن استعمال الأسلحة النووية كان خطأ. مثل العديد ممن عاشوا تلك المرحلة، كان يريد أن يخلق عالما أحسن ومجتمعًا أحسن. لكن طريقة إحداثه للتغيير كانت عبر التفكير والكتابة، عوض الالتحاق بالتجمعات والاهتمام المباشر بالقضايا السياسية. عندما كان يكتب نظرية للعدل، كانت الحرب في الفيتنام مشتعلة وكانت هناك احتجاجات واسعة في كل الولايات المتحدة الأمريكية ضد الحرب، ولم تكن كلها مسالمة. اختار رُوْلز أن يكتب عن القضايا العامة التجريدية المتعلقة بالعدل، عوض الاهتمام بقضايا الساعة. كانت فكرة أننا نحتاج إلى التفكير بوضوح حول كيفية العيش المشترك وحول الطرق التي تؤثر بها الدولة على حياتنا. لتكون حياتنا محتملة يجب أن نتعاون. لكن كيف؟

تخيل أنه يجب عليك أن تخطط لإقامة مجتمع جديد وأحسن. يمكنك أن تطرح سؤال: (من يحصل على ماذا؟) إذا كنت تعيش في قصر به مسبح وخدم، ولك طائرة خاصة تنتظر لتحملك إلى جزيرة استوائية، يمكن أن تفكر في خلق عالم حيث بعض الناس أغنياء جدًا - ربما الأشخاص الذين يشتغلون بجد - وآخرون فقراء. إذا كنت تعيش في الفقر الآن، ستخلق ربما مجتمعًا حيث

لا يُسمح لأحد أن يكون غنيًّا جدًا، مجتمع حيث يحصل الجميع على نصيب أكثر مساواة ممّا هو متوفر: لا يُسمح بطائرات خاصة، لكن تُقدم فرص أحسن للناس غير المحظوظين. هذه هي الطبيعة البشرية: يفكر الناس في وضعهم عندما يفكرون في عالم أحسن، سواء أدركوا ذاك أو لم يدركوه. هذه الأفكار المسبقة والأفكار المتحيزة تشوه التفكير السياسي.

قدمت لنا عبقرية رُوْلـز تجربة فكرية - سماها (الموقع الأصلي) - تقلل من أهمية الأفكار المنحازة الأنانية التي لدينا جميعًا. فكرته الأساسية بسيطة جدًا: خلق مجتمع أحسن، لكن افعل ذلك دون معرفة الموقع الذي ستحتله في المجتمع. لا تعرف إذا ما كنت ستكون غنيًّا أو فقيرًا أو إنسانا بإعاقة، أو ستكون أنيقًا، رجلاً أو امرأة، قبيحًا ذكيًّا أو غبيًّا، موهوبًا أو غير موهوب، مثلي، ثنائي الجنس أو ميال للجنس الآخر. يعتقد أنك ستختار مبادئ أكثر عدلاً من وراء هذا (الحجاب من الجهل) لأنك لا تعرف الموقع الذي ستحتله في النهاية، أو الشخص الذي يمكن أن تكونه. بهذه الآلية البسيطة للاختيار دون معرفة موقعك، طور رُوْلز نظريته للعدل. كان هذا مؤسسًا على مبدأين اعتقد أن كل الناس العاقلين سيقبلونهما وهما مبدأي الحرية والمساواة.

كان أول مبدأ هو مبدأ الحرية. يقول هذا المبدأ: يجب أن يتمتع الجميع بالحق في مجموعة من الحريات الأساسية التي لا يجب أن تنتزع منهم، كحرية المعتقد، حرية التصويت على زعمائهم وحرية واسعة للتعبير. حتى لو أن تقييد بعض هذه الحريات

حَسّن حياة أغلبية الناس، يعتقد رُولز، كان مهما أن يتم حماية هذه الحريات فوق كل شيء. مثل كل الليبراليين، أعطى رُولز قيمة عليا جدًا لهذه الحريات الأساسية، معتقدًا أن كل فرد له الحق فيهم ولا يجب أن ينزعهم أحد منهم.

المبدأ الثاني رُولز هو مبدأ الاختلاف، وهو يتعلق بالمساواة. يجب أن ينتظم المجتمع بطريقة تمنح ثروة وفرص أكثر مساواة للذين يعيشون حياة صعبة. إذا تلقى الناس كميات مختلفة من المال، يُسمح بهذا التفاوت فقط إذا كان يساعد مباشرة غير المحظوظين. يمكن أن يحصل بنكي على 10000 مرة أكثر من عامل له أدنى أجرة إذا كان هذا العامل يستفيد مباشرة ويحصل على قدر زائد من المال الذي لن يُمْكِنَه الحصول عليه لو أن البنكي تلقى أجرًا أقل. لو كان رُولز مسئولاً، لن يحصل أحد على زيادات إلّا إذا حصل الناس الأكثر فقرًا على مال أكثر كنتيجة لذلك. يظن رُولز أن هذا هو نوع العالم الذي سيقبله الناس العقلاء إذا لم يكونوا يعرفون إذا ما سيكونون أغنياء أو فقراء أنفسهم.

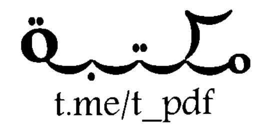
قَبْل رُولز، كان الفلاسفة والسياسيون، الذين فكروا في من يحصل على ماذا، غالبًا يدافعون عن وضعية تنتج أعلى معدل قدر من الثروة. يمكن أن يعني ذلك أنه يمكن لبعض الناس أن يكونوا أغنياء جدًا، وكثيرُ أغنياء بقدر معتدل وقليل فقراء جدًا. لكن بالنسبة رُولز، كانت مثل هذه الوضعية أسوأ من تلك التي لا يوجد فيها أغنياء جدًا، لكن الجميع يحصل على نصيب أكثر مساواة على الرغم من أن معدل كمية الثروة أقل.

هذه فكرة يصعب قبولها – خصوصًا بالنسبة للذين يستطيعون الحصول على أجور عالية في العالم كما هو. ساءل هذه الفكرة روبرت نوزيك (1938 – 2002) فيلسوف سياسي أمريكي آخر مهم، يميل إلى اليمين من الناحية السياسية أكثر من رُوْلز. من الأكيد أن المعجبين الذين جاءوا لمشاهدة لاعب كرة سلة مشهور لهم كل الحق في أن يمنحوا جزءًا من قيمة التذكرة لذلك اللاعب. إن لهم الحق في صرف أموالهم بهذه الطريقة. يعتقد نوزيك أنه إذا جاء ملايين لمشاهدته، إذن فسيحصل هذا اللاعب بكل إنصاف على ملايين الدولارات. لا يتفق رُوْلز مع هذا الرأي إطلاقًا. يبين رُوْلز أنه إذا لم يصبح الناس الأكثر فقرًا أغنى كنتيجة لهذه العملية، فبالتالي لا يجب السماح للأرباح الشخصية لهذا اللاعب أن ترتفع إلى مثل هذه المستويات المرتفعة. كان اعتقاد رُوْلز مثيرًا للجدل من حيث أنه يعتبر أن كون إنسان عداء موهوب أو شخص ذكي جدًا لا يسمح له بطريقة تلقائية أن يحصل على أرباح عالية. كان ذلك جزئيًا بسبب أنه كان يعتقد أن مثل هذه الأشياء كالقدرة الرياضية والذكاء هما مسألة حظ. أنت لا تستحق أكثر فقط لأنك محظوظ بالقدر الكافي لتكون عداء سريعًا أو لاعب كرة كبير أو ذكي. كونك موهوب في ألعاب القوى أو ذكي هو نتيجة للفوز في (يانصيب الطبيعية). لا يتفق الكثير من الناس مع رُوْلز ويعتقدون أن الامتياز يجب أن يُكافأ. غير أن رُوْلز يعتقد أنه لا يوجد ربط تلقائي بين أن تكون جيدًا في شيء ما وأن تستحق أكثر.

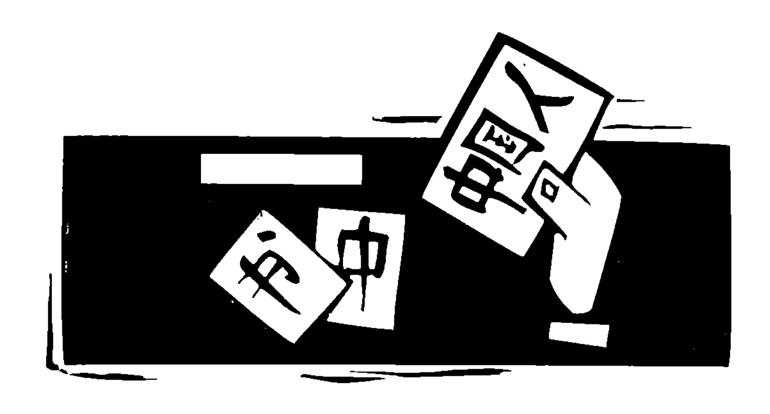
ماذا لو أن بعض الناس فضلوا المقامرة من وراء حجاب الجهل؟ ما ذا لو اعتبروا الحياة يانصيب وأرادوا أن يتأكدوا من أن هناك بعض المواقع الجذابة جدًا ليحتلوها في المجتمع؟ يمكن افتراضًا أن يخاطر المقامرون بأن يصبحوا في النهاية فقراء لو كانوا محظوظين بأن يكونوا أغنياء جدًا. بالتالي يفضلون عالما بمجموعة من الإمكانات الاقتصادية أوسع من تلك في الموجودة في العالم الذي وصفه رُولز. كان رُوْلز يعتقد أن الناس العقلاء لا يفضلون المقامرة بحياتهم بهذه الطريقة. ربما كان مخطئًا حول هذا الموضوع.

خلال القرن العشرين فقد الفلاسفة الاتصال بمفكري الماضي العظماء. كان كتاب رُوْلز نظرية للعدل من بين الكتب القلائل في الفلسفة السياسية في ذلك القرن التي تستحق الذكر بنفس النفس الذي كان عند أَرِسْطو، هُوبْز، لُوك، رُوسُو، هِيوْم كَانْط. كان رُوْلز متواضعًا جدًا ولن يتفق نفسه مع هذا الرأي. ألهم مثاله، على الرغم من ذلك، جيلاً من الفلاسفة يكتبون اليوم، من بينهم مايكل ساندل، تُومَاس بوغ، مارتا نوسبوم وويل كيمليكا: كلهم يعتقدون أن الفلسفة يجب أن تهتم بالأسئلة الصعبة والعميقة حول الطريقة التي يجب أن نعيش بها معًا. خلافًا لفلاسفة من الجيل السابق، لا يخافون من الجواب عنها وتحفيز التغيير الاجتماعي. يعتقدون أنه يجب على الفلسفة أن تغير فعلاً الكيفية التي نعيش بها، وليس فقط كيفية مناقشة طريقة حياتنا.

فيلسوف آخر له رؤية مماثلة هو پِيتَر سِنْغَر. إنه موضوع آخر جزء من هذا الكتاب. لكن قبل تناول أفكاره، سنستكشف سؤالاً أصبح أكثر راهنية في حياتنا اليومية: «هل تستطيع الحواسيب أن تفكر؟».



الفصل التاسع والثلاثون



أَلَان تُوْرِن وجُوْن سِيْرل

هل تستطيع الحواسيب أن تفكر؟

أنت جالس في غرفة. هناك باب في الغرفة بصندوق بريد. من حين لآخر تظهر قطعة من ورق مقوى من فتحة في الباب عليها شكل غير مقروءة وتسقط على ممسحة الأرجل. مهمتك هي أن تبحث عن معنى ذلك الشكل في كتاب موضوع فوق طاولة في الغرفة. كل شكل يقابله رمز آخر في الكتاب. يجب عليك أن تجد الشكل الذي لديك في الكتاب، وتجد الرمز الذي يقابله ثُمَّ تجد قطعة من ورق مقوى عليه الرمز الذي يتطابق مع الشكل الذي لديك. بعد ذلك تدفع تلك القطعة من الورق

بحرص عبر فتحة صندوق البريد. هذا كل شيء. تفعل هذا لمدة من الزمن ثُمَّ تتساءل عن ما يحدث.

هذه هي التجربة الفكرية المسماة (الغرفة الصينية)، وهي اختراع الفيلسوف الأمريكي جُوْن سِيْرل (ولد سنة 1932). إنها وضعية خيالية صُممت لتبين أن الحاسوب لا يستطيع التفكير حتى لو بدا أنه يفعل ذلك. لفهم ما يحدث هنا، يجب أن تفهم اختبار تُوْرِن.

كان تُوْرِن ألَان (1912 – 1954) عالم رياضيات بارز من كيمبردج ساعد على اختراع الحاسوب الحديث. حلّت آلاته للعمليات الحسابية المعقدة، التي صنعت خلال الحرب العالمية الثانية ووضعت في بليتشلي بارك بإنكلترا، شفرات إنيغما التي كان يستعملها قادة الغواصات الألمانية. أصبح بإمكان الحلفاء اعتراض الرسائل ومعرفة ما كان يخطط له النازيون.

لأنه كان مفتونا بفكرة أنه في يوم ما يمكن أن تقوم الحواسيب بمهمات أخرى غير فك الشفرات ويمكنها أن تصبح ذكية، اقترح اختبارًا، في سنة 1951، يجب على كل حاسوب أن يجتازه. أصبح يُعرف باختبار تُوْرِن للذكاء الاصطناعي، غير أنه كان يسميه في الأصل (لعبة التقليد). مصدر هذه اللعبة هو اعتقاده بأن ما يثير الإعجاب حول المخ ليس لأن له تناسق عصيدة باردة. لوظيفته أهميه أكثر من الطريقة التي يرتعش بها عندما يُستخرج من الرأس، أو أنه يبدو مهما لأنه ذو لون رمادي. يمكن أن تكون

الحواسيب صلبة ومصنوعة من مكونات إلكترونية، لكنها تقوم مع ذلك بعدد من الأشياء التي يقوم بها الدماغ.

عندما نُصدر حكما على ذكاء شخص ما، فإننا نفعل ذلك اعتمادًا على الأجوبة التي قدمها وليس بفتح دماغه لمعرفة شكله الداخلي. سيكون من العدل أنه عندما نُصدر حكما على حاسوب أن نُركز على أدلة خارجية عوض التركيز على الطريقة التي يتكون بها. يجب أن ننظر إلى المعلومات التي تدخل إليهما والمعلومات التي تصدر عنهما، وليس الدم والأعصاب، أو الأسلاك الكهربائية والأجهزة الإلكترونية. هذا ما اقترحه تُوْرِن. يوجد مشارك في الاختبار في غرفة، يقوم بمحادثة على الحاسوب. لا يعرف هذا المشارك إذا ما كان يتحدث مع شخص آخر في غرفة أخرى أو يتلقى أجوبة من حاسوب. إذا لم يعرف المشارك خلال المحادثة إذا ما كان من يحادثه آلة أو مخلوق بشري، يكون الحاسوب قد نجح في اختبار تُوْرِن. إذا نجح الحاسوب في الاختبار، فمن المعقول أن نقول بأنه ذكي - ليس فقط بطريقة مجازية، ولكن بالطريقة التي يمكن لمخلوق بشري أن يكون بها ذكيًا.

كان هدف مثال سِيْرل للغرفة الصينية - السيناريو بالكتابة غير المفهومة على قطع ورق - هو أن يبين أنه حتى لو نجح الحاسوب في اختبار تُوْرِن الخاص بالذكاء الاصطناعي، لن يثبت ذلك أن الحاسوب فَهِم حقًا أي شيء. تذكر أنك في غرفة تتلقى رموزًا غريبة عبر فتحة صندوق البريد وأنك تستعين بكتاب للقواعد. هذه مهمة ليس لها معنى بالنسبة لك، وليست لك فكرة عن

السبب الذي يجعلك تفعل ذلك. لكن دون أن تدرك ذلك فأنت تجيب على أسئلة باللغة الصينية، وأن العلامات التي تُقَدّم هي أجوبة محتملة لتلك الأسئلة. تفوز الغرفة الصينية وأنت بداخلها بلعبة التقليد. أنت تعطي أجوبة قد تجعل شخصًا في الخارج يعتقد أنك تفهم حقًا ما تقدمه من أجوبة. وعليه فهذا الأمر يبين أن الحاسوب الذي نجح في اختبار تُوْرِن ليس بالضرورة ذكيًّا، لأنك من داخل الغرفة لا تفهم ما يتم مناقشته على الإطلاق.

يعتقد سِيْرل أن الحواسيب هي مثل شخص في الغرفة الصينية: ليس لهم ذكاء حقًا، ولا يستطيعون التفكير. كل ما يفعلونه هو تنظيم الرموز حسب قواعد برمجها من صنعوه بداخله. تُركَّب العمليات التي تستعمل في برنامج. لكن هذا مختلف عن الفهم الحقيقي للأشياء أو عن الذكاء الحقيقي. طريقة أخرى للتعبير عن ذلك هو أن الأشخاص الذين برمجوا الحاسوب، وضعوا فيه تركيبًا: وهذا يعني أنهم زودوه بالترتيب الصحيح الذي يستعمل في التعامل مع الرموز. لكنهم لم يزودوه بالمعاني: أي لم يزودوه بمعاني الرموز. المخلوقات البشرية تعني شيئًا عندما تتكلم - ترتبط أفكارهم من عدة أوجه بالعالم. الحواسيب التي تبدو أنها تعني شيئًا هي فقط تُقلِّد التفكير البشري، إلى حد ما مثل الببغاء. على الرغم من أنه يمكن للببغاء أن يقلد الأصوات، فإنه حقًا لا يفهم أبدًا ما يقوله. وبالمثل، حسب سِيْرل، الحواسيب لا تفهم حقًا أو تفكر حول أي شيء: لا يمكنك أن تحصل على المعاني من التركيب فقط.

هناك نقد للتجربة الفكرية سِيْرل وهو أنها تنظر إلى مسألة ما إذا كان الشخص في الغرفة يفهم ما يحدث. لكن هذا خطأ. الشخص هو فقط جزء من النظام في كليته. إذا لم يكن الشخص يفهم ما يحدث، فربما النظام في كليته (بما في ذلك الغرفة، كتاب القواعد، الرموز وغيرهم) يفهم. كان جواب سِيْرل على هذا الانتقاد هو تغيير التجربة الفكرية. عوض أن نتخيل شخصًا في غرفة ينظم الرموز، تخيل هذا الشخص وقد حفظ كتاب القواعد كله، ويوجد في الخارج وسط حقل يقدم بطاقات الرموز المناسبة. لن يفهم الشخص كذلك الأسئلة الفردية على الرغم من أن باستطاعته تقديم الأجوبة الصحيحة عن الأسئلة التي قُدِّمت باللغة الصينية. يقتضي الفهم شيئًا أكثر من إعطاء أجوبة صحيحة فقط.

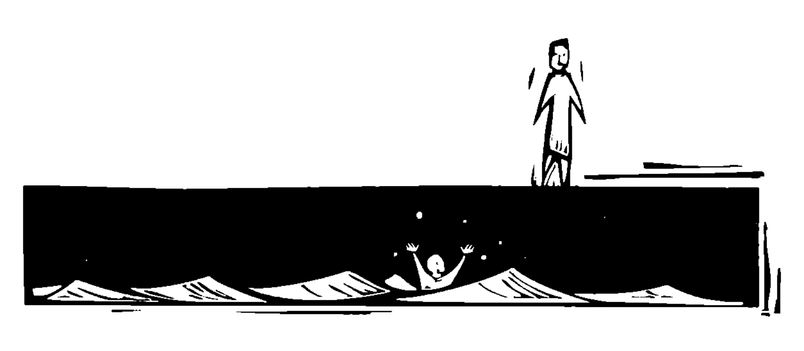
غير أن بعض الفلاسفة ما زالوا مقتنعين بأن العقل البشري يشبه تمامًا برنامج الحاسوب. يعتقدون أن الحواسيب تستطيع فعلاً التفكير. إذا كان رأيهم صائبًا، فربما سيكون ممكننا يوم ما نَقْل الدماغ البشري إلى الحاسوب. إذا كان دماغك برنامجًا، فليس لأنه يوجد في كتلة من الدم في نسيج في رأسك الآن، فلن يمكنه أن يشتغل في جهاز حاسوب كبير في مكان ما في المستقبل. إذا تمكن شخص ما من تخطيط مليارات الترابطات الوظيفية التي تُشكّل عقلك، بمساعدة حواسيب فائقة الذكاء، فربما يصبح ممكنا يومًا ما أن نبقى أحياء. يمكن أن يُنقل عقلك إلى حاسوب حتى يتمكن من الاستمرار في الاشتغال لوقت طويل حتى بعد

دفن جسدك أو حرقه. إذا ما كان ذلك طريقة جيدة للوجود فتلك مسألة أخرى. إذا كان سِيْرل محقًا على الرغم من ذلك، فليس هناك أي ضمان بأن عقلك المنقول سيكون واعيا بنفس الطريقة التي هو عليها الآن، على الرغم من أنه يمكن أن يقدم أجوبة تبين بأنه كذلك.

بعد اشتغاله بالكتابة لمدة تتجاوز الستين عاما، كان تُوْرِن مقتنعًا مسبقًا بأن الحواسيب تفكر. إذا كان محقًا، فلن يمر وقت طويل حتى تتمكن الحواسيب من التفكير في الفلسفة. يبدو هذا أكثر احتمالاً من فكرة بقاء نشاط العقل بعد الموت. ربما في يوم من الأيام سيكون للحواسيب أشياء جد مهمة لتقديمها لنا حول قضايا أساسية كالطريقة التي يجب أن نعيش بها وعن طبيعة الواقع - وهي نوع القضايا التي تصارع معها الفلاسفة لعدة آلاف من السنين. غير أنه في نفس الوقت يجب أن نعتمد على فلاسفة من دم ولحم لتوضيح تفكيرنا حول هذه القضايا. أحد هؤلاء الفلاسفة الذين أثاروا الكثير من الجدل وكان لهم تأثير كبير هو پِيتَر سِنْغَر.



الفصل الأربعون



بِيتَر سِنْغَر

نَعْرة حديثة

أنت في حديقة حيث توجد بركة ماء. هناك رش بالماء وصراخ. تُدْرِك أن هناك طفل صغير ويمكن أن يغرق. ماذا ستفعل؟ هل ستتابع سيرك؟ حتى لو أنك وعدت بمقابلة صديق والتوقف سيؤخرك، سوف تعتبر بالتأكيد حياة الطفل أهم من الوصول في الوقت. البركة ليست عميقة لكنها مليئة بالوحل. ستفسد أحسن حذاء لديك إذا قمت بالمساعدة. لكن لا تتوقع أن يتفهم الناس الآخرون موقفك إذا لم تقم بالقفز والمساعدة. هذا أمر يتعلق بمخلوق بشري وبتقييم الحياة. حياة طفل هي أكثر قيمة بكثير من أي زوج حذاء، حتى لو كان زوج الحذاء غالي

الثمن. أي شخص يفكر عكس هذا هو حتما نوع من الوحوش. ستقفز إلى الماء، أليس كذلك؟ بالتأكيد سنفعل. ربما أنت غني بالقدر الكافي لإنقاذ طفل في إفريقيا من الموت جوعًا أو بسبب مرض استوائي قابل للعلاج. لن يكلفك ذلك أكثر من ثمن الحذاء الذي أنت مستعد لإفساده بإنقاذك للطفل من البركة.

لماذا لن تساعد أطفالاً آخرين – على افتراض أنك لم تقم بذلك. مَنْح قدر صغير من المال لجمعية خيرية مناسبة سينقذ على الأقل حياة واحدة. هناك العديد من أمراض الأطفال التي يمكن حمايتهم منها بقدر قليل نسبيًّا من المال لشراء اللقاحات وأدوية أخرى. لكن لماذا لا تشعر بنفس الإحساس الذي شعرت به تجاه الطفل الذي كان سيغرق في البركة، تجاه طفل يموت في إفريقيا؟ إذا كان لك نفس الشعور، فأنت إنسان غير عادي. أغلبنا لا يحسون بنفس الشعور، حتى لو شعرنا ببعض الإحراج بسبب ذلك.

بين الفيلسوف الأسترالي بِيتَر سِنْغَر (ولد سنة 1946) أن الطفل الغريق والطفل الجائع في إفريقيا لا يختلفان كثيرًا. يجب أن نهتم بمن نستطيع إنقاذهم في كل العلم أكثر مما نفعل الآن. إذا لم نفعل شيئًا، فإن الأطفال الذين كانوا سيعيشون لو فعلنا شيئًا ما سيموتون حتما في سن مبكرة. هذا ليس تخمينا. نعرف أنه حقيقي. نعرف أن عدة آلاف من الأطفال يموتون كل سنة بسبب أسباب لها علاقة بالفقر. بعضهم يموت جوعًا في الوقت الذي نرمي فيه الأكل الذي فسد في ثلاجاتنا ولم يكن لنا الوقت لأكله.

بعضهم لا يتمكن من الحصول على الماء الصالح للشرب. إذن يجب أن نتخلى عن شيء أو شيئين من الكماليات التي لا نحتاجها حقًا لمساعدة الناس غير المحظوظين بسبب الأماكن التي وُلدوا فيها. هذه فلسفة يصعب على الكثير تطبيقها. لكن هذا لا يعني أن سِنْغَر مخطئ حول ما يجب أن نفعل.

ربما ستقول أنه إذا لم تُقدِّم أموالاً لجمعية خيرية، فإنه من المحتمل أن آخرين سيفعلون. تكمن المخاطرة هناك في أننا كلنا سنبقى نشاهد ما يقع دون فعل أي شيء، كل يفترض أن الآخر سيقوم بما هو ضروري. الكثير من الناس عبر العالم يعيشون في فقر حاد وينامون كل يوم على بطن فارغ بسبب أن تلبية حاجياتهم عبر العمل الخيري تُتْرك لقلة من الناس. صحيح أنه في حالة الطفل الذي كان يغرق أمام عينيك، كان من السهل عليك معرفة ما إذا كان هناك شخص آخر سيقوم بالمساعدة. لكن مع وجود معاناة في بلدان بعيدة، سيكون أصعب معرفة آثار ما نفعل، وآثار أفعال ناس آخرين. لكن هذا لا يعني أن عمل لاشيء هو أحسن حل.

هناك شيء مرتبط بهذه الفكرة وهو الخوف من أن تقديم الأموال لمساعدة الناس في الخارج سيجعل الفقراء يتواكلون على الأغنياء، ولن يشجعهم على البحث على طرق إنتاج أكلهم الخاص وبناء الآبار والأماكن التي سيقيمون فيها. مع مرور الوقت ستصبح الوضعية أسوأ من لو انك لم تمنحهم أي شيء على الإطلاق. هناك حالات لدول كاملة أصبحت متواكلة على

المساعدة الأجنبية. لكن هذا لا يعني أنه لا يجب أن نساهم في الأعمال الخيرية، لكن يجب علينا أن نفكر في نوعية المساعدة التي تقدمها هذه الجمعيات الخيرية. لا يعني ذلك أنه لا يجب علينا أن نحاول ونساعد. يمكن لبعض أنواع المساعدة الطبية الأساسية أن تُقدِّم للفقراء فرصة بأن يكونوا مستقلين عن المساعدة الخارجية. هناك جمعيات خيرية تعمل على تدريب الناس المحليين على مساعدة أنفسهم، وبناء الآبار التي تزودهم بالماء الصالح للشرب، أو تزويدهم بتربية صحية. لا يعني سِنْغَر أنه لا يجب علينا أن نساهم بالمال لمساعدة الآخرين، لكن يجب تقديم المال للجمعيات الخيرية التي من المحتمل أنها ستقدم مساعدة للمحتاجين في العالم بطرق تسمح لهم بكسب سلطة أكبر وتحقيق طريقة عيش مستقلة. رسالته واضحة: أنت متأكد من أنه يمكنك أن يكون لك تأثير حقيقي على حياة الناس الآخرين، وبالتالي يجب عليك فعل ذلك.

يعتبر سِنْغَر واحدًا من أشهر الفلاسفة الأحياء. وذلك جزئيًّا لأنه نازع كثيرًا من الآراء المنتشرة على نطاق واسع. بعض معتقداته هي مثيرة للجدل. يؤمن الكثير من الناس بقدسية الحياة البشرية - قتل مخلوق بشري آخر هو دائما خطأ جسيم. لا يؤمن سِنْغَر بذلك. إذا كان هناك شخص في وضعية صحية ميئوس منها ولا أمل في شفائه - يتم الاحتفاظ بالجسد على قيد الحياة دون وعي واضح منه بالحياة، يعتقد سِنْغَر بأن القتل الرحيم مناسب في هذه الحالة. لا فائدة من الحفاظ على

مثل هؤلاء الناس أحياء في هذه الوضعية، يعتقد سِنْغَر، لأنه ليست لهم القدرة على الاستمتاع أو اختيار طريقة العيش. ليست لهم رغبة قوية على الاستمرار في الحياة لأنهم غير قادرين على أن تكون لهم رغبات إطلاقًا.

جعلته هذه الآراء غير محبوب في بعض الأوساط. حتى أنه سمي بنازي لدفاعه عن القتل الرحيم في هذه الظروف الاستثنائية - على الرغم من أن والديه كانا من يهود فيينا الذين فروا من النازيين. تحيل هذه التسمية على حقيقة أن النازيين قتلوا الآلاف من الناس المرضى والمعاقين ذهنيًا وجسديًا بدعوى كونهم، حسب زعمهم، لا يستحقون الحياة. سيكون من الخطأ تسمية ما قام به النازيون قتلاً رحيما، لأن ذلك القتل لم يتم بهدف إنهاء معاناة إنسانية ولكن بهدف التخلص من تلك (الأفواه غير النافعة) لأنهم لم يكونوا قادرين على العمل، ولأنهم كانوا يلوثون، حسب زعم النازيين، الجنس الآري. لم يكن هناك أي معنى للرحمة في هذا الفعل. في المقابل يهتم سِنْغَر بنوعية الحياة للناس المعنيين، ولم يكن ليوافق النازيين على ما فعلوا بأي وجه من الوجوه - على الرغم من أن بعض معارضيه يشوهون آراءه لتبدو وكأنها نازية.

أصبح سِنْغَر مشهورًا في الأول بفضل كتبه المؤثرة عن معاملة الحيوانات وخصوصًا تحرير الحيوانات، الذي نشر سنة 1975. في بداية القرن التاسع عشر، دافع بَنِثام جِيرْمِي عن الحاجة إلى الاهتمام الجدي بمعاناة الحيوانات، غير أنه في سبعينيات القرن

الماضي عندما بدأ سِنْغَر في الكتابة عن الموضوع، القليل من الفلاسفة من رأوا الموضوع من هذا المنظور. يؤمن سِنْغَر، مثل بَنِثام مِيل (الفصل 21 و24) بالنتائج. هذا يعني أنه يؤمن بأن أحسن الأفعال هي التي تنتج أحسن النتائج. وللحصول على أحسن نتيجة يجب أن نأخذ بعين الاعتبار مصالح كل المعنيين بما فيهم الحيوانات. يعتقد سِنْغَر، مثل بَنِثام، أن الخاصية الأساسية التي لها صلة بالموضوع لمعظم الحيوانات هي قدرتهم على الشعور بالألم. كمخلوقات بشرية فإننا أحيانًا نحس بمعاناة أكثر من الحيوانات في وضعية مشابهة لأن لنا القدرة على التفكير وفهم ما يحدث لنا. يجب أخذ هذا أيضًا بعين الاعتبار.

يسمي سِنْغَر الذين لا يعطون قيمة كافية لمصالح الحيوانات (المتعصبون للنوع speciesist). وتشبه هذه التسمية كلمتي (عنصري) و(متعصب لجنسه). يعامل العنصريون الأعضاء الذين ينتمون لعرقهم بطريقة مختلفة: يعاملونهم بطريقة خاصة. لا يعطون لأعضاء من أعراق أخرى ما يستحقون. مثلاً قد يمنح عنصري أبيض عملاً لشخص أبيض آخر على الرغم من وجود شخص أسود مؤهل قدم طلب التشغيل في هذا العمل. هذا بالتأكيد غير عادل وغير مقبول. يشبه التعصب للنوع العنصرية. يَنْتُج هذا الموقف عن الرؤية من خلال منظور النوع الذي تنتمي إليه فقط وعن الانحياز لصالحه. الكثير منا يفكر، كمخلوقات بشرية، فقط في المخلوقات البشرية الأخرى عندما

نقرر ما نفعل. أين هو المشكل في هذا الأمر. قد تعاني الحيوانات من شيء ما، ويجب أن نهتم بمعاناتهم.

إعطاء احترام متساو لا يعني معاملة كل أنواع الحيوانات بنفس الطريقة. سيكون ذلك غير معقول على الإطلاق. إذا ضربت الحصان بكف يدك على ظهره، فلن تسبب له احتمالاً أي ألم. تتوفر الخيول على جلد سميك. لكن إذا فعلت نفس الشيء لرضيع بشري، فسيُحدِث ذلك ألما فظيعًا. لكن إذا ضربت الحصان بطريقة تشعره بنفس الألم الذي أحس به الرضيع، فهذا فعل غير أخلاقي، ويجب عدم فعل الاثنين طبعًا.

يبين سِنْغَر أنه يجب أن نكون كلنا نباتيون على أساس أنه يمكننا العيش بطريقة جيدة دون أكل لحم الحيوانات. تُسبِّب لنا أغلب الصناعات الغذائية التي تستعمل لحم الحيوانات معاناة، وبعض طرق تربية الحيوانات تسبب الكثير من الألم لهم. يُحتفظ بالدجاج مثلاً في أقفاص صغيرة، ويُحتفظ ببعض الخنازير في إسطبلات حتى يحدوا من حركتهم، كما أن عملية الذبح تُسبب لهم معاناة وألم شديدين. يبين سِنْغَر بأنه ليس من الأخلاق السماح لهذه الممارسات بالاستمرار. لكن حتى بعض الطرق الإنسانية في تربية الحيوانات غير ضرورية ما دام بإمكاننا عدم أكل لحم الحيوانات. كان سِنْغَر وفيًّا لمبادئه ونشر وصفة غذائية تعتمد على العدس في أحد كتبه ليشجع القراء على البحث عن بدائل للحم.

ليست حيوانات المزرعة هي التي تتعرض للمعاناة على أيدي المخلوقات البشرية. يستعمل العلماء الحيوانات في تجاربهم. ليس فقط الجرذان والخنازير، بل قد تجد القطط والكلاب والقردة وحتى الشمبانزي في مختبراتهم، والكثير منهم يعاني ويتألم عندما يُخدَّرون أو يتعرضون لصدمات كهربائية. كان اختيار سِنْغَر لمعرفة ما إذا كانت التجربة مقبولة من الناحية الأخلاقية هو كالتالي: هل أنت مستعد لإجراء نفس التجربة على مخلوق بشري تعرض دماغه للإتلاف؟ إذا كان الجواب لا، يعتقد سِنْغَر أنه ليس صحيحًا إجراء التجارب على حيوانات لها نفس درجة الوعي العقلي. هذا اختبار صعب ولن تنجح الكثير من التجارب من اجتيازه. من الناحية العملية، يرفض سِنْغَر استعمال الحيوانات في التجارب.

تؤسس مقاربة سِنْغَر للقضايا الأخلاقية على فكرة الاتساق (عدم التناقض). يعني الاتساق معاملة حالات متشابهة بنفس الطريقة. إنها مسألة منطق أنه إذا كان ما يجعل أذى المخلوقات البشرية غير صحيح هو أنه يسبب الألم، إذن فبالمثل يجب أن يؤثر الألم الذي تحس به الحيوانات على سلوكنا. إذا كان الأذى الذي يتعرض له الحيوان يسبب له ألما أكثر من الألم الذي يحس به البشر، فمن الأحسن أن تؤذي مخلوقًا بشريًا إذا كان عليك أن تؤذي واحدًا منهم.

كان سِنْغَر، مثل سُقرَاط، يخاطر عندما يقدم تصريحات عمومية حول الطريقة التي يجب أن نعيش بها. كانت هناك

احتجاجات ضد محاضراته وتَلقّى تهديدات بالقتل. غير أنه يمثل أحسن تقليد في الفلسفة. إنه يُسائل الأفكار الشائعة. تؤثر فلسفته على الطريقة التي نعيش بها. عندما يختلف مع الناس الآخرين، يكون مستعدًا لمواجهة آراء الناس الذين يجدهم حوله وينخرط في نقاش عمومي.

الأهم من ذلك، هو أنه يدعم خلاصاته بأفكار معقولة يستمدها من حقائق توصل إليها بعد بحث عميق. ليس ضروريًا أن تتفق مع أرائه لترى صدقه كفيلسوف. تنتعش الفلسفة أصلاً بالنقاش. إنها تتطور باتخاذ الناس لمواقف متعارضة والدفاع عنها بالمنطق والحجة. إذا كنت تختلف مع آراء سِنْغَر، مثلاً حول الوضع الأخلاقي للحيوانات أو الظروف التي تسمح بالقتل الرحيم، هناك أمل بأن قراءتك لكتبه ستجعلك تفكر في ما تعتقده فعلاً وفي الأدلة والمبادئ والأفكار التي تدعم اعتقادك.

بدأت الفلسفة بأسئلة محرجة وتحديات صعبة؛ مع وجود نُعَر فلسفية پيتَر سِنْغَر، هناك أمل بأن روح سُقرَاط ستستمر في تشكيل مستقبلنا.



نايْجل وَاربُرتوْن

فيلسوف بريطاني مستقل، ذو أعمالٍ مُوجهّةٍ إلى القرّاء غير المُتخصصين بشكل أساسيّ، له عدد من الكتب الأكاديميّة في مجاليّ الجمال والأخلاق، بالإضافة إلى كتبه الأكثر مبيعًا في تبسيط الفلسفة. منها:

الفلسفة الأساسيات، ١٩٩٢.

التفكير من الألف إلى الياء، ١٩٩٦.

الفسلفة التقليدية، ١٩٩٨.

فن التساؤل، ٢٠٠٣.

لسعات الفلسفة، ٢٠١٠.



جَمَع وَاربُرتوْن الكثير في شيء يشبه حجم غولديلوكس: ليس بالكثير وليس بالقليل أيضًا، التفسير ليس بالضئيل ولا بالكثيف ولا بالوعر، يمكن استهلاك تاريخه المختصر كتجربة مغذية في حد ذاتها، أو يمكن له أن يقدم الوقود المناسب لانطلاق أي شخص في رحلته في عالم الفلسفة.

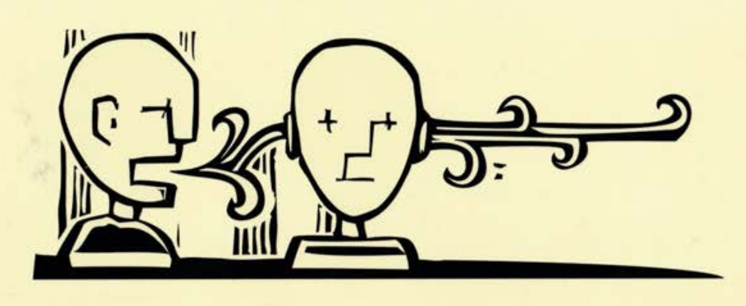
جوليان باغيني من صحيفة الأوبزرفر

يكمن سحر كتاب وَاربُرتوْن في سهولته الملطفة...وَاربُرتوْن هو الصرخة المثالية لكاتب يريد أن يماثل سحر غومبرتش الموجز وسلطته المريحة... لديه موهبة خاصة في تفكيك التعقيد.

تايم آوت

مسْحٌ لكل تاريخ الفلسفة الغربية من خلال سير حياة فكرية مختصرة لأربعين فيلسوفًا من سُقراط إلى بيتر سِنغر... مهمة عسيرة: أن ينجح وَاربُرتوْن صاحب البرنامج الرقمي الممتاز (Philosophical Bites) جيدا في هذا الأمر فهو انتصار.

الغارديان







MA'NA للنشر والترجمة
العراق - بغداد - المنصور
darmanairaq@gmail.com

دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي
07819141219 | 07702931543
darktbalmya@yahoo.com